قصص الصحابة والصالحين

إمام الدعاة فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى

المكتبة التوفيقية



لفضيلة الإمام

محمد متولى الشعراوى

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

قال فضيلة الإمام محمد متولي الشعراوي:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد أُذن الخير التي استقبلت آخر إرسال السماء لهدى الأرض، ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق مراده من الخلق، وعلى آله وصحبه دعاة الحق وسادة الخلق.

وبعد . .

رباط المجتمعات هو في نشر الفضائل بين مجموع الناس، وليس في تجميعها في شخصٍ واحدٍ، وبذلك يكون كل إنسانٍ محتاجًا لغيره مهما كان غنيًّا أو ذكيًّا.

وحاجات الإنسان فيها حاجات تطوع، وحاجات اضطرار، ولابد أن يجتمع هؤلاء، ويقسموا هذه المهمة بينهم.

فكل إنسان عنده موهبة في ناحيةٍ معينة، ويندر أن يوجد إنسان يجمع بين عدة مواهب أو عدة فضائل، وذلك من حكمة الله تعالى، لأن الإنسان حينما يتميز بشيءٍ ويكون غيره محتاجًا إليه فيه، يكون هو محتاجًا إلى غيره في شيءٍ آخر.

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

* قصة الصديق مع السابقين إلى الإسلام *

سيدنا أبو بكر ﷺ حينما استأذن عليه القوم في الدخول، فأذِنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالي، وترك بعض صناديد قريش على الباب، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا، وكان فيهم أبو سيدنا أبي بكر فقال له: أتأذن لهؤلاء وتتركنا؟ فقال له: إنه الإسلام الذي قدَّمَهم عليكم. وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم: ما لكم ورِمَتْ أنوفكم؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم.

فالغضب الحقيقي سيكون في الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة، وتتأخرون أنتم في هَوْل الموقف.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[1].

ثم يقول تعالى: ﴿ **وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾[2]. فهذا الخزْيُ الذي رَأوْه في الدنيا لن يُفلتهم من خزْي وعذاب الآخرة، ومعنى ﴿ **عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾[3]. الحريق: هو الذي يحرق غيره من شدّته، كالنار التي أوقدوها لإبراهيم - عليه السلام - وكانت تشوى الطير الذي يمرُّ بها في السماء فيقع مشويًّا.

* * *

(١) سورة الواقعة: ١٠، ١١.

(٢) سورة الحج: ٩.

(٣) سورة الحج: ٩.

* قصة الصديق مع مسطح بن أثاثة *

حين يقول الحق سبحانه: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾[١].
فالعرضة هى الحجاب، وهى ما يعترض بين شيئين، «وعرضة» هى - أيضًا - الأمر الصالح لكل شيء، فيقال: «فلان عرضة لكل المهمات» أي: صالح لها. والعرضة - كما عرفنا - هى ما اعترض بين شيئين، كأن يضع الإنسان يديه على عينيه فلا يرى الضوء، هنا تكون اليد «عُرضة» بين عيني الإنسان والشمس، إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء.

كأن الحق سبحانه يقول: «أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى» . فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول: «أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان» إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعًا بينك وبين البر.

ويريد الحق سبحانهَ بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز في منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس. . ومن حلف على شيء فرأى غيره خيرًا منه فليفعل الخير وليكفِّرْ عن يمينه، لماذا؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيرًا فهو يضع الله مانعًا بينه وبين الخير، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله، إن الله تعالى هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، لذلك فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾[٢]. أي: أن الحق سبحانه يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٤.

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل الخيـر فالحق سبحانه يريد لك أن تحنث في هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع الله، ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر، واتقى فيه كل إنسان المعـاصي، ورأى فيه كل إنسان نزاعـًا بين جماعـتين فأصلح هذا النزاع، أليس هذا دخولاً في السلم كافـة، إذن: فالحق سبحانه يريد أن يسـتبقي للناس ينابيع الخير وألا يسدّوها أمام أنفسهم.

إن الحق تعالى هو الآمـر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعـًا بين الإنسان والبر، أو بين الإنســان والتـقوى، أو بـين الإنسان والإصـلاح بين الناس، ويتـســاهل الإسلام في مـسألة التراجع والحنث في البـر فيقـول السلف الصالح: «لا حنث خير من البر» . إذن: فالمجتـمع الذي فيه صنع البر، وتقوى المعاصي، والصلح بين المتخاصمين يدخل في إطار:

﴿ ادْخُلُوا في السِّلْمِ كَافَّةً ﴾[١].

والإنسان قد يتعلل بأي سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس، بل يعمل شيـئًا يريحه ويخلع عليه أنه ممتـثل لأمر الله، ولنضرب لذلك مثلاً: سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ بعـد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا في الإفك الذي اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ .

وخلاصة الأمر أن عائشة ﷺ زوجة رسول الله ﷺ، كانت قد خرجت مع الرسول الكريم ﷺ في غزوة «بـني المصطلق» وكان الأمـر بالحجـاب قد نزل، لذلك خرجت عائشة ﷺ في هودج[٢].

وقام الرسول ﷺ بغزوته وحـان وقت العودة، وفقـدت عائشة عقـدًا لها،

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٨.

(٢) هودج: الهودج: مقصورة ذات قبة، توضع على ظهر الجمل، فتركب فيها النساء، والجمع: هوادج. المعجم الوجيز (٦٤٦).

وكانت رضي الله عنها خفيفة الوزن؛ لأن الطعام في تلك الأيام كان قليلاً، راحت عائشة رضي الله عنها تبحث عن عقدها المفقود، وعندما حملوا هودج عائشة رضي الله عنها لم يفطنوا أن عائشة ليست فيه، ووجدت عائشة عقدها المفقود، وكان جيش رسول الله ﷺ قد ابتعد عنها، وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعوا إليها، وكان خلف الجيش صفوان بن المعطل السلمي وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة، ودار حديث الإفك بواسطة عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول رأس النفاق.

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وبيَّن الحق كذب هذا الحديث. وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهى زوجة رسول الله ﷺ قبل أن تكون بنت أبي بكر، وأبو بكر صديق رسول الله ﷺ ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبي بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك في حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبريء الله سبحانه وتعالى عائشة وينزل القول الكريم الذي يثبت براءة أم المؤمنين في حديث الإفك، وحين يبرئها الله سبحانه يأتي أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول: «والله لا أنفق عليه أبدًا» لماذا؟ لأنه اشترك في حديث الإفك، والمسألة في ظاهرها ورع.

لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحًا خاض في الإفك، لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله سبحانه فقد بيَّن الحق تبارك وتعالى أن هذا طريق، وذاك طريق آخر، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي القُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة النور: ٢٢.

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة؟ وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم، قالها الحق - عز وجل - لأبي بكر؛ لأنه وقف موقفًا من رجل خاض في الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا﴾[1]. لا تقل: إني حلفت بالله على ألاّ أفعل ذلك الخير، لا. افعلْه فالله سبحانه يرضى لك أن تحنث وتكفِّر عن يمينك.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. إن الله - عز وجل - يبلغنا: أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بي عُرضة، يعني: حاجزًا أو مانعًا عن فعل الخير، مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصًا أساء إليك فلا تقل: حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعًا للبر. وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك: لا، أنا متجاوز عن اليمين بي؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقي أو لا تصل رحمًا أو لا تصلح بين اثنين، أنا تسامحت في اليمين.

والحديث: يقول: «مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفِّرْ عن يمينه»[3]. وهكذا يحمي الحق سبحانه وتعالى فعل البر ويحمي التقوى ويحمي عمليات الإصلاح بين الناس، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها، لماذا؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع، فقد ناقضت التشريع نفسه؛ لأن الله تعالى هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى، فلا تجعل يمين البشر مانعًا من تنفيذ منهج رب البشر.

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٤.

(٣) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٣٢٤٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٦، ٤٤١)، والحاكم (٤/ ٣٩٤) وصححه، وأقره الذهبي، والطبراني (١٨/ ١٨٧) في الكبير.

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [١] . إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع في اليمين، احنث[٢] فيه وكفِّرْ عنه، والحكم نفسه يسري على الذي يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة.

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٤.

(٢) احنث: الحنث: الرجوع في الشيء.

* قصة البركة والسحت مع الصديق والفاروق *

الله تبارك وتعالى حين طلب منا أن نبتعد عن الحرام يسر لنا ذلك.. لا يقول أحد إن الله تركنا تتجاذبنا الإغراءات دون أن يعيننا على الحلال.. إنك لن تجد إنسانًا أراد أن يعيش حلالاً إلا يسر الله له ذلك.. ولن تجد إنسانًا اتجه إلى الحرام إلا أتعبه وأشقاه الله في الدنيا..

وأول التيسيرات لمن يطلب العيش الحلال أن الله جل جلاله يبارك له في رزقه وأول هذه البركة أن الرزق يفى بحاجته.. يذهب إلى السوق فلا يجذب نظره أو انتباهه إلا ذلك الشيء رخيص الثمن الذي يتناسب مع دخله.. هذا الشيء يسعده ويأخذه إلى بيته وهو فرحان. فإن كان يريد طعامًا فلا يغريه إلا السمك الصغير أو اللحوم الرخيصة، فإذا ذهب بها إلى بيته فرحت بها زوجته وأولاده، بينما الرجل الذي ماله حرام.. لا يقنع أبدًا إلا بأغلى الأشياء، إنه يرهق نفسه في البحث عنها ويتكبد المشاق في الحصول عليها.. فإذا أخذها إلى بيته فقد لا تعجب بها زوجته وأولاده.. ويقولون له إنها غير جيدة وتكون النتيجة أنه ينفق المال.. ولا يجد قبولاً .. وربما أدركت أنه يشعر بتعاسة أهل بيته..

لقد كان لي زميل عزيز وكنا مدرسين معًا في معهد واحد.. وكان دائمًا يشكو لي من أولاده، وكيف أنهم لا يكفيهم المصروف الذي يأخذونه، وأنهم باستمرار يحتاجون إلى دروس خصوصية.. وأنه ينفق عليهم كذا وكذا. وعندما حان موعد انصرافنا كان يمسك في يديه بمظروف أصفر.. قلت له ما هذا.. قال هذه بعض الأوراق والأقلام والأساتيك ليذاكر بها الأولاد في البيت.. قلت أتعطيهم من هذه الأشياء؟.. قال نعم.. قلت له: إن أردت أن يكفيك دخلك

ويستغني أولادك عن الدروس الخصوصية فامتنع أنت عن أخذ هذه الأوراق والأقلام والأساتيك من عهدة المعهد. فنظر إلي وكأنه استكثر ما أقول.. ومضت عدة شهور وجاءني مستبشرًا.. وقال لي لقد توقفت عن أخذ ما كنت أستولى عليه من عهدة المعهد.. فامتنع كل ما ينغص على حياتي..

قد تكون هذه الأشياء التي نقترفها صغيرة وضئيلة لدرجة أننا لا نحس بها.. ولكنها في الحقيقة أشياء كبيرة على حياتنا. فإذا كان هذا هو ما يحدث بسبب قلم رصاص أو رزمة ورق.. فما الذي يمكن أن يحدث في حياة الناس بسبب مئات الألوف من الجنيات؟! إنها تنقلب تمامًا.. تجد الأم في ناحية يسلط الله عليها من صديقات السوء ما يدفعها إلى أشياء خطيرة تضر ببيتها وأولادها، وتجد الأب في ناحية وقد غرق في مشاكل مهما كسب لا يكفي.. ينفق بلا حساب.. وتكون هذه النفقة عليهم وبالاً وحسرة.. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾[١].

لماذا؟.. لأنه باع نعيمًا مقيمًا بشهوة تستغرق زمنًا قصيرًا! ولأنه باع خلودًا في الجنة بعمر محدود قصير في الدنيا.. لا يساوى مهما كانت قيمته شيئًا بالنسبة للآخرة.. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[٢].

إن الله يريد أن يلفتنا إلى أن الذين يعملون ما يشاءون في الدنيا دون التزام بمنهج الله.. يخسرون أنفسهم يوم القيامة. كيف يخسرون أنفسهم وهم قد حققوا لها كل ما تريده في الدنيا؟.. ونقول إن من يضحى بنعيم دائم مقابل شيء موقوت أيكون كاسبًا؟!

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦.

(٢) سورة الزمر: ١٥.

.. ولكن هناك من هو أشر من ذلك.. الذي باع دينه بدنيا غيره.. كيف يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره؟ .. بأن يتطوع لشهادة الزور لصالح أحد أصحاب النفوذ .. أو يكذب أو يظلم ليرضي رئيسًا له.. أو يغضب الله ليرضى من يعتقد أنه ينفع ويضر ولا ضار إلا الله سبحانه وتعالى.. هذا هو الذي يبيع دينه بدنيا غيره..

وهنا يأتيني دائمًا سؤال: هب أن إنسانًا جمع مالاً من حلال وحرام ثم مات.. هل يحاسب ورثته على آثامه إن ورثوا ماله وبعضه حرام؟.. وهل يجب عليهم ألا يقربوا هذا المال؟..

نقول لا.. الذين يرثون هذا المال لا يحاسبون بذنوب صاحبه. لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.. ولذلك سمى رسول الله ﷺ هذا المال هدية.

إذن فالمال الحرام قد يكون أكبر عددًا.. وقد يقال عن صاحبه أنه يملك كذا وكذا، ولكنه في الحقيقة يَقْلِبُ البيت على أصحابه.. والله سبحانه وتعالى يجعله نكدًا.

ولكن هل هناك فرق بين المال الحرام وبين السحت؟

أولاً ما هو السحت؟.. السحت هو الشيء الذي أخذته عن حركة غير مشروعة في الحياة.. والسحت مثل الربا.. يأخذه الإنسان ليزيد به ماله، ولكن الله يمحقه كما يمحق الربا. السحت هو ما تأخذه بالقوة أو بالقهر أو بالتهديد أو بأي طريق آخر غير مشروع كأن تذهب إلى التاجر وأنت موظف مسئول.. تقول له سأغلق لك محلك إذا لم تدفع كذا.. هذه ليست رشوة ولكنها سحت..

لقد أعطى أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى أحد صبيانهما درهمًا ليحضر لهما قدحًا من اللبن. فذهب وأحضر قدح اللبن فشرباه، ثم إذا بالصبي يعيد إليهما

الدرهم.. فقالا له من أين جئت بهذا اللبن؟ .. قال: قلت للراعي: إن أمير المؤمنين يريد قدحًا من اللبن فأعطانيه.. فذعر أبو بكر وعمر وقالا: ألا تعلم أن هذا سحت، وكل سحت في النار.. ثم أخذا يتقيآن عمداً.. ورسول الله ﷺ يقول: «**كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**».



* قصة الصديق مع الفاروق أيام الردة *

«المنافق» كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش في الجبال في سراديب، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه، فهو يسرع إلى جحره الذي يشبه السرداب، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية، فينجو من الافتراس، فكأنه فتح لنفسه نفقًا، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضًا مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به، وبينما المؤمن منسجم النفس؛ ينطق لسانه بما في قلبه، والكافر أيضًا كذلك منسجم ينطق لسانه بما في قلبه من الكفر، ولكن المنافق متخبط مع نفسه، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر، وهكذا تتعاند ملكات المنافق، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية، وحسبك من المنافق أنه متعاند في الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾[1].

إذن فالذاتية ضائعة؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازنًا، ولكن الذي تتعاند ملكاته يعيش دائمًا في قلق نفسي وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها،

(١) سورة البقرة: ١٤.

والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار، ويقول الله تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾[1].

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيمانًا وثقة في أنفسهم، وتملؤهم عزة الإيمان، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً، فهم في نفاقهم كفار، في قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون: أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقًا على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكه يعتز بالله القوى العزيز، ويزداد تواضعًا له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التي لا تعد ولا تحصى، وما دامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها، والمغرور يستعلى بأي خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذي لا يستعلى أبدًا بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له، وأن الفضل لله تعالى، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين:

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

والشدة هنا ليست غروراً، ولكنها طبع وملكة، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبدًا، ولا يمكن أن يجعله إيمانه في قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطي المؤمنين مرونة أمام الأحداث، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه، لأن هناك مواقف

---

(١) سورة الأنفال: ٤٩.

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

تتطلب الرحمة في التعامل مع المؤمنين، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة في مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه معروفًا بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه مليء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت حرب الردة لمانعي الزكاة ماذا حدث؟ . جلس هو وعمر بن الخطاب، والمعروف عن عمر أنه كان شديدًا، وجلسا يتشاوران، وكان رأي عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة؛ لأنهم قالوا: لا إله إلا الله، فقال له أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه».

هذا هو أبو بكر الذي عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى، وكان قلبه يمتليء بالرحمة للمؤمنين. إنه يعلن في قوة وشدة في الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس: شدة ألفناها، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن في مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين، وعزيز حين تكون العزة للدين، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[1]. لا يستند إلى حكم صحيح، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم، لماذا؟.

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائمًا وينسبون كل الفضل لله تعالى:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٩.

(٢) سورة الأنفال: ٤٩.

وما دام الله عزيزًا فالذي آمن به عزيز، وسبحانه وتعالى يقول:

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[١].

وما دام الله حكيمًا فهو يعطي الحكمة للمؤمنين، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب، فلا تترك الأسباب أبدًا، بل خذ بها دائمًا مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب. فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين:

﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾[٢].

وأمرنا سبحانه وتعالى: بالسعي فقال - عز وجل -:

﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[٣].

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدي المؤمنين، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا في سبيل الرزق.

وأنت حين تتواكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب، والعمل تقوم به الجوارح، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقي للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل، ولابد لنا أن نتنبه إلى المنافقين في بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى:

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾[٤].

---

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة التوبة: ١٤.

(٣) سورة الملك: ١٥.

(٤) سورة الأنفال: ٤٩.

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما في صدورهم، أما الذين في قلوبهم مرض هم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك أجرة ليس هذا منًّا أو كرمًا منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن.. فهو رزق في قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهدًا كبيرًا في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقًا. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالي الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن.. فالرزق يعرف مكانك ويأتي إليك ولكنك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعامًا تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتي طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت. وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن.. فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾[1].

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط في الدنيا بأسباب العمل، فالرزق في الآخرة يأتيك بلا عمل.

---

(١) سورة النحل: ١١٢.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

إذن.. فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضًا مغفرة ورزق كريم.

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها، فالذين آمنوا هم جميعًا قد انتموا انتماء أوليا إلى الله، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهورًا في أشياء ومختارًا في أشياء يفعلها أو لا يفعلها، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له؛ ففعل ما قال له: «افعل»، ولم يفعل ما قال له: «لا تفعل»، فكأنه اختار مرادات الله في التشريع.

إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعدادًا جيدًا، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار في أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء.

مثلاً دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله - عز وجل - لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر، تلك هي الأفعال التي جعل الله لك فيها اختيارًا. ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورًا لفعل، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعًا لفعل؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليعرف مَنْ مِن عباده أحب الله فأطاعه في التكليف، ومَنْ مِن الخلق قد عصاه.

* * *

(١) سورة الأنفال: ٧٥.

* قصة الصديق مع الفاروق عند وفاة النبي ﷺ *

هذه كلها مواقف إيمانية، وتربوية لم تكن لتأتي وتظهر إلا بهذه المعركة.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1]. وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم؟ فكيف تكونون أنتم أقل شأنًا من هذه الأمم؟ هبوا أن ذلك قد حدث، فلماذا لا يبقى ما بلغه رسول الله ﷺ لكم حيًّا في نفوسكم تورثوه لما بعدكم إلى يوم القيامة.

إن الرجل الذي يصنع خيرًا يموت بموته، لا يكون قد صنع شيئًا؟! إن الذي يريد أن يصنع خيرًا فعليه أن يصنع خيرًا يخلفه.

وساعة تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ فهذا أسلوب اسمه أسلوب القصر، إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدًا على الرسالة. فإذا قصر محمدًا ﷺ على الرسالة، فهذا يعني أن نفرًا من المعاصرين له كانوا يظنون أن محمدًا أكثر من رسول ولا يموت. فأوضح الله سبحانه أن محمدًا رسول، وقد خلت من قبله الرسل. ولن يخلد الله أحدًا في الدنيا، فهي لم تخلق للخلد أصلاً.

والسؤال: هل غاب ذلك عن الذهن؟

الجواب: نعم. كان ذلك يغيب عن ذهن البعض أحيانًا، بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنًا يُتلى، وقف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوم أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فقال: والله ما مات ولكنه

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات[١].

قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة وهو مَنْ هو، فإذا بالصديق رضي الله تعالى عنه يقول: بعد أن عاين الأمر: على رسلك يا عمر، ثم تشهد أبو بكر وحمد الله تعالى وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ رضي الله تعالى عنه قول الله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[٢].

ألم يقل الله: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[٣]. فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: فوالله كأني ما سمعتها قبل الآن.

وهذه القضية تعطينا أمرين:

الأمر الأول: هو حب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الشديد لرسول الله ﷺ

الأمر الثاني: هو أن الحب لا يصح أن يخرجنا عن طور الإيمان فعمر بن الخطاب قال: عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية وقعت على الأرض كأني لم أسمعها إلا الآن.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١٢٤١)، (١٢٤٢)، وأحمد (٦/ ٢٢٠)، والنسائي (٤/ ١١)، وابن سعد (٢/ ٢٦٥) في طبقاته، والبيهقي (٧/ ٢١٤) في دلائل النبوة.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

إذن . . قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[١].
أي: لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا، فرفعتكم له دون ما تحبون أن يرفع إليه.

كأن الحق يخبرنا، لقد رفعته أنا إلى الدرجة العالية الرفيعة التي لا تنبغي لأحد إلا له ﷺ، فلم، ولن ترفعوه مثلما رفعته أنا.

ومعنى: ﴿يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[٢]. أي: يرجع. فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ ؟ إن هذا يصح، وذلك يصح.

ثم نعود إلى أرض المعركة فبعدما حدث ما حدث، وعلا خالد بن الوليد والمشركون الجبل، كان رسول الله ﷺ في مكانه ثابت كالجبال الشوامخ ثقة في ربه أنه لن يسلمه ومعه ﷺ طائفة ممن أرادوا الله ورسوله والدار الآخرة ينافحون عنه، ويفتدونه بأرواحهم لحسن توكلهم على الله ولثقتهم أن الله تعالى سينصر رسوله ﷺ ، وينجز له مأموله، ووفاء لرسول الله ﷺ وعهده معه، فقد كانوا بايعوه على أن يمنعوه ﷺ ممن يمنعون منه أنفسهم، عندئذ ثبتهم الله تعالى وأنزل عليهم السكينة، وغشيهم النعاس أمنة منه تعالى[٣].

في تلك الساعات الرهيبة التي يطيش من هولها عقل الحليم، ويخور من رهبتها الشم الشوامخ[٤] يمر برسول الله ﷺ طاغية من جبابرة قريش، هذا

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٣) وفي هذا يقول أبو طلحة رضي الله عنه:

غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي، وآخذه، ويسقط، وآخذه.

حديث صحيح: رواه البخاري في صحيحه.

(٤) الشوامخ: جمع شامخ، وهو الجبل العالي.

الطاغية هو «أُبي بن خلف الجمحي» كان هذا المشرك كلما يلقى رسول الله ﷺ في مكة يقول له: عندي العوذ فرسًا أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليه، فيقول له رسول الله ﷺ قولة الواثق بربه: «**أنا أقتلك عليه إن شاء الله تعالى**»[(١)].

جاء هذا الطاغية يبحث عن رسول الله ﷺ وهو في هذا الموقف الذي أثخنته فيه الجراح، وكسرت رباعيته الشريفة وسال دمه الطاهر. وينادي ويقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا.

فيقول أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا يا رسول الله نقتله.

فيشير إليهم رسول الله ﷺ: أن دعوه.

فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من صحابي ممن معه، قيل هو: «الحارث بن الصمة» فطعن بها أبي بن خلف في عنقه، طعنة جعلته، يسقط من على فرسه، ويتدحرج من شدتها على الأرض، ويخور كما يخور الثور، فلما عاد إلى قريش واحتقن الدم في عنقه قال: قتلني محمد، فقال له أصحابه: ما بك من بأس، إنما هو خدش لو كان بعين أحدنا ما ضره. فقال: واللات لو كان هذا الذي بي بربيعة ومضر لماتوا أجمعين، أليس قد قال لي بمكة: أنا أقتلك، ومات عدو الله وهم راجعون في الطريق إلى مكة.

* * *

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه ابن سعد (٢/ ١/ ٣٢) في طبقاته، والطبري (٩/ ١٣٧) في تفسيره.

* قصة أبي بكر مع ابنه في المعركة *

على مقدار تقواكم وعلى مقدار صبركم وعلى مقدار إيمانكم، وعلى مقدار صدقكم العهد مع الله في الصفقة التي عقدها، تكون معونة الله لكم.

إذن.. فالمؤمن القوى هو الذي يقدر أن يحدد مقدار معونة الله له، فإن أرادها معونة قوية فليقبل بتقوى قوية، وإن أرادها معونة قوية فليقبل بإيمان قوى؛ لأن القوة العددية حين تلقى القوة الإيمانية لا يمكن أن تثبت معها أبداً.

ولذلك نجد أن الحرب الإسلامية الإيمانية ابتدأت في بدر، وحينما ابتدأت في بدر ماذا كان عدد المسلمين؟ وماذا كانت عدتهم؟ وماذا كان عدد المعسكر المقابل وهم الكافرون؟

ألف أمام ثلاثمائة وكذا، وعدد كثير أمام قليل، وعدد متوافرة أمام عدد قليلة، ولكن الله أراد أن يستهل معركة الإيمان الأولى استهلالاً يثبت الإيمان في نفوس المسلمين، وهو أنهم يجب ألا يستقلوا قوتهم؛ لأنهم غير معزولين عن الله، وإنما موصولون بالله.

وبعد ذلك يأتي واقع المعركة الذي يحقق مبادئ يجب أن نتنبه إليها.

فما هي هذه المبادئ؟

مثلاً: أبو بكر كان في صف رسول الله ﷺ، وابنه قبل أن يسلم كان في صف الكفار، وبعد ذلك يؤمن، وبعد أن آمن يقول: يا أبت لقد لقيتك يوم بدر فلويت وجهي عنك. أي أنه يقول: كان من الممكن أن أقتلك، ولكني صرفت وجهي عنك، فيقول له أبوه أبو بكر: أما والله لو رأيتك في المعركة لقتلتك.

موقفان:

١ ـ موقف يمثل الحق لا يجامل.

٢ ـ وموقف يمثل الباطل حين يلقى الحق فيتخاذل.

كلام أبي بكر ﷺ منطقي مع عقيدته، وكلام ابنه منطقي - أيضًا - مع عقيدته؛ لأن ابن أبي بكر حين يلقى أباه، أبوه له حق الأبوة عنده، وهو ليس على دين حق يغار عليه، فحين يقارن: يقارن بين حق أبيه وحق ماذا؟ لو كان مؤمنًا بأن عقيدته التي يقاتل عليها عقيدة حقة لهان أبوه في نظره، ولكنه حينما قارن حق أبيه لم يجد حقًّا مقابلاً ليقارنه به، بل وجد باطلاً، فوجد حق أبيه أفضل من لا حق يقف هو في صفه، وأبو بكر ﷺ كان - أيضًا - منطقيًّا مع عقيدته؛ لأنه مع الحق الإيماني، وابنه لا يغني عنه من الله شيئًا، إذن فقد قارن بين حق لابنه وحق لربه، فآثر أن يكون مع حق الرب، وإن كان ذلك على حق الابن، فقال: لو تراءيت لي في المعركة لقتلتك!.

تلك هي العقيدة الإيمانية حين تقاتل لكلمة الله، فيجب ألا يستقر في الذهن أبدًا إلا كلمة الله، ولا أنساب ولا أحساب ولا صلات؛ لأن صلة الإنسان بربه أولى من صلته بمن خلق الله.

❊ ❊ ❊

* قصة الصديق في الغار *

في غار حراء والرسول مهاجر إلى المدينة.. وصل الكفار إلى باب الغار.. وقال قصاص الأثر: إن آثار الأقدام قد انتهت هنا.. «أي عند مدخل الغار».. وقال أبو بكر ﷺ.. لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا.. ولكن رسول الله ﷺ قال له: **«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»**[١].

إن الرسول الكريم يريد أن يلفت أبا بكر إلى أنهما في معية الله تحيط بهما عنايته.. والله سبحانه وتعالى لا يُرى.. ولذلك فإن كل مَنْ في معيته لا يراهم أحد ولا يستطيع أن يعرف مكانهم.. ولذلك فإنه مهما نظر الكفار فإنهم لن يروا رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق..

ولم يكن نسيج العنكبوت أو بيض الحمامة، ليمنع الكفار إن دخلوا الغار. فلو أن عقولهم تقول إنه من غير المعقول أن يكون رسول الله ﷺ مختبئًا في هذا الغار.. فإنه كان من الممكن - للتأكد - أن يدخلوا الغار لتطمئن قلوبهم إلى أنه لا يوجد أحد بداخله.. ولكن الله سبحانه وتعالى وهو المتحكم في الخواطر والعقول.. جعل ذلك لا يخطر على بالهم.. وحتى لو دخلوا.. لمنعتهم معية الله من الرؤية.

* * *

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٥/ ٤)، (٦/ ٨٣) ومسلم (فضائل الصحابة/ ١)، وأحمد (١/ ٤)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٣٣) في مصنفه، وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٦) في السنة، والطبري (١٠/ ٩٦) في تفسيره.

* قصة الفاروق مع الحجر الأسود *

سيدنا عمر رضي الله عنه وكان القرآن ينطق على وَفْق ما يريد، يرى الناس يُقبِّلون الحجر الأسود، فتوقع أن يتكلم الناس في هذه المسألة، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهى حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر، وكان رضي الله عنه يُقبّله ويقول: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبّلتك»[١].

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادةَ لها عندنا، لكن عندنا النبي ﷺ وهو مُشرِّع لنا وواجب علينا اتباعه، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة.

ولما تكلم عمر في غلاء المهور وكان مُلْهمًا[٢] يوافق قولُه قولَ القرآن الكريم، وقفتْ له امرأة وراجعته وقالت له: اخطأتَ يا عمر، كيف تنهى عن الغلاء في المهور، والله تعالى يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾[٣]. فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب، عندها قال عمر بجلالة قدره: «أصابت امرأة وأخطأ عمر» ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله.

إذن: هذه مسائل مرسومة ولها أصل، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل في أمور ديننا.

* * *

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠)، وأبو داود (١٨٧٣)، والترمذي (٨٦٠)، والنسائي (٥/ ٢٢٧)، وابن ماجه (٢٩٤٣).

(٢) ملهمًا: موافقًا.

(٣) سورة النساء: ٢٠.

* قصة المنافسة بين الفاروق والعباس *

يقول الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا﴾[١]. والآيات إما كونية، كالشمس والقمر، وإما معجزات، وإما آيات الأحكام، و«سَعَوْا فيهـا» يعني: قالوا فيها قَوْلاً باطلاً غير الحق، كما يسعى الواشي بالباطل بين الناس، فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا: من صنع الطبيعة. وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبيٍّ قالوا: سحر وأساطير الأولين، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلَى قالوا: شعر. وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم، ويصدُّوا عن سبيل الله.

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ﴾[٢]. جمع لاسم الفاعل معاجز مثل: مقاتل، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى: لم يقدر عليه، عَاجَزَ فلانٌ فلانًا يعني باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل، ومثل: سابقه ونافسه.

إذن: فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذي نأخذه في الشهيق. ونُخرِجه في الزفير، والذي به يتأكسد الدم، وتستمر حركة الإنسان، فإن امتنع التنفس يموت؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء، لكنه لا يصبر على الهواءِ ولو لنفَس واحد.

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس ﷺ: قال عمر للعباس: أتُنافسني في الماء يعني: نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجِز

(١) سورة الحج: ٥١.
(٢) سورة الحج: ٥١.

الآخر، ويتحمل عملية توقُّف النفَس، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو في جَوٍّ الهواء، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء، فكيف سيحتال على هذه المسألة؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتي الذي اختزنه كل منهما في رئته، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح.



قصة الفاروق مع الكاره لامرأته

عاتب الحق سبحانه إبراهيم في ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه: أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه. فقال له ربنا: أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم؟ جرى فلحق بالرجل. وناداه فقال له الرجل: ما الذي جعلك تتغير هذا التغيير المفاجىء فقال له إبراهيم: والله إن ربي عاتبني لأني صنعت معك هذا. فقال له الرجل: أربك عاتبك وأنت رسول فيّ وأنا كافر به، فنعم الرب ربُ يعاتب أحبابه في أعدائه، فأسلم.

هذا هو المعروف، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل في أثناء الحياة الزوجية، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعًا كي لا يُخربوا البيوت. إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب في البيت لخُربَ البيت، نقول لهم: لا. بل «عاشروهن بالمعروف» حتى لو لم تحبوهن، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك، يا هذا أنت لم تفهم عن الله؛ ليس المفروض في المرأة أن تثير غريزتك، ولكن المفروض في المَرأة أن تكون مصرفًا، إن هاجت غريزتك كيماويًا بطبيعتها وجدت لها مصرفًا. فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة؛ ولذلك قال ﷺ: «**إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذي معها**»[1].

أي أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأي مصرف

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والبخاري في تاريخه الكبير (٥/ ٦٩)، وغيرهما.

يكفيك، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ﷺ وقال: يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتي وأريد أن أطلقها، قال له: أَوَلَمْ تُبن البيوت إلى على الحب، فأين القيم؟ لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه، ويدخل كل يوم ليقبلها، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولاً وبعد ذلك تنبت في الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل.

لذلك يقول الحق: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، أنت كرهتها في زاوية وقد تكون الزاوية التي كرهتها فيها هى التي ستجعلها تحسن في عدة زوايا؛ لكي تعوض بإحسانها في الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئًا، لا. فالمرأة مصرف طبيعي إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفًا، أما أن ترى في المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط. وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسي، وخذ زوايا متعددة.

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه، هذه أعطاها جمالاً، وهذه أعطاها عقلاً، وهذه أعطاها حكمة، وهذه أعطاها أمانة، وهذه أعطاها وفاء، وهذه أعطاها فلاحًا، هناك أسباب كثيرة جدًّا، فإن كنت تريد أن تكون منصفًا حكيمًا فخُذ كل الزوايا، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة، هنا نقول لك: ليست هذه هى الزاوية التي تصلح لتقدير المرأة فقط. ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

وانظر إلى الدقة في العبارة ﴿فعسى أن تكرهوا﴾ فأنت تكره؛ وقد تكون

(١) سورة النساء: ١٩.

(٢) سورة النساء: ١٩.

محقًّا في الكراهية أو غير محق، إنما إن كرهت شيئًا يقول لك الله عنه: ﴿ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾ فاطمئن إنك إن كرهت في المرأة شيئًا لا يتعلق بدينها، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك في بقية الزوايا خيرًا كثيرًا. وما دام ربنا هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيرًا في نواحٍ متعددة، إن أي زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرًا كثيرًا.

إن الحق يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعمم، وكان بإمكانه أن يقول: فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرًا، لا. فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرهه، وتأتي الأحداث لتبين صدق الله في ذلك، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها. وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائمًا غير دقيق، فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ﴿فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾ فقدر دائمًا في المقارنة أن الكره منك وجَعْل الخير في المرأة من الله، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله.

* * *

* قصة أبي مريم الحنفي مع الفاروق *

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ (١).

أي: لا يحملنكم بُغض قوم على ألاَّ تعدلوا، فتعتدوا عليهم، فمَنْ له حَقٌّ يجب أنْ يأخذه، وإلا سيكون البُغْضُ لصالح عدوكم، لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخلَ الهوى والبُغْض في إقامة الميزان العادل، فتحكيم البُغْض والعداء والهَوى يكون لصالح الخصوم.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢).

والعدالة حين تُطلب مع الخَصْم هى تقريعٌ لذلك الخَصْم؛ لأنه خالف الإيمان، ومن المؤكد أن الخَصْم يقول لنفسه: إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أنْ يقولَ الحق، ولابُدَّ أن عقيدته تجعل منه إنسانًا قويًّا، وأن دينه الذي أمره بذلك هو نِعْم الدين.

إذن: ساعة تحكُم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تُقرِّعه لأنه ليس مؤمنًا، لكن لو رأى خَصْمك أنك قد جُرتَ ولم تذهب إلى الحق، فأنت بذلك تُشجِّعه على أن يبقى كافرًا، لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى.

أما إذا رآك وأنت تقف موقفًا يُرضِي الله مع أنه خَصْم لك، فهو يستدلّ من ذلك على أن العقيدة التي آمنتَ بها هى الحقّ، وأنك تقيم الحقَّ حتى في أعدائك.

---

(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) سورة المائدة: ٨.

فإنْ كـرهت إنسانًا فلا يصحّ أنْ تظلمـه، والحق سبحانه لم يُحـرِّم البُغْض؛ لأنه مسألة عـاطفية، ولكن التحـريم ينحصر في الإقدام على عـمل يُخِلّ بميزان العدل مع مَنْ تكره، ويجب أن يؤمنَ الإنسانُ إيمانًا جازمًا بأن مَنْ ظلمه بمعصية، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله.

إذن: فالله سـبحانه وتعالى لم يَنهَ عن الحـب أو الكُرْه، ولكنه نهانا عن أن نظلم مَنْ نكره، أو نجامل مَنْ نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عـمر بن الخطاب ﷺ صورة حيَّة لهذا، فـقد قتل أبو مريم الحنفي زيدَ بن الخطاب شـقيق سيـدنا عمـر في معركـة اليمـامة، ثم دخل في الإسلام، فكان كلمـا مَرَّ أمام سيدنا عـمر قال له: اصرف وجهـك بعيدًا عني، فإني لا أحبك.

فقال له أبو مريم الحنفي: أو عدم حُبِّك لي يمنعني حَقًّا من حقوقي؟

قال: لا.

فقال الرجل: إنما يبكي على الحبِّ النساء.

إذن: أحبب مَنْ شئْتَ، وأبـغض مَنْ شئْت، ولكن إياك أنْ تظلم الناس لمن أحببتَ، أو تظلم مَنْ أبغضتَ.

ولذلك يقول تعالى:

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولوْ كَان ذَا قُرْبى ﴾[1].

إذا ما تعودتَ العدل في قَوْلك ألفته وأنست به، وأحـببته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى.

والقول منه الإقرار، فإن أقررتَ على شيء في نفسك فقله بالعدل والحق.

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٢.

والشـهـادة، قلهـا بـالحق. والحكم، قله بالحق. والوصـيـــة، قلهـا بالحق والفتوى، قُلها بالحق.

إذن: فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرُّفات؛ لأنك إذا قلتَ بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حـركة الحياة، فميزان حركـة الحياة لا يختلُّ إلا إنْ رجح باطل على حقٍّ.

لأنك إذا حكمتَ لواحد بشيء لا يسـتحقـه فقد أعطيتـه ما ليس له، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحيـاة يزهد في الحركة، لكن إذا ما حافظتَ على حركة كل مُـتحرِّك، وأخذ كل واحـد حظَّه من الحياة بقدر مـا يعمل اتزنتْ كل الأمور، ولم يَعُدْ هناك قوم يعيشون على جَهْد غيرهم وعَرَق سواهم.

إذن: فقوْلُ العدل هو مَنَاط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرشيدة.

والذي يُؤثر في العدل هو الهوى، وحين يُوجَد الهوى فهو يحاول أن يُميلك إلى ناحية ليس فيها الحقّ.

وأُولى النواحي أنْ يكون الأمـر مُـتعلِّـقًا بك أو بقـرابة لك، وقـد تريد إنْ حكمتَ - والعيـاذ بالله - باطلاً، أن تُسعِد ذا قُـرْباك، وأنت بذلك لم تُؤدِّ حقَّ القرابة؛ لأن حقَّ القرابة كان يقتضى أن تمـنع عنه كل شيء محرّم وتحمى عِرْضه، وتحمي دِينه قبل أن تحمي مصلحته في النفعية الزائلة.

ولذلك يأمرك الحق سبـحانه بأن تقولَ الكلمة بالعَـدْل، ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قُرْبى؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمتَ عليه لا له.

ويقول تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

(١) سورة النساء: ١٣٥.

وما دام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القِسْط، وهو الإيمان، فليجعل القسطَ سائدًا في كل تصرفُاته، وإياك أنْ تجعل القِسْط أمرًا أو حَدثًا يقع مرة وينتهى، بل افعل القِسْط في كُلِّ أمور حياتك.

ولا يكفى أن يكونَ المؤمن قائمًا بالقِسْط فقط، بل لابُدّ أن تكون الشهادةُ لله. لماذا؟

هَبْ أن رجلاً كافرًا بالله - والعياذ بالله - ويقيم العدل بين الناس، لكنه لا يدخل بذلك العَدْل في حيثية الإيمان، فالذي يدخل في حيثية الإيمان يكون قائمًا بالقِسْط وفي باله الله.

وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا لِهوىً ولا لغرضٍ، وإنما ليستقيم كَوْنُ الله كما أراد الله، وإلا لو حكَم أحدٌ بهوىً لَفسَدت الأرض.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[1].

والذي يُفسِد ويُشوِّش على العدل هو الهوى.

والمثل العربي يقول: «آفة الرأى هو الهوى».

وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى، حتى لا تَفْسد قدرتكم على العدل، وتجنحوا بعيدًا عنه.

* * *

(١) سورة المؤمنون: ٧١.

* قصة عمر وأم سلمة يوم الحديبية *

يقول تعالى في تحريم القتال في البيت الحرام: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فلعلَّهم حين تأتي شهور التحريم، أو يأتي مكانه يستريحون من الحرب، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب، فسُعَار الحرب يجرُّ حربًا، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية.

والمتأمل في هذه الأماكن التي حرَّمها الله يجدها على مراتب، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة، ثم المسجد الحرام حولها، ثم البلد الحرام وهي مكة، ثم المشعر الحرام[2] الذي يأخذ جزءًا من الزمن فقط في أيام الحج.

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذي نراه، الكعبة هي المكان، أما هذا البناء فهو المكين، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت، هذا مكانه إنْ نزلْتَ في أعماق الأرض أو صعدْتَ في طبقات السماء.

إذن: فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء، ألاَ ترى الناس يُصلُّون في الأدوار العليا، وهم أعلى من هذا البناء بكثير؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة، لا يواجهون الكعبة ذاتها، لماذا؟ لأن الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله.

---

(١) سورة البقرة: ١٩١.

(٢) المشعرُ: موضع مناسك الحج، وأما المشعر الحرام: مزدلفة، وهو موضعٌ يقف فيه الحاج مصليًا، وذاكرًا، وملتقطًا للحصى الذي يرميه في أيام التشريق.

ثم يلي البيت المسجد، وهوقطعة أرض حُكرت[١] على المسجدية، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذي نتحدث فيه الآن يسمى «مسجد» بالمكان، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو في هذه الحالة مسجد، قالوا: ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد.

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه، فاغتاظ المسلمون لذلك، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْمًا عنهم.

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه - عز وجل -، فنزل على شروطهم، وعقد معهم صُلْحًا هو «صلح الحديبية» الذي أثار حفيظة الصحابة، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، فقال لرسول الله: يا رسول الله، ألسنا على الحق؟ قال ﷺ: «بلى» قال: أليسوا هم على باطل؟ قال: «بلى» قال: فلِمَ نُعْطِي الدنيّة في ديننا[٢].

وكان من بنود هذا الصلح: إذا أسلم كافر ودخل في صفوف المسلمين يرده محمد ﷺ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[٣].

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة - رضوان الله عليها - موقف عظيم في هذه الشدة، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب، وهذا مما نفخر به للمرأة في الإسلام، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة.

---

(١) حكرت: أي حُبست، والحكر: العقار المحبوس، واحتكر السلعة: حكرها: جمعها لينفرد بالتصرف فيها.

(٢) حديثٌ صحيحٌ أخرجه البخاري (٤/ ١٢٥) (٦/ ١٧٠)، ومسلم (الجهاد/ ٦٤)، وأحمد (٣/ ٤٨٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٣٨)، والبيهقي (٩/ ٢٢٢) في سننه الكبرى.

(٣) نص الشرط: من أتاهم منا فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم، جعل الله له فرجًا ومخرجًا.

فلما عـاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضبًا فقال لأم سلـمة: **«هلك المسلمون يا أم سلمة، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا»**(١) يعني: أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام.

فقـالت السيدة أم المؤمنين: يا رسـول الله، إنهم مكروبون، فقـد مُنِعُوا عن بيت الله وهم على مَـرْأى منه، لكن اذهب يا رسول الله إلى مـا أمرك به ربك، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عـزيمة - يعني لا رجعةَ فيه - وفعلاً أخذ رسول الله ﷺ بهذه النصيـحة، فذهب فحلق، وذبح هديه وفـعل الناس مثله، وانتهت هذه المسألة.

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله ﷺ لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة:

أولاً: في هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحـمد ومكانته ومنزلته، وأنه أصبح مساويًا لهم، وهذا مكسب في حَدٍّ ذاته.

ثانيًا: اتفق الطرفـان على وقف القتـال بينهم لعـدة سنوات، وهذه الفتـرة أعطتْ المسلمين فرصة كي يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله.

ثالثًا: كان في إمـكان رسول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْـمًا عن أهلهـا، وكان في مقدوره أن يـقتلهم جميعًا، لكن مـاذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسـتـرون إيمانهم ولا يعـرفـهم أحـد؟ إنهم وسط هؤلاء الكفـار، وسينالـهم ما ينال الكفـار، ولو تميَّز المؤمنون منْ الكفـار أو خرجـوا في جانب لأمكن تفاديهم.

اقرأ قوله تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن**

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٧/ ٤٥٣)، والبيهقي (٤/ ١٥٠) في دلائل النبوة.

تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا [١]لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٢].

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام: ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾[٣]. أي: جميعًا ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[٤]. العاكف فيه يعني: المقيم، والباد: القادم إليه من خارج مكة، ومعنى ﴿سواء﴾ يعني: هذان النوعان متساويان تمامًا.

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم في بيت الله الحرام خاصة، وفي بيوت الله عامة: أريحوا أنفسكم، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق، لا لمن وضع سجادته، وشغل بها المكان.

وقد دَعَتْ هذه الآية: ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[٥]. البعض لأنْ يقول: لا يجوز تأجير البيوت في مكة، فمَنْ أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب.

وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُرًّا يبنى فيه من أراد، أمَّا بعد أن بنى بيتًا، وسكنه أصبح مكينًا فيه، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته.

وقد دار حول هذه المسألة[٦] نقاش بين الحنظلى[٧] في مكة والإمام الشافعي[٨]، حيث يرى الحنظلى أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة، لأنها

(١) لو تزيلوا: لو تفرقوا.
(٢) سورة الفتح: ٢٥.
(٣) سورة الحج: ٢٥.
(٤) سورة الحج: ٢٥.
(٥) سورة الحج: ٢٥.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٤).
(٧) هو إسحاق بن راهويه الحنظلي.
(٨) هو محمد بن إدريس الشافعي.

حسب هذه الآية للجميع، فردَّ عليه الشافعي ﷺ: لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم**﴾[١].

فنسب الديار إليهم. ولَمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة: «**وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع؟**»[٢] وكونُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا، **فهذا** دليل على ملكيتهم لها. لذلك رجع الحنظلي إلى رأي الشافعي.

هذا مع أن الآية تعني البيت فقط، لا مكة كلها، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٣].

الإلحاد قد يكون في الحق الأعلى، وهو الإلحاد في الله - عز وجل -، أما هنا فيُراد بالإلحاد: الميلُ عن طريق الحقِّ، وقوله: ﴿**بظلمٍ**﴾ الظلم في شيء لا يسمو إلى درجة الكفر، والإلحاد بظلم إنْ حدث في بيت الله فهو أمر عظيم؛ لأنك في بيت ربكَ «الكعبة».

وكان يجب عليك أن تستحي من مجرد حديث النفس بمعصية، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنبًا؛ لأنك في مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة في مضاعفة الحسنات، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت في رحاب بيته، فتنبَّه لهذه المسألة.

* * *

---

(١) سورة الحج: ٤٠.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٥/ ١٨١، ١٨٧)، ومسلم (١٣٥١)، وأبو داود (٢٩١٠)، وأحمد (٥/ ٢٠٢)، وابن ماجه (٢٧٣٠)، (٢٩٤٢)، وابن خزيمة (٢٩٨٥)، والدارقطني (٣/ ٦٣) في سننه، والبيهقي (٦/ ٢١٨)، (٩/ ١٢٢) في سننه الكبرى.

(٣) سورة الحج: ٢٥.

* قصة عثمان بن عفان وجيش العسرة *

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن لون آخر من المقابل للبخيل، وهو المنفق لغاية غير حميدة لماذا؟ لأنه ينفق رئاء الناس، لذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر من يثمن عطاءك. إنك عندما تعطي شيئًا لإنسان فإنه يثمنه بقدرته سواء بكلمة ثناء أو غير ذلك لكن الله يثمن الأمر بشكل مختلف، ولذلك لما جهز سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه جيش العُسرة قال رسول الله ﷺ: «**ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**»[1] لماذا لأنه باع بضاعته إلى صاحب كل الفضل، فالذي يعطى رئاء الناس نقول له: لقد اخترت الشيء التافه لأنك ما ثمَّنت بضاعتك بل جعلتها تافهة الثمن، فرئاء الناس لن يعطيك ثواب الله، فماذا يقدر الناس على عطائك إنهم قد يحسدونك على النعمة، وقد يتسلط عليك شرارهم لينهبوها منك فلماذا ترائيهم؟

الحق سبحانه قد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]. لقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم التي هو سبحانه خالقها، وأموالهم التي هى موهوبة لهم منه سبحانه، وأعطى على ذلك الثمن الكبير نعيمًا خالدًا لا يفوتهم ويذهب لغيرهم، ولا يفوتونه بموت أو خلافة، لقد أعطى الجنة، والجنة شيء غال ونفيس[3]، لا يعدله شيء. الذي ليس فيه أغيار لقد أعطاهم الجنة التي لا تفوتهم ولا يفوتونها.

إذن .. من يُرائي الناس هو من أهل الخسران ولا يعرف أصول التجارة،

---

(١) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٥/٦٣)، والحاكم (٣/١٠٢)، وابن أبي عاصم (٢/٥٨٧، ٥٩٢) في السنة، والبيهقي (٥/٢١٥)، في دلائل النبوة.

(٢) سورة التوبة: ١١١.

(٣) نفيس: غالي وثمين.

ولم يعرف مع من يتاجر، لذلك شبهه الله في الآية الأخرى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صدقاتكُم بالمَنِّ والأذى كالَّذي يُنفقُ مالهُ رئاء النَّاس ولا يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر فمثلُهُ كمثلِ صفوانٍ عليه تُرابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلداً﴾[1]. والصفوان هو المروة وهى زلطة كبيرة وعليها قليل من التراب، والمروة ناعمة فإذا ما نزل عليها الماء أزال كل التراب ولم يبق عليها شيء.

إذن.. لا ينفق أحد رئاء الناس إلا من كان ضعيف الإيمان غير مُلِمٍّ بأصول البيع والشراء لأن الإنسان إن أراد أن يبيع سلعة وهناك تاجر يشترى منه بسعر غالٍ ومضمون فما الذي يجعله يلقي بها تحت أقدام آخرين لا يقدرون على تثمينها، وحتى لو قدروا فسيكون الثمن بخس بالقياس إلى ما وعد الله عباده.

ولذلك قلنا: فليحذر كل واحد حين يعطى، أن يتباهى أمام الآخرين أنه أعطى، أو يحب أن يعلم الآخرين أنه أعطى فالإنسان لا يجب أن يقوم بالدعاية أنه أعطى، لذلك قال النبي ﷺ: «**رجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[2] لماذا، لأن الرسول ﷺ يقول: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[3] لذلك فليستر الإنسان إنفاقه في سبيل الله عن أعين الناس حتى يفوز بالخير كله عند الله، ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق على مجال الإعطاء فقال سبحانه وتعالى: ﴿إن تُبدوا الصَّدقاتِ فنعمَّا هي وإن تُخفوها وتُؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكُم ويُكفرُ عنكُم من سيِّئاتكُم واللَّهُ بما تعملُون خبيرٌ﴾[4].

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).

(٤) سورة البقرة: ٢٧١.

* قصة عثمان بن عفان والبكاء عند القبر *

من لُطْف الله أن قال عن النفس: إنها أمَّارة بالسوء؛ وفي هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس؛ فهي ليست آمرةً بالسوء، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر.

لا، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس، فهي دائمًا أمَّارة بالسوء، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ، وقد تستقبلِ الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك، لأنها في ظاهرها ممتعة، وتلبى نداء غرائز الإنسان.

ولذلك يقول المصطفى ﷺ:

«حُفَّتْ الجنة بالمكاره، وحُفَّتْ النار بالشهوات»[1].

أي: أن المعاصي قد تُغريك، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه، ويُقدِّر العواقب البعيدة، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي تُوصِّله إليها تلك اللذة؛ لأن شيئًا قد تستلذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمنًا طويلاً.

ولذلك قلنا: إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة، ولو استحضر الثواب على الطاعة، والعذاب على المعصية؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه.

ولذلك يقول النبي ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[2].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه مسلم (٢٨٢٢)، وأحمد (٣/ ١٥٣، ٢٥٤)، والترمذي (٢٥٥٩).

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

إذن: فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه؛ ولا يضع في باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته، أو قبل أن يُكفِّر عنها.

ويخطىء الإنسان في حساب عمره؛ لأن أحدًا لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المولَى - عز وجل - له على المعاصي.

وكل مِنَّا مُطَالب بأن يضع في حُسْبانه حديث رسول الله ﷺ:

«الموت القيامة، فمَنْ مات فقد قامت قيامته»[1].

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان ﷺ وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته، فسُئِل عن ذلك؛ وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفتَ على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن القبر أول منازل الآخرة، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم يَنْجُ منه، فما بعده أشد»[2].

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت.

وتستمر الآية: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

ونعلم أن هناك ما يشفي من الداء، وهناك ما يحصِّن الإنسان، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء، والحق سبحانه غفور، بمعنى أنه يغفر الذنوب، ويمحوها، والحق سبحانه رحيم، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة، فلا يصيبه الداء، فلا يقع في زلة أخرى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأحمد (٦٣/١).

(٣) سورة يوسف: ٥٣.

* قصة أشد الجند مع علي بن أبي طالب *

أسدى إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيرًا، حين هداه الله إلى قوله: ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

واستجاب الله تعالى لدعائه، و أنجاه من الغَمِّ، وهو أعنف جنود الله؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دَفْعًا.

ولذلك يقال: إن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة، فإن كان العدو ضخمًا، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد، فيجري منه الإنسان أو يختبيء، لكن إن كان العدو ثعبانًا رفيعًا - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان، وقد لا يستطيع الفرار منه، وإنْ كان ميكروبًا أو فيروسًا لا يُرى بالعين المجرَّدة؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً في مهاجمة الإنسان.

إذن: كل مُتْعب في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقَّة ولُطْف؛ فَإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلانًا قد أصيب بمرض ما، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده، لكنه فوجىء بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون[2] الفيروس في جسده لأسبوعين، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ.

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء، وكلنا نعرف قصة الإمام علي - كرَّم الله

(١) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٢) كمون: اختفاء أو سكون.

وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا[١]، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره، فلما اجتمعوا قالوا لعليٌّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى، فقد جلسنا معًا لنعرف أقوى ما خلق الله، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها.

لم يتروَّ علي بن أبي طالب، ولم يَقُلْ كلامًا مَسْرودًا[٢] بحيث إن وقف، لا يطالبه أحد بزيادة، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها، حتى تطابق العدد على المعدود، وهذا دليل على أنه مُستحضِرٌ للقضية استحضار الواثق. وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسي، والحديد يقطع الجبال، والنار تذيب الحديد، والماء يطفيء النار، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض يحمل الماء، والريح تقطع السحاب، وابن آدم يغلب الريح، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته، والسُّكْر يغلب ابن آدم، والنوم يغلب السُّكْر، والهمُّ يغلب النوم، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى، وكان سيدنا يونس - عليه السلام - سببًا في أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذي ألهمه ليونس - عليه السلام - في قوله تعالى:

﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

---

(١) الفتيا: الفتوى.

(٢) مسرودًا: متتابعًا.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية، وقد أخذها جعفر الصادق ﷺ وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها، في كل جوانبها المفزعة، لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم.

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بيَّتوا له.

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّمًا ومرفَّهًا في كل أمور الحياة، يجعله عُرْضة للهموم.

* * *

* قصة المهر وماء السماء مع علي بن أبي طالب *

لقد عَرَّف الحق سبحانه الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولي الأمر في أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع، ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما، والمراد هنا هو طيب النفس، وإياك أن تأخذ شيئًا من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب الحياء، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾[1].

والهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك، لكنك قد تأكل شيئًا هنيئًا في اللذة وفي المضغ وفي الأكل ولكنه يورث متاعب صحية. إنه هنيء، لكنه غير مريء، والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة، وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب بعده العلاج.

إذن: فكل أكل يكون هنيئًا ليس من الضروري أن يكون مريئًا، وعلينا أن نلاحظ في الأكل أن يكون هنيئًا مريئًا.

والإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وكرم وجهه جاء له رجل يشتكي وجعًا، والإمام عليٌّ كما نعرف مدينة العلم والفتيا، وهبه الله تعالى مقدرة على إبداء الرأي والفتوى.

لم يكن الإمام عليٌّ طبيبًا.. لكن الرجل كان يطلب علاجًا من فهم الإمام عليٍّ وإشراقاته.

قال الإمام عليٌّ للرجل: خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً، وأذب العسل في ماء مطر نازل لساعته - أي: قريب عهد بالله - واشربه فإني سمعت الله يقول في الماء ينزل من السماء:

---

(١) سورة النساء: ٤.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾[1].

وسمعته سبحانه وتعالى يقول في العسل: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2].

وسمعته يقول في مهر الزوجة: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[3].

فإذا اجتمع في دواء البركة والشفاء الهنيء والمريء عافاك الله إن شاء الله.

لقد أخذ الإمام عليٌّ - رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه - عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعًا، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام عليٌّ علاجًا من آيات القرآن.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[4].

وقلنا: ساعة ينادى الحق سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فمعناها: يا من آمنتم بي بمحض اختياركم، وآمنتم بي إلهًا له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية، ما دمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التي يطلبها منكم. إذن: فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق سبحانه يقول:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

---

(١) سورة ق: ٩.

(٢) سورة النحل: ٦٩.

(٣) سورة النساء: ٤.

(٤) سورة النساء: ١٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٦.

* قصة علي بن أبي طالب والتعاقد *

هكذا كانت الحديبية هى أعظم نصْر في الإسلام؛ فقد سكنتْ قريش؛ وتفرَّغ رسول الله ﷺ ومَنْ معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام.

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لِمَا بين محمد وربِّه. والعباد دائمًا يَعْجلون، والله لا يَعْجل بعَجلةِ العباد حتَّى تبلغَ الأمورُ ما أراد.

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش في الحُديْبية، وبدأ عليٌّ بن أبي طالب في كتابة صيغة المعاهدة، كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فاعترض سهيل بن عمرو وقال: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو».

وأصَرَّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تُكتب صفة محمد كرسول، لكن النبي ﷺ قال: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني. اكتب محمد بن عبد الله**»[1].

ولكن عليًّا - كرَّم الله وجهه - يُصِرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله؛ فيُنطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعليّ: «**ستُسَام**[2] **مثلها فتقبل**».

ولما تولَّى عليٌّ - كرَّم الله وجهه - بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وقامت المعركة بين علي ومعاوية؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة؛ وكتب الكاتب «هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٠)، في مصنفه، والبخاري (٢٧٣١)، وأبو داود (٢٧٤٩)، وأحمد (٤/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) ستسام: تُكلف أو يُطلب منك بغير اختيارٍ لك.

فقـال عمرو بن العاص مـندوب معاوية: «اكتب اسـمه واسم أبيه، هو أمـيركم وليس أميرنا».

وهنا تذكَّر علي - كرم الله وجهه - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ: «**ستُسَام مثلها فتقبَّل**» وقَبِلها فقال: «**امْحُ أمير المؤمنين، واكتب هـذا ما قاضى عليه علي ابن أبي طالب**»[1] وتحققت مقولة الرسول ﷺ.

ومن الوقـائع التي تُثْبِتُ الإيمانَ؛ نجـد قصـة عمـار بن ياسر، وكـان ضمن صُفوف علي - كـرَّم الله وجهه وأرضاه - في المواجهة مع مـعاوية؛ وقتله جُنود معاوية؛ فصرخ المسلمون وقالوا: «وَيْح[2] عمار، تقتله الفئة الباغية»[3]. وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال.

وبذلك فَهِم المـسلمون أن الفئـة الباغـية هى فئـة معاوية، وانتـقل كثـير من المسلمين الذين كـانوا في صَفِّ مـعـاوية إلى صَفِّ علي بن أبي طالب؛ فـذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال: تفشَّت في الجيش فَاشية، إن استمرتْ لن يبق معنا أحد، فقـد قتلنا عمار بن ياسر؛ وذكـر صحابة رسول الله ﷺ قوله: «**وَيْحَ عمار، تقتله الفِئَة البَاغِية**»، وقد فَهِم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هى فئتنا.

وكان معـاوية من الدهاء بمنزلة؛ فقال: اسْعَ في الجـيش وقُلْ: «إنما قتله مَنْ أخرجه» ويعني عليًّا. ولما وصل هذا القول لعليٍّ قال: ومَنْ قتل حـمزة بن عبد المطلب، وقد أخرجه للقتال محمد ﷺ؟!

وهنا في قول الحق سبحانه:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٨٧) لابن كثير.

(٢) ويح: كلمة توجع لمن نازلت به شدة أو مصيبة.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١/ ١٢٢)، (٤/ ٢٥)، وأحمد (٣/ ٩١)، والبيهقي (٢/ ٥٤٦) في دلائل النبوة، والخطيب (١١/ ٤٢٩) في تاريخ بغداد، وأبو نعيم (٤/ ٣٦١) في الحلية.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾[١].

إنما يعني أن الحق قد أرسلك يا محمد بمعجزة تُناسب ما نبغَ فيه قومك، وطَلَبُ غير ذلك هو جَهْل بواقع الرسالات وتعنُّتٌ يُقصَد منه مزيدٌ من ابتعادهم عن الإيمان.

قول الحق سبحانه:

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾[٢].

أي: أنهم حين يُعلنون الكفر فأنت تصادمهم بإعلان الإيمان، وتقول:

﴿ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾[٣].

وكلمة «ربي» تنسجم مع كلمة «الرحمن» الذي يُنعِم بالنعم كلها؛ وهو المُتولِّي تربيتي؛ ولو لم يفعل سِوَى خَلْقي وتربيتي ومَدّي بالحياة ومُقوِّماتها؛ لَكانَ يكفى ذلك لأعبده وحده ولا أشرك به أحداً.

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله؛ لالتفتَ مرة لذلك الإله؛ ومرة أخرى للإله الآخر؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد.

ويأتي القرآن ليُطمئن القلوب أيضًا وليذكر:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين:

الصورة الأولى: لرجل يملكه أكثر من سيد، يعارضون بعضهم البعض.

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.

(٢) سورة الرعد: ٣٠.

(٣) سورة الرعد: ٣٠.

(٤) سورة الزمر: ٢٩.

والصورة الثانية: لرجل آخر، يملكه سيد واحد.

ولابُدَّ للعقل أن يعلمَ أن السيد الواحد أفضل من الأسياد المتعددين؛ لأن تعدُّد الأسياد فساد وإفساد، يقول الحق سبحانه:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

والعاقل هو مَنْ لا يُسلِّم نفسه إلا لسيّد واحد يثق أنه أمين عليه.

* * *

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

* قصة علي بن أبي طالب وأهل الدنيا والآخرة *

إن الرزق في نظر معظم الناس هو المال.

وقد قال ﷺ : «**يقول ابن آدم: مالى مالى.. وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، ولبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيت**»[1].

هذا هو رِزْق المال، وهو جزء من الرزق، ولكن هناك رزق الصحة، ورِزقْ الولد، ورِزْق في الطعام، ورزق في البركة.

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رِزْق، وليس المال وحده، وإنْ كان الإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها فيطمئن إلى حاضره ومستقبله.

لكن لنفرض أن المال دامَ لك طُولَ العمر، وأنت تعرف أن العمر مهما طالَ قصير، ولابُدَّ أنْ يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت.

في هذه اللحظة يكون ما كنزتَ من المال قد صار إلى ورثتك، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقتَ في سبيل الله. أي: أن ما أنفقتَ هو ما يبقى لك في عالم الخلود، لا يفارقك ولا تفارقه.

إذنْ: فالذي يُحِبّ ماله عليه أنْ يصحبَ معه هذا المال لمدة أطول، وأنْ يتعدّى به مجرد الوجود في الدنيا، وأنْ يصل به إلى دار الخلود، ومَنْ يعشق المال - إذا أراد أنْ يُبقيه - فلينفقه في الصدقة.

ولنَا الأُسْوة الحسنة في رسول الله ﷺ حين جاءتْه شاة كهدية، فقال للسيدة عائشة ﵂: «**تصدَّقى بلحمها**».

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه مسلم (٢٢٧٣)، وأحمد (٤/ ٢٤، ٢٦)، والترمذي (٢٣٤٢)، (٣٣٥٤)، والحاكم (٢/ ٥٣٤)، (٤/ ٣٢٢)، والطحاوي (٢/ ٢٦٠)، في مشكل الآثار، وأبو نعيم (٢/ ٢١١)، (٦/ ٢٨) في الحلية.

وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف، فتصدقتْ بلحم الشاة كلها، وأبقتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله ﷺ . وعندما عاد رسول الله ﷺ سألها: «**ماذا فعلت بلحم الشاة؟**» قالت: تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها. فقال: «**بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها**»[1].

وذلك لأن مَا تصدقتْ به السيدة عائشة ﵂ هو الباقي، وما أبقته لهما هو الذي سيفنى، وهكذا سَمَّى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مُسمَّياتها.

فالذي يحب صُحْبة ماله في الدنيا والآخرة عليه أن يقدِّم بعضًا منه صدقة للفقير والمحتاج، ليبارك الله له في الدنيا، ويجزيه خَيْرَ الثواب في الآخرة.

وقد سأل رجلٌ الإمام عليًّا ﵁ : أريد أنْ أعرفَ: هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟

قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه:

الجواب عندك أنت، لا عندي، انظر إذا دخل عليك مَنْ يعطيك، ودخل عليك مَنْ يطلب منك، أيهما تُرحِّب به وتقابله ببشاشة، أيهما تحب؟

إنْ كنتَ تحبُّ مَنْ يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة، وإنْ كنتَ تحب مَنْ يعطيك فأنت من أهل الدنيا، لأن مَنْ يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة، وأما مَنْ يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئًا.

ونقول للذي يحب المال: اجعل حُبَّك للمال يُبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا، فالدنيا ليست هى المقياس، ودنياك قَدْر عمرك فيها، أما الآخرة فأنت خالدٌ فيها، فتصدَّق ببعض مالك يكُنْ لك خيرًا في الآخرة.

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور، وإلى المدخور، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥٠)، والترمذي (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٣) عن عائشة -رضي الله عنها- .

﴿المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1].

ويقول سبحانه في آية أخرى:

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَداً﴾[2].

إذن: لابُدَّ أن تنظر إلى الباقيات في الأشياء؛ لأنها هى التي يُعوَّل عليها، ويلفتنا الحق سبحانه إلى هذا في أكثر من موضع من القرآن الكريم، فيقول تعالى:

﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[3].

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ...﴾[4].

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب، ولكن انظر إلى الباقي.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[5].

وسبحانه وتعالى هو واهب المال، وهو يحترم هِبَته لصاحب المال.

وقد لاحظ العلماء أن المال حين يُضاف إلى صاحبه فهو تطمين له، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج، ويبقى له شيء يتموله، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير، وإنْ لم يقصد.

والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال، وهو يأتي بالمال، بالأسباب التي

---

(١) سورة الكهف: ٤٦.

(٢) سورة مريم: ٧٦.

(٣) سورة الأعلى: ١٧.

(٤) سورة القصص: ٦٠.

(٥) سورة التوبة: ١٠٣.

جعلها للبشر في حركة الحياة، وأمنَّهم على عَرَقهم. وأمَّنهم على ما يملكون، حتى لا يزهدَ أحدٌ في الحركة، فلو أخذ كل واحد من حركته على قَدْر نفسه، ولم يتملك المال، لَضنَّ الناس بالحركة.

وإذا ضَنَّ الناس بالحركة فلن يستفيد غير القادرين على الحركة، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ ما يزيد على حاجات الناس مِلْكًا لهم؛ لأن النفس تحب أن تتملك.

والتملُّك أمر غريزيّ في النفس، بدليل أن الله سبحانه هو الذي طلب أن يؤخذ من الأموال، وأوضح أنه يضاعفها له، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك.

وقول الحق سبحانه:

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾[1].

السطحيون في الفهم يقولون: إنها تُطهِّر مَنْ تأخذ منه المال، وتُزكِّى المال الذي نأخذ منه، لكن مَنْ يملك عُمْقًا في الفهم يقول: ما دامت هناك في هذه الآية عناصر، فضروريّ أن يعود التطهير والتزكية عليها، وأنها تُطهّر وتُزكِّي المأخوذ منه صاحب المال، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ، وأيضًا تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير، لأن التطهير معناه إزالة قذر، والتزكية نماء.

وهكذا تُطهر الصدقة وتُزكِّي عناصرَ الفعل كلها. والتطهير لمن يعطى، له معنى عام، والزكاة لها معنى معه، لأنك إنْ أخذتَ منه المال، فقد يكون قد غفل وأدخل في ماله شيئًا فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تُطهِّران هذا المال.

أما كيف تنمِّى صاحب المال؟

أنت إنْ أخذتَ منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تُطمئنه أنه إذا احتاج

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

فستعطيه، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده، ولا يخاف أنْ يضيعَ منه المال، واطمأن لحظة أنْ أخذتَ منه المال وهو قادر كي تُعطى المحتاج، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع، وبذلك تُنمِّى تواجده، وثِقَته، وطُهرته أيضًا من أن يكون في ماله شبهة، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه، فالصدقة تُطهِّر المال، لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تُطهِّره.

وقد يُخيَّل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص، عكس الربا الذي يزيد المال، فالرِّبا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفًا.

والسَّطحىّ يرى أن الزكاة أنقصتْ المال وأن الربا يزيده، ولكن هذا بمقاييس البشر، لا بمقاييس مَنْ يملك الأشياء، فالزكاة التي تعتبرونها نقصًا تُنمِّي، والربا الذي تعتبرونه يُنمّى إنما يُنقِص.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَمْحَقُ[1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي[2] الصَّدَقَاتِ ﴾[3].

وسبحانه يقول:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾[4].

وكيف تكون الصدقة تطهيرًا للآخذ، وهو لم يذنب ذنبًا يحتاج إلى تطهير، بل هو مُعطَىً له لأنه محتاج؟

---

(١) المحق: النقصان وذهاب البركة. ومحقه الله: أي ذهب خيره وبركته.

(٢) ربا الشيء يربو: زاد ونما. وأربيته: نميَّته.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٤) سورة الروم: ٣٩.

ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره، وهو عاجز عن الكَسْب فهو يتطهَّر من الحقد على ذي النعمة، لأنه وصله بعضٌ من المال الذي عند ذي النعمة، فلا يحقد عليه ولا يحسده، فهو إنْ رأى عنده خيراً دعا له بالزيادة، لأن بعضًا من الخير يعود عليه.

هذا عن التطهير، فماذا عن التزكية والنماء؟

إن الفقير ساعةَ يرى نفسه فقيراً، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيدًا، ويتسابق أهل الخير لنجدته، فنفسه تنمو بالاطمئنان، لأنه في مجتمع إيماني.

والزكاة تُنقِّي المجتمع من مفاسد كثيرة، فهى تمنع الحقد بين الناس، لأن الفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء، فلا يسخط الفقير على الغنيّ.

والغنيّ والفقير متساويان في الانتفاع؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير، ولكنه يُحِسّ بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يُحِسّ أن هذا أمان له، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يعطيه.

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس، المجتمع الذي مكَّن الله للمؤمنين فيه، مِصْداقًا لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [1].

إن المجتمع الذي يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر، ونحن نعلم أننا نعيش في دنيا أغيار، ولا يوجد مَنْ يدوم غِنَاه، أو مَنْ يدوم فَقْره، لأن دوامَ الحالِ من المحالَ.

---

(١) سورة الحج: ٤١.

إنْ عاش الغنىّ في مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إنْ أصبح فقيراً فسوف يجد مُقوِّمات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيُبادر ليُعين الفقراء كنوعٍ من رَدِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياةً آمنةً.

* * *

* قصة المقداد وسعد بن معاذ يوم بدر *

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر[١] هو والمؤمنون للاستيلاء على قافلة لقريش كانت مع أبي سفيان، وهو في قلة من العدد، فلما بلغ أبا سفيان خبر خروج النبي ﷺ؛ بعث إلى مكة ضمضم بن عمرو يستنفر قريشًا لأجل أموالهم، ونجا أبو سفيان بالعير ثم بعث إلى قريش إن الله نجى أموالكم فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم هناك ثلاثًا، وننحر الجزُر، ونطعم الطعام ونشرب الخمور، وتضرب علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

وهكذا وجد الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين أنفسهم مدفوعين إلى حرب لم يستعدوا لها مع كفار قريش فاستشار ﷺ أصحابه. فقال أبو بكر فأحسن. وقال عمر فأحسن. وقال المقداد: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[٢]، لجالدنا مَنْ دونه.

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا.

ثم قال: «**أشيروا عَلَيّ**» وإنما يريد الأنصار.

فقال سعد بن معاذ: امض لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فَخُضته[٣]، لَخُضناه معك، إنا لصُبُر عند الحرب، فسر بنا على بركة الله.

---

(١) وتسمى العظمى، وتسمى الثانية، وتسمى بدر القتال.

(٢) برك الغماد: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن، وقيل: هى أقاصي هجر، أو أقصى اليمن.

(٣) خضته: سرته أو قطعته.

فقال: «**سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

ثم سار حتى نزل قريبًا من بدر؛ فلما رأى ﷺ قريش استقبل القبلة ومدَّ يديه وقال: «**اللَّهُمَّ إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض**»[1].

فما زال يستغيث حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءَه فردَاه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك[2] ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾[3].

ذلك أنه حين أفلتت قافلة قريش ووجد المؤمنون أنفسهم يواجهون حربًا لم يستعدوا لها، كره بعضهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**لكارهون**﴾ ليست طعنًا في المؤمنين؛ لأنهم خرجوا ولا خيل معهم إلا ثلاثة، فكأن حيثية الكراهية ليست تأبيًا على أوامر الله. ولكن لأننا إذا أخذناها بالأسباب.. نرى أن المقاييس البشرية للحرب مختلة بين المؤمنين والكفار، فالكفار مستعدون استعدادًا جيدًا للحرب، معهم السلاح والفرسان، وهم يزيد عددهم على تسعمائة.. بينما المؤمنون يتجاوزون الثلاثمائة بقليل.

ولكن الله سبحان وتعالى يريد أن يُعلمَ المؤمنين أن النصر ليس بالعدد ولا بالعُدة، وإنما هو من عند الله سبحانه.

* * *

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وأحمد (١/ ٣٢).

(٢) مناشدتك: يقال: ناشد فلانًا الأمر، أي: طالبه به، ونشد فلان الضالة نشدًا، ونشدانًا: طلبها وسأل عنها.

(٣) سورة الأنفال: ٥.

* قصة الحسن والحسين مع خالهما *

إن الصحابة رضوان الله عليهم الذين عاشروا رسول الله ﷺ أخذت مادة رسول الله عيونهم فكانت أبصارهم إذا نظر واحد منهم إليه لا يمل من النظر إلى رسول الله ﷺ وبعد ذلك أخذوا أيضًا خلقه ﷺ ليكون أنموذجًا لهم في سلوكهم. وإن كان من غير الممكن أن يتحمل بشر غير محمد هذا الخلق المتجمع في محمد، لكن كل واحد منهم كان يأخذ على قدر طاقته من الخلق، والذي يدلنا على ذلك أنك لا تجد أتباع رسول من الرسل تعلقوا برسولهم هذا التعلق. وأجمع ما روى في ذلك ما أخرجه يعقوب بن سفيان الحافظ عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال الحسن: سألت خالي هند بن أبي هالة ابن السيدة خديجة - رضوان الله عليها - كانت قبل رسول الله ﷺ زوجة لأبي هالة، أبو هالة أنجب منها هند ـ اسم رجل هند هذا، كما قال الحسن بن علي ـ رضوان الله عليه - كان وصافًا، يعني أن عينه كالفوتوغرافيا تلتقط، ولسانه يعبر، فماذا يقول؟

قال الحسن: سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصافًا - عن حلية رسول الله ﷺ والمراد بحليته: الصفة التي كان عليها، وفي هذه الكلمة «عن حليته» وفي عدوله عن كلمة «صفته» إليها، ليدلنا على أن كل شيء في رسول الله ﷺ كان فيه ملاحة وكانت فيه حلاوة ـ ليس «صفته» لأن الصفة قد تكون للمقابل والمقابل - قال: سألته عن حلية رسول الله ﷺ وأنا أشتهي العلم في الوصف، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به.

صفات رسول الله ﷺ الخَلْقِيَّة:

قال هند: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة

البدر، أطول من المربوع (هو الرجل المعتدل) الذي ليس بطويل مفرط ولا بقصير، وأقصر من المشذب (المشذب): هو الفارع الطول، عظيم الهامة (الهامة): الرأس، (رجل الشعر) الشعر يوصف مرة بأنه جعد، ويوصف مرة بأنه سبط، السبط هو الذي نقول عنه في أعرافنا إنه شعر سايح. والمجعد (هو الأكرت) فرسول الله ﷺ كان شعره بين هذا وذاك.

(إن انفرقت عقيصته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذا هو وفره جمع). (أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب) يعني أزج دقيق في استواء (سوابغ من غير قرن) أي أنها ليست ملتحمة (بينهما عرق يظهره الغضب) إذا غضب ينفر منه(أقنى العرنين) أي أن عرنينه عال وفيه شيء من التقوس (له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم) من الهالة التي لعرنينه والهالة: لون من الضياء يعلو الشيء ليس منه ولكنه أثر له (كث اللحية) (أدعج) شدة سواد العين (سهل الخدين) يعني أن خده كان سهلاً لم يكن عاليًا منتفخًا أو متورمًا، ضليع (واسع) الفم أشنب، مفلج الأسنان (متفرق الأسنان) كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة (يعني أن رقبته كانت طويلة متناسقة) معتدل الخلق بادنًا متماسكًا. سواء البطن والصدر، مشبح الصدر بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، يعني أن عظامه قوية، (أشعر الذراعين والمنكبين، وأعلى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين) شثن: أي يميلان إلى الغلظ والقصر (سائل الأطراف أو قال سائن الأطراف، وسائر الأطراف سبط العصب) يعني عظامه فارعة (خمصان الأخمصين) مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال تقلعًا، ويخطو تكفؤًا ويمشى هونًا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام.

منطق رسول الله ﷺ:

قلت: صف لي منطقه. قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، لم يكن يذم ذواقًا ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، وجل ضحكه التبسم. ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكتمتها عن الحسين بن علي زمانًا ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إلى هند فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئًا. قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه، أي أنه لا يستأذن على أحد، مأذون في الدخول لأن الله يكشف له إن كان من الممكن أن يدخل أو لا يدخل، ونحن نستأذن لأننا لا نعرف المستأذن عليه على أي حالة هو (فكان إذا أوى إلى منزله جَزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم قسم جزأه بينه وبين الناس) هذا ممكن في بيته.

أما خارج بيته فكله للناس. إنه وصف حين يدخل بيته أنه جَزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء (فيرد ذلك على العامة بالخاصة) يعني بواسطة الخاصة الذين يجالسونه لا يدخر عنهم شيئًا.

كل ما عنده يقوله لهم، وكان أقرب الناس إليه خيارهم، يلونه، على مقدرة أفضليتهم في الدين (فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه

وقسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم) ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته؛ فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، قال في حديث وكيع: يدخلون روادًا ولا يتفرقون عن ذواق. يعني يأخذون حصيلة من الخروج: يخرجون أدلة، أي فقهاء - قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله ﷺ (يخزن لسانه) إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا. لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره، والذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. فسألته عن مجلسه، فقال: (كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن) ومعنى يوطن الأماكن أن يجعل لكل إنسان مكانًا مخصوصًا بحيث لا يتعداه، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس. وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس، يأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، وصار لهم أو صاروا عنده في الحق متقاربين متفاضلين منه بالتقوى. وفي رواية أخرى: صاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء،

وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته. وهذه الكلمة من غير الروايتين (يتعاطفون بالتقوى متواضعين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير، ويعينون ذا الحاجة، ويرحمون الغريب)، فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه، فقال: كان رسول الله ﷺ (دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا فحاش ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى) إذا حدث شيء لم يعجبه فكأنه لم يسمعه (ولا يوئس منه) قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وعما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه. يعني أعطوها له (ولا يطلب الثناء إلا من مكافيء، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه ويقطع بانتهاء أو قيام. قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم في الصبر) فكان لا يغضبه شيء يستفزه. وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاد الرأى بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة ﷺ.

ذلك هو البينة، فكان رسول الله ﷺ البينة، بمعنى أن المعجزة جاءت بينة على صدقه؛ كان بينة، مبينًا لما يبلغ عن نفسه، كان بينة لكونه نموذجًا للمنهج الإسلامي، وكان خلقه القرآن، ذلك هو البينة.

خلق الرسول ﷺ :

البينة ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[1].

أي: ما تفرقوا عن شركهم الذين كانوا ملتحمين عليه، أو ما تفرقوا عن تحريفهم للكتب وانحرافهم عن منهج الله إذ كانوا من أهل الكتاب، إلا بعد أن جاء البينة رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]. أي دين الملة، ماذا يريدون من ملة غير هذا؟ تلك هى الجواهر الأساسية في الملة، يعبدون الله، يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، مخلصين لله، حنفاء: هذه هى مجموعات البينة. ماذا يريدون من رسول غير هذا؟ وقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾[3]. إذا سمعنا كلمة «أمر» يجب أن نتنبه إلى أن هناك آمرًا، ومأمورًا، ومأمورًا به، والعلة في الأمر، يعني مأمور بكذا لكذا، ليحقق غاية كذا، الآمر هنا هوالحق - سبحانه وتعالى - ولكن التعبير - كان المفروض أن يقول: وما أمر الله، إنما قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ فكأن الفاعل محذوف ومبني للمجهول، لماذا؟ لأن الأوامر التي يأتي بها الدين إما أن تكون صادرة من الله نفسه - نصًّا وتفصيلاً - وإما أن تكون صادرة من الله نصًّا إجماليًّا ويبينها الرسول، وإما أن يكون أمرًا لم ينص عليه الله، وإنما هو من الرسول.

إذن فمناهج الأمر ثلاثة: أمر من الله - سبحانه وتعالى - جاء تفصيلاً، وليس لأحد فيه زيادة، وأمر من الله جاء إجمالاً وللرسول فيه تفصيل، وإما أن يكون أمرًا لم يتعرض له الله لا إجمالاً ولا تفصيلاً وجاء من الرسول، فلو أن الله

---

(١) سورة البينة: ٢-٤.

(٢) سورة البينة: ٥.

(٣) سورة البينة: ٥.

قال: وما أمرتهم إلا بكذا وجاء الرسول بالأمر التالي أو بين كان يرد عليه، قال: ﴿وما أمروا﴾ أي من الذي يملك الأمر؟ الذي يملك الأمر الحق، وملكه لرسول الله في تفصيله، وملكه لرسول الله في أن يأتي بالأشياء - لأنه لا ينطق عن الهوى - وليس المقصود هنا القرآن، ولذلك إذا استعرضت آيات القرآن تجد آية تقول: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[1]. فالتزام الطاعة للرسول، وآية تقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[2]. وآية تقول: ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] فالتزام الطاعة الذي أمرنا به يرد على صور، مرة يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] بدون أن يكرر الفعل «أطيعوا» فيكون الرسول «معطوفًا» على لفظ الجلالة، إنما الفعل لأمر واحد. «أطيعوا» ومرة يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[3]. يكرر الفعل، ومرة يقول ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ليستوعب كل نواحي الأمر، فالأمر الذي يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَالرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] يدل على أن لله في الأمر إجمالاً، وللرسول فيه تفصيلاً، فهذا يستوجب طاعة وهذا يستوجب طاعة، وإذا كان الأمر قد ورد عن الله وعن الرسول كما يقول: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**» لم يأت بشيء زيادة على ما جاء به الله، فقال: أطيعوا الله والرسول، لأنهما متواردان على شيء واحد. وإذا كان شيء لم يأت به الله إجمالاً ولا تفصيلاً، فهذا النمط دخل في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[4]. هنا نقول: «أطيعوا الرسول» إذن علة العدول عن «أمر الله» إلى «أمروا» لينتهي إلى أمر، فهناك آمر، ومأمور، ومأمور به، وغاية للأمر، العلة في الأمر في الآية ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾[5]. فما المأمور به؟ بينت

(١) سورة النساء: ٥٩.
(٢) سورة آل عمران: ٣٢.
(٣) سورة النساء: ٥٩.
(٤) سورة الحشر: ٧.
(٥) سورة البينة: ٥.

الآية علة الأمر: أمروا بمنهج ليعبدوا علـى مقضتاه الله. فكأن اللام هنا ما دخلت على المأمور به، ولكن على غـاية الأمر بالمأمور به، بعض علماء الـنحو قال: إن اللام التي تدخل على المضـارع وعلى مادة الأمـر هي بمعنى «أن» والمعنى ورد في القرآن ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾[١]. وورد فيه ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾[٢]. فما دام المعنى واحدًا فأن بمعنى اللام. هل اللام هنا بمعنى «أن»؟ بعـضهم سار على أن اللام هنا بمعنى «أن» ويكون المأمور به هو عبادة الله، وما أمـروا إلا أن يعبدوا الله، فالمأمور به عبادة الله.

صفات رسول الله ﷺ الخُلُقيَّة:

الرسول ﷺ أسوة، والأسـوة إنما تأتي فـيمـا يمكن أن يصنعه المتـأسى به، صفاته ﷺ الخلقية لا مجال لأحد أن يقـول أتأسى بها، لأنها هبة الله للإنسان، إذن فالصفات الخلقـية التي تكلم عنها الحديث إنما كانت مدخـلاً ليعطينا الصورة حتى تقع التصورات كيف خلق، ولو كانت صورة على الأشياء الأخرى حتى تقع التـصورات المعنويـة التي يمكن أن أحمل سـلوكي عليهـا على شيء مـوضح في الذهن ويستطيع الإنسان أن يجعل هذه الخلال قائمة، إذن فالصفة الخلقية لا دخل لنا بالتأسي فيها أبدًا، ولا يمكن أن تقول: واحد تأسى برسول الله أن يكون طويلاً أو قصيرًا.. إلى آخره، ولكن الأسوة الحقيقية هي ما يصدر عن هذه الذات، ولو أن صفاته الخلقية التي يمكن أن تكون للأسوة فيها مجال. ورسول الله ﷺ مهمته عن ربه البيان، كان أول شيء انتقل إليـه الحسن في سؤال هند بن أبي هالة قال: صف لي منطقـه، فأعطاه هند بن أبي هالـة صورة عن منطقـه فقـال: كان ﷺ متواصل الأحزان. يعني أنه كـان يحزن للمهمة التي كان يقـوم بها. يفسره الحق في قوله سبـحانه وتعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ** ﴾[٣]. حينما يجد

---

(١) سورة غافر: ٦٦.

(٢) سورة الأنعام: ٧١.

(٣) سورة الكهف: ٦.

انصرافًا عن الدعوة وهي دعوة متضحة في ذهنه وفطرته، وبتكوينه يعجب أن هؤلاء لا يؤمنون بها، فهو يحزن لهم، لا يحزن لأمر يتعلق به هو؛ ولذلك يجب أن نلتفت جيدًا إلى أن الحزن من رسول الله ﷺ إنما يؤخذ أن الحزن كان يتعلق بشيء يناله، ولكن الفهم إنما يتعلق بشيء ينال الآخرين، وهذا يدل على حرصه ﷺ . فإذا أنا حزنت مثلاً لأن ابنى لا يلتفت إلى واجبه أو لأن من أحب لا يصنع كذا فهو لا يعتبر حزنًا؛ لأنه عائد علي، وإنما هو حزن على من يحزن عليه لا على نفسه. فقال عنه: كان متواصل الأحزان دائم الفكرة، لأن فكره يستلزم ذلك، كيف يقاضي هؤلاء؟ كيف منهج الدعوة؟ ماذا يصنع في أتباعه المضطهدين؟ ماذا يصنع في القوم يتكالبون على الضعفاء يريدون أن يفتنوهم عن دينهم؟ وبعد ذلك يقول: وكان طويل السكوت. ثم يفصح عن كلامه ﷺ فقال: يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه. يعني لا يتكلم من طرف أنفه، إنما كلامه يملأ فمه حتى يأتي من هذا الشدق وهذا الشدق. قلنا سابقًا: وبعد ذلك يتكلم بجوامع الكلم ومعنى (جوامع الكلم) الكلمة الواحدة الموجزة تحمل المعاني الكثيرة؛ لأنه عنده الإعجاز، وما دام عنده الإعجاز فيستطيع أن يضم كثيرًا من المعاني في اللفظ الموحى، اللفظ المعبر، يقول القول فصلاً لا فضول فيه عن المطلوب، لا زيادة فيه عن المطلوب، يعني لا فضل عن مطلوب ولا تقصير فيه عن المطلوب، وبعد ذلك يقول: كان دمثًا. ومعنى دمثًا: كان لين الخلق، يأتي إليه من ينظر إليه ويلقاه، يأنس إليه من يتحدث إليه. يقول لا يذم ذواقًا ولا يمدحه، لا يذمه لأنه نعمة، ولماذا لا يمدحه؟ لأنه إذا مدح أي طعام ربما كان تعريضًا بأن الطعام الآخر الذي لم يمدحه مكروه، فلا يذم ذواقًا ولا يمدحه. لا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولكنه كان لا يغضب لنفسه ولا يستفزه شيء. وبعد ذلك يتكلم عن حالته الأدبية حتى يتكلم فيقول: إذا أشار أشار بكفه كلها. ولا يشير بالأصبع على عادة الناس جميعهم، فإن وقفوا عليه - لماذا إذن أشار بكفه كلها؟ فكأنه ادخر المسبحة للتوحيد فقط، فيشير بكفه كلها. وإذا تعجب من أمر قلبها.

أي صار يقلب كفيه. وإذا تحدث اتصل بهـا. ومعنى اتصل بها: أن يضرب بإبهام اليمنى راحته اليسرى، وإذا أغضب أعرض وأشاح. بمعنى أنه رءوف حتى في حالة غضبه لا يريد أن يرى من أغضبه شكله وهو غضبان. وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، لا يقهقه، ويفتر عن مثل حب الغمام. ذلك كان منطقه ﷺ فاستدل على دقة التوثيق في كل ما نقل. وينتهي هنا كلام الحسن رضوان الله عليه ثم ينقل أخوه الحسين الحديث. قال الحسن في بقية الحديث: فكتمتها عن الحسين ثم حدثته بها فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عليًا - وليس هند بن أبي هالة - وعلى هو من هو أداء وبيانًا وحبًّا واستقبالاً لصفات رسول الله ﷺ فسألته عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله وكل شيء يتعلق به، فلم يدع من ذلك شيئًا. الرواية هنا للحسين، قال الحسين: سألت أبي عليًا عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان دخوله ﷺ لنفسه مأذونًا له في ذلك. يعني تميز رسول الله ﷺ بأنه كان إذا دخل على قوم لا يستأذن، لماذا؟ عنده الإشراقيات وعنده نور يعرف أنه لا يدخل على إنسان وهو في حالة لا يحب أن يراه رسول الله ﷺ وهو عليها. ما معنى الاستئذان؟ معناه أن لا اقتحم على أحد حجابه، لماذا؟ لأنه ربما كان في وضع لا يحب هو أن أراه عليه، ولكن رسول الله ﷺ لإشراقياته يعرف أنه حين يدخل لا يكون من دخل عليه في حال يجب أن يستتر عن رسول الله ﷺ، ولأن الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، هب أن رسول الله ﷺ دخل فوجدني على ما أنا عليه، هو أولى من نفسي، ألم أطلع أنا على الشيء في نفسي؟ اطلعت عليه، الرسول ﷺ أولى بنفسي مني، نعم كان دخوله لنفسه مأذونًا له في ذلك. وكان إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وهذا هو المعين الذي يتلقى منه الكمالات. وجزءًا لأهله وجزءًا لخاصة نفسه فإذا ما نظرنا إلى هذا الجزء الخاص بنفسه، ماذا كان يصنع فيه؟ جَزَّأ جزأه الخاص بنفسه بينه وبين أمته، فيرد ذلك على العامة بالخاصة الذين يذهبون إليه يلتفون به يقول لهم في هذا الجزء من خاصة نفسه ما

ينقلونه إلى العامة؛ لأنه ليس من المعقول أن عامة المسلمين كلهم يذهبون إلى بيت رسول الله ﷺ أو المكان الضيق الذي يذهب إليه، فكان يرد ذلك على العامة بالخاصة، وكان سيرته في جزء الأمة إيساع أهل الفضل بإذنه، يعني يأذن لهم في الدخول عليه، وقسمته للوقت، كأن كل واحد كان لمقامه من رسول الله ﷺ تقديم أو إعطاء وقت زائد على قدر فضلهم في الدين، فينظر لذي الحاجة حاجة واحدة يقضيها وينتهى منها، وينظر للحاجتين، وينظر للحوائج، إذن فكان رسول الله ﷺ يجعل مقاييس الإذن وطول المدة معه أو طول الحديث معه يتحكم فيه منزلة الرجل من الدين، وما دام المتحكم فيه منزلة الرجل من الدين فيكون لحاكمه أن يكون المقياس مقياسًا دينيًا، ليس مقياسًا لأنه ينافقني أو يغشنى أو غير ذلك، على مقدار حظه من دين الله يأخذ الإذن من رسول الله ﷺ ويأخذ قمته، ينظر ذا الحاجة وينظر الحوائج، ثم بعد ذلك يتشاغل بهم، يعني لا يكون معه ويسرح بعيدًا عنهم، وإنما يتشاغل بهم ويشغلهم بما يصلحهم والأمة، من مسألته عنهم، وحينما يدخل يسأل الإنسان عن حال نفسه، وهذه عملية نفسية، لماذا؟ لأن الإنسان الذي يجيء عندك إذا كان عنده شيء من مشاغله الخاصة لا يحسن استقبال ما تقول، ورسول الله ﷺ يريدهم أدوات استقبال.

الفرصة التي يجلسون معه فيها ينقلون إلى الناس شيئًا، فإذا كانت هناك أمور تشغله في خاصة نفسه ربما شغلته هذه الأمور أو ربما أخذت هذه الأمور كل فكره الذي يجب أن يستوعب عن رسول الله ﷺ من مسألته عنه وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ينصت جيدًا، ثم بعد ذلك ثمن الإذن عليه بثمن القسمة الزمنية التي يعطيها يطلب منهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القسمة وهذا الإذن، ماذا؟ يقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، إذن هذا يعطينا الدرس على أن الذين تكون لهم أسباب إلى السلطان أو أسباب إلى

الحاكم أو أسباب إلى الوالي يكونون رسل خير وسفارة للناس الذين لا يستطيعون أن يأتوا إلى الوالي ولا إلى حضرته ليسمعوا عنه، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، ثم يعلل الحكم: فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة.

معنى ذلك أنه يعطي الأسوة المطلوبة في أن يقوم الذين يحظون بإذن الحاكمين أو يحظون بمجالس الحاكمين أن يكونوا وسائل خير عندهم لمن لم يستطع أن يصل إلى ذلك المكان، والثمن أن يثبت الله قدميه يوم القيامة. قال في رواية سفيان بن وكيع: يدخلون روادًا، أي لا يتطلبون الدخول لقصد الدخول، وإنما لا يتطلبون إلا ذوقًا ويخرجون أدلة، يعني الفقهاء.

الدخول ليكونوا رواد خير عالمين للناس ثم يتفرقون، كل واحد منهم يستطيع أن ينقل ما سمعه عن رسول الله ﷺ وأن يقول ما فقهه عنه، وبذلك تنتشر دعوته ﷺ عند من لم يحضر مجلسه بواسطة من حضر هذه المجالس.

قال الحسين: فسألته عن خروجه كيف كان يصنع ﷺ؟ فقال: كان ﷺ يخزن لسانه إلا فيما ينفعهم، ويؤلفهم ولا يفرقهم إلى حال[1]، معنى يجلس أنه كان قائمًا، ومعنى يقوم أنه كان جالسًا، إذن الرسول ﷺ بين قائم وجالس، فإذا كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم يعني أنه حين يكون في أمر وينتقل إلى أمر آخر يذكر الحق - سبحانه وتعالى - ومعنى يذكر الحق - سبحانه وتعالى - أن يكون الذي صرفه عن القيام إلى الجلوس أمرًا يتعلق بالله، والذي صرفه من الجلوس إلى القيام أمر يتعلق بالله ما دام الله على ذكره حين يقوم، وما دام الله على ذكره حين يجلس، إذن يكون في كل أموره دائمًا على ذكر للحق سبحانه وتعالى.

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه الترمذي (٣٢٩)، (٣٤٤) في الشمائل، والبغوى (٣٧٠٥) في شرح السنة، وفيه جهالة بعض الرواة.

(لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها) يعني ليس له مكان مخصوص يجلس فيه، فكان إذا انتهى إلى قوم جلس هو ﷺ حيث ينتهي به المجلس، فإذا كان الرسول حين يذهب إلى قوم يجلس حيث ينتهي به المجلس فيكون قدوة لئلا يكون هناك واحد يأخذ له مكانًا خاصًا بحيث يحفظ له إن كان غائبًا أو يقوم غيره عنه إن أقبل عليه. يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب أحد أن أحدًا أكرم عليه منه. تلك هي عدالة الرعاية، لا ينفرد بحديثه ولا بعينه ولا بأذنه إلى واحد دون الآخر، بل يوزع هذه القوة على الجميع بالتسوية، لماذا؟ لأنه إذا اتجه إلى إنسان ولم يتجه إلى آخر هذا الإنسان ربما أخذ منزلة، الرسول ﷺ يكون معصومًا لكن حين يكون هو أسوة ليعلمنا أن الحاكم لا يصح عندما يأتيه أناس يوزع عنايته ورعايته على واحد خاص بل يجب عليه - ما داموا أهلاً لأن يدخلوا عليه مجلسًا ويجلسوا عنده - يجب عليه أن يوزع نظره وأذنه وتحيته - إن حيا - ويوزع كلامه إن تكلم على الجميع حتى لا يعرف أحد أن فلانًا خير منه عند رسول الله ﷺ لماذا؟ لأن المقاييس كما قلنا هي المقاييس الإيمانية، أفضلهم عنده - كما قلنا - أعمهم نصيحة، وأشدهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة. وأيضًا فإن الحسين رضي الله عنه حينما تكلم عن رسول الله ﷺ في هذه المسألة زاد أمرًا آخر بعدما قال: يعطي كل جلسائه نصيبًا، من جالسه أو قاومه لحاجة: يعني أخذ رسول الله وجلس معه ليتكلم في حاجة قاومه، أي إذا أخذه وهو قائم صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، إذن الإذن لمن؟ الإذن ليس له، إنهاء المقابلة ليس له، وإنما هو لمن يجالسه أو لمن يقاومه. من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأل حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع عنده الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته، هب أن واحدًا قال كلمة لا تليق فيه فلا يلتفت إليها الرسول ﷺ، بل تنسى كأنها لم تحدث. فمن كان موجودًا

قام من مجلس رسول الله ﷺ إلى غيره فكأنها لم تحدث. قال الحسين أيضًا في روايته عن أبيه: إن رسول الله ﷺ كان دائم البشر، لين الجانب، سهل الخلق. هذه صفاته العامة وبعد ذلك قال: يتغافل عما لا يشتهي، يعني شيء حدث أمامه وهو لا يشتهيه يتغافل وكأنه لم يره لأنه مقدر.

وقد ترك نفسه من ثلاث: من الرياء، ومن الأجفار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم ﷺ إلا فيما يرجو ثوابه، ليس عنده فضول، ما يبدو له أن هذه الكلمة تزيده ثوابًا يتكلم به، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير، ومعنى يخزن لسانه: يعني لا عذر عنده في الكلام، لا يتكلم إلا في الموضوع الذي يعلم أنه يؤلف القوم ويعني هؤلاء القوم، وكان يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم؛ لأن معنى (كريم كل قوم) هو الذي يجد عنده القوم راحتهم في ذوات نفوسهم وفي ذات أيديهم الضيقة، ما دام إنسان خصاله الكريمة متعدية إلى الغير وما عنده من خير الله متعد إلى الغير فمثل هذا يؤتمن أن يكون واليًا على هؤلاء، وأنه إذا كان قد تعدى منه الخير وهو غير وال هذا يطمئن على أنه إن ولي الأمر على القوم فلن يأخذ شيئًا لنفسه، فيستعين بذلك على أن يكرم كريم كل قوم؛ لأنه يستحق أن يكرم، وبعد ذلك يوليه عليهم، وبعد ذلك قال: يحذر الناس من غير أن يمنع عن أحد بشره وخلقه: يعني فطن يعرف حين يتكلم الإنسان يزنه بميزان الاحترام، بالميزان الحذر؛ لأن الرسول ﷺ كان عرضة ليدخل عليه المنافقون ويدخل عليه من يدس عليه، فكان ﷺ يحذر نفسه، لكن هذا الحذر لا يتعدى إلى انفعاله إلى الغير من غير أن يلوى عن أحد بشره وخلقه، يتفقد أصحابه: ومعناه أنه إذا غاب واحد سأل عنه أين فلان؟ ولماذا؟ مريض، في حاجته، في أي شيء. وهذه تدل عل حسن رعايته لأصحابه ﷺ وإذا ما نظرنا إلى أن مجرد سؤال القائد مجرد سؤال عنه، يعني صاحب الجاه عن إنسان تردد عليه ثم

انقطع هذا يعطيه معنوية في ذاته، يعطيه أنه مسئول يعطيه أنه إذا غاب افتقد، هذا كله لصالح أمر الدعوة، فيتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس؛ لأنه ربما كان إنسانًا عنده حياء لا يستطيع أن ينقل إلى رسول الله ﷺ ذات نفسه أو ظروفه الخاصة، فيسأل فلانًا عن حال فلان، ربما كان يستحي أن يقول الرسول شيئًا. يحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويهذبه، معتدل الأمر، لا يختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لا يغفل عن شيء مخافة أن تكون فيه أسوة للفضيلة، وهذه تعطينا قاعدة أن الوالي أو الذي يتولى صدارة شيء لابد أن يحاسب الغير؛ لأنه إن أغفل من له الولاية على الأمر في شيء يكون التابع في شيئين، وتابع التابع في ثلاثة، وتابع تابع التابع يكون في أربعة، إذن فالعصمة تأتي من أن يكون من بيده الأمر الأعلى لا يغفل عن شيء حتى لا يستقله من هو دونه ليفعل فعله. وإذا ما نظرنا إلى المفاسد التي أتت في أي جهات أو أي إدارة نجد أن المرءوسين أو المتبوعين يجربون على الرئيس الأعلى شيئًا من النقص أو شيئًا من التهاون أو شيئًا من عدم الدقة والاحتياط في الأمور، وبعد ذلك يقولون هم كما يحبون ومن هنا ينشأ الفساد، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لكل حال من الأحوال عنده قوة وميزان، يعطى الحال على قدر حجمه، لا يتجاوز الحق ولا يقصر عنه. الذين يلونه من الناس خيارهم، يلونه من الناس - أي في مجلسه، حتى في المجلس - خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، يعني الذي إذا جلس معه ينصحه يقول لهذا كذا ولذلك كذا وليس الذي يغشه، لكن إذا نظرنا الذين يلون الناس من الناس هم الذين ينافقونهم، هم الذين يداهنونهم، الذين يحسنون لهم القبيح، هم الذين يقبحون لهم الحسن، هم الذين يستطيعون أن ينقلوا إلى أذن الوالي أو الحاكم أو الرئيس أشياء غير واقعة لأغراض عندهم، لا. الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، ومعنى أعمهم نصيحة: هو الذي ينصح في كل

أمر يرى فيه وجهة الخير لصالح منهج الدعوة، وبعد ذلك يتكلم سيدنا الحسين عن شيء آخر يتعلق بمجلس الرسول ﷺ لأن معنى (لا يجلس) هنا يعنى ينتقل من حال الطير، هذه كناية عن أنه لما تكون جماعة على رءوسهم الطير يخاف الواحد أن يميل رأسه أو يغفل شيئًا خوفًا من الطير، كأن على رءوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا. هذا أدبهم مع حديثه ﷺ ويتكلم بعد ذلك عن أدبهم وعن حديث إخوانهم. حديثهم حديث أولهم - يعني بالدور - لما يتكلم أحد لا يقاطعه الآخرون. فإذا تكلم عنده إنسان لا يقطعون عليه كلامه حتى يفرغ، فإذا تكلموا بعد. ومعنى ذلك: لا يتعالى عليه رسول الله ﷺ وهو في المكانة العالية الخاصة به. يعجب مما يعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق. يعني واحدًا لا يعرف قدر رسول الله ﷺ وبعد ذلك لو اشتد في منطقه كان يتلطف معه ويصبر عليه، حتى إن بعض أصحابه كانت أمثال هذه المسائل قد تغضبه وتضايقه وتجعله يقول ما يقول؛ ولذلك النبي ﷺ حين جاء الرجل وطلب منه شيئًا فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا وأعطاه ما عنده، فقال له: «**يا أخا العرب أأحسنت إليك وأجملت؟**» وأخذ يقول للرسول ﷺ : لا أحسنت ولا أجملت. ماذا يكون موقف صحابة رسول الله ﷺ ؟ فقاموا عليه، فقال لهم: «**دعوه**». ثم أخذه بيده ودخل البيت وزاده خيرًا مما عنده في بيته. قال: «**يا أخا العرب أأحسنت وأجملت؟**» قال الأعرابي: نعم أحسنت وأجملت فبورك فيك من أهل وعشيرة. قال: «**إذن نحن إذا خرجنا إلى أصحابي فقل عندهم ما قلته لي حتى ترضي خواطرهم**»، فلما خرجوا قال رسول الله ﷺ : «**لقد قال أخي كذا وكذا**» فقال الرجل: نعم. فلما هدأ قال رسول الله ﷺ «**إنما مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فتبعها أصحابه فزادوها نفورًا. فقال الرجل للقوم: يا قومي دعوني وناقتي أنا أعلم بأمرها فسكتوا، ثم أخذ يطلب شيئًا من الأرض ويمده إلى الناقة هكذا،**

فجاءت الناقة لتأخذ ما في يده حتى أناخها وامتطاها فمثلي ومثل هذا كمثل الرجل وناقته، ولو أنكم كنتم جئتم فقتلتموه أو صنعتم معه شيئًا لدخل النار» هذا هو موقفه ﷺ من أنه يصبر للغريب في المنطق على الجفوة. وبعد ذلك يقول الحسين رضي الله عنه: وكان لا يطلب الثناء إلا من مكافيء . يعني الذين يتطوعون بالمديح لا يقبل منهم، إنما كلمة ثناء تقال ردًا على موقف: يجزيك خيرًا، لأنه صنع كذا ويقبله، لا يقبل التطوع بالثناء ويقبله من مكافيء على جميل قدمه رسول الله ﷺ وبعد ذلك يقول: وكان لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه هو فيقطعه بانتهاء أو بقيام. وهنا انتهى الحديث إلا أن حديث وكيع ابن سفيان زاد شيئًا أنه سأله عن سكوته ﷺ ومنطق الأشياء وما دام قد سأله عن منطقه فلابد أن يكون قد سأله عن سكوته، وما دام قد سأل عن المدخل فيكون سأل عن المخرج، المتقابلان، إذن فهذه التتمة كانت ضرورية في رواية وكيع بن سفيان فقال: «جمع له ﷺ السكوت في أربع في الحلم، والحزم، والتقدير، والتفكر»[1]: أما التقدير - كما قلنا سابقًا - ففي تسويته النظر والاستماع بين جلسائه، وأما التفكر ففيما يبقى وفيما يفنى، وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء يستفزه في ذاته. وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحسن ليقتدي به، وتركه القبيح لينتهي عنه، واجتهاد الرأى فيما أصلح الأمة، والقيام لأمته بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

* قصة الذكي نعيم بن مسعود رضي الله عنه *

انتهت قصة الأحزاب وبَنُو قريظة في التعبير القرآني، وبقي أن نستعرض القصة بفلسفة أحداثها، فالقصة لها بطولات متعددة، وكل شخص له دور.

حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق هما اللذان ذهبا إلى بني قريظة في أماكنهم وقالوا: قد جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد، فنحاصرهم نحن من أعلى وأنتم من أسفل ونقضي عليهم.

لكن قريشًا كان فيها بعض التعقل فقالوا لهما: أنتم أهل الكتاب وأعلم بالأديان، فديننا الذي نحن عليه خير أم دين محمد؟ فقالا: أنتم أصحاب الحق.

فلما سمعت قريش هذا الكلام منهم - لولا وجود الأهواء التي تلون الرأى - كان يجب أن يناقشوا هذه القضية.

فاليهود كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يقولون: يطل علينا زمان نبي نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم. والآن هم يغيرون ما قالوا، ويقولون: إن الكفار أهدى من المؤمنين سبيلاً ولذلك فضحهم الله جميعًا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[1]. بعدما كانوا يستفتحون عليهم.. يقولون: إنهم أهدى سبيلاً. إذن.. هذه أول مسألة تغيب فيها العقول والرأى يفسد بالهوى. ولو أنهم أدركوا لقالوا لليهود: أنتم تكذبون.. لأنكم كنتم تستفتحون علينا بمبعثه، ولكن الهوى في القضاء على محمد جعلهم يستمعون إليهم. فجمعوا كل أحلافهم من بني فزارة، وبنى مرة، وبنى غطفان، وبنى أسد، والأشجعين واجتمعوا كلهم

---

(١) سورة النساء: ٥١.

للقضاء على محمد ﷺ ورسالته بزعمهم. وكان في هذه المعركة بطولات جعلها الله تعالى أسبابًا لنصرة المؤمنين وهزيمة المشركين وكانت أول بطولة لرجل ليس من العرب وهو سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، الذي قضى حياته في تجوال للبحث عن حقيقة الدين إلى أن التقى برسول الله ﷺ وآمن به.

فسلمان أول بطل من أبطال المعركة وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق فقال: يا رسول الله كنا إذا حزبنا أمر القتال مع أعدائنا - يعني في فارس - خندقنا يعني عملنا خندقًا بيننا وبين العدو فكان هذا الكلام إيذانًا ببدء حفر الخندق حول المدينة.

والبطل الثاني: نعيم بن مسعود الأشجعي جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إني قد أسلمت، ولم يعلم بي أحدٌ من قومي، فمرني أمرك. فقال له رسول الله ﷺ: **«إنما أنت فينا رجُلٌ واحد، فَخَذِّلْ عنا ما استطعت. فإنما الحرب خدْعة»**[١].

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة. فقال لهم: يا معشر قريظة - وكان لهم نديمًا في الجاهلية - إني لكم نديم وصديق، قد عرفتم ذلك. فقالوا: صدقت. فقال: تعلمون والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد لبلدكم، وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلادهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا فرصة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبينَ الرجل؛ ولا طاقة لكم به، وإن هم فعلوا ذلك فلا تقاتلوهم، حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، تستوثقون به، ثم ذهب إلى قريش فأتى أبا سفيان وأشراف قريش فقال: يا معشر قريشٍ إنكم قد عرفتم وُدِّي إياكم، وفراقي محمدًا ودينه، وأني قد جئتكم بنصيحة؛ فاكتموا عليَّ فقالوا: نفعل، ما أنت

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه البيهقي (٣/ ٤٤٥) في دلائل النبوة.

عندنا بمتهم. فقال: تعلمون أنَّ بني قريظة من يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محـمد. فبعـثوا إليه ألا يرضيك عنا أن نأخـذ لك من القوم رهنًا من أشرافهم، وندفـعهم إليك فتضرب أعناقـهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم أي نعم، فـإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنًا من رجالكم فـلا تعطوهم رجلاً واحدًا واحذروا، ثم جـاء غطفان. فقال: يا مـعشر غطفان قد علمتم أني رجل منكم قالوا: صدقت. فقال لهم كما قال هذا لحي من قريش. فلما أصبح أبو سفيـان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس وكان ممَّا صنع الله به لرسوله ﷺ، بعث إليهم أبو سفيـان بن حرب عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش: إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر يهود، إن الكراع[1] والخف قد هلكا وإنّا لسنا بدار مقام؛ فاخرجوا إلى محـمد نناجزه، فبعثوا إليه: إن اليوم السبتُ وهو يوم لا نعـمل فيه شيـئًا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل مـعكم، حتى تعطونا رهطًا من رجالكم نـستوثق به. لا تذهبوا وتدعـونا حتى نناجز محـمدًا. فقال أبو سفيان: قد والله حذرنا هذا نعيم؛ فبعث إليهم أبو سفيان إنا لا نعطيكم رجلاً واحدًا، فإن شئتم أن تخرجوا فتقاتلوا، وإن شئتم فاقعدوا.

فقالت يهود: هذا والله الذي قاله نعيم والله ما أراد القوم ألا يقاتلوا معهم، فإن أصابوا فـرصة، انتهزوها، وإلا مضوا فـذهبوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين الرجل فبعثوا إليهم إنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنًا فأبى أن يفعل.

ولما وجد النبي ﷺ أنه لا حركة ولا خـبر وساد الهدوء معـسكر المشركين، فقـال ﷺ: **«ألا رجلٌ يأتي بخـبر الـقوم ويكون مـعي يوم القـيامـة»**. فسكت الصحابة ولم يجبه منهم أحد، فقال ذلك مرة ثانية، ثم ثالثة. ولما لم يجبه أحد قال ﷺ: **«يا حذيفة! قم فأتنا بخبر القوم ولا تذعرهم[2] عليَّ»**[3].

(١) الكراع: الخيل.

(٢) تذعرهم: تفزعهم.

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (الجهـاد/ ٩٩)، والبيـهقي (٩/ ١١٩) في سننه الكبرى، =

فمشى حذيفة رضي الله تعالى عنه حتى أتاهم فوجد أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله قد تفرق الأحزاب عنه، فلما جلس فيهم أحس أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم فقال: يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فيقول حذيفة رضي الله تعالى عنه: فضربت بيدي على الذي عن يمينى فأخذت يده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يسارى فأخذت بيده، فكنت فيهم هُنَيْهة، ثم قمت فأتيت رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى، فأومأ إليَّ بيده أن ادنُ فدنوت، ثم أومأ إليَّ أيضًا: ادن، فدنوت، حتى أسبل علي من الثوب الذي كان عليه وهو يصلى، فلما فرغ من صلاته، قال: **«ابن اليمان! اقعد ما الخبر»**، قلت يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا عصبة تُوقد النار. قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجو من الله ما لا يرجو[1].

كما أن الله سبحانه حين رَدَّ الكفار بغيظهم قدر أن يتحول الأمر إلى بني قريظة، فلما رجع رسول الله ﷺ من الأحزاب لقيه جبريل - عليه السلام - فقال: أَوَضَعْتَ لأمتك يا محمد ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب؟ اذهب فانتصر لعهدك من بني قريظة، فقال الرسول ﷺ للقوم: **«من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»**[2] فأعد الصحابة أنفسهم للرحيل إلى بني قريظة، واقترب الوقت من المغرب، فقال قوم: إن الشمس تغيب فلنصل العصر، وقال قوم: لا، إن رسول الله ﷺ قال: **«لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»** فاختلفوا، فصلى البعض ولم يصل البعض الآخر. فلما ذهبوا للرسول ﷺ وقصوا عليه الأمر أقرّ الفريقين.

* * *

= و(٣/ ٤٥٠) في دلائل النبوة.

(١) حديث صحيح: انظر السابق، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣١) وصححه، وأقره الذهبي.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢/ ١٩)، ومسلم (١٧٧٠)، وابن سعد (٢/ ١/ ٥٤) في طبقاته، والبيهقي (١٠/ ١١٩) في سننه الكبرى.

* قصة دخول الرسول ﷺ مكة وأثره على أبي سفيان *

الصلاة هى الولاء المستمر للحق سبحانه على مدَار اليوم كله، وربك هو الذي يدعوك إليها، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء في حَضْرته تعالى؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك في أيِّ وقت.

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك في اليوم خمس مرات لتكون في حضرته، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات في اليوم والليلة؛ لأنه سبحانه لا يتكلف في هذه العملية تكرار لقاءات، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع في وقت واحد.

ولما سئل الإمام علي رضي الله عنه: كيف يُحاسَب الله كلَّ هؤلاء الناس في وقت واحد؟ قال: كما أنه يرزقهم جميعًا في وقت واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]. لا ينفقون من جيوبهم، إنما من عطاء الله ورزقه. ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدق عليك تفضُّلاً منه سبحانه، فإذا أرادك تُعين محتاجًا قال لك: **﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾**[2].

وكأن الله تعالى يقول لنا: أنا لا أعود في هبتي ولا في عطائي، فأقول: اعْطِ ما أخذته لفلان، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضًا لك مُدَّخر لا يضيع، فرزقك الذي وهبك الله إياه مِلْكك، ولا نغبنك في شيء منه أبدًا، فربك يحترم ملكيتك، ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك.

نقول - ولله المثل الأعلى - : كالرجل الذي يحتاج مبلغًا كبيرًا لأحد الأبناء

(١) سورة الحج: ٣٥.

(٢) سورة الحديد: ١١.

فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد.

لذلك يقول بعدها: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[1]. فيعاملك ربك بالزيادة؛ لذلك يقول البعض: إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك: اترك لي أنا هذا التعامل؛ لأنني حين أزيدك لا أنقص الآخرين، ولا أُنقِص مما عندي، ولا أُرهِق ضعيفًا ولا محتاجًا ولا أستغلّ حاجته.

والصدقة في الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكِبَر، وعدم القدرة على الكَسْب، وعند الإعاقة عن العمل، يخاف أنْ ينفدَ ماله، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره.

وعندها يقول له ربه: اطمئن، فكما أعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عَوَزِك وحاجتك.

إذن: أخذ منك ليعطيك، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذي تخاف منه.

الصدقة في الإسلام صندوق لتكافل المجتمع، كصندوق التأمين في شركات التأمين، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك: لا تحزن فأنت في مجتمع مؤمن متكافل، وكما طلبنا منك أنْ تعطي وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيَك وأنت مُعدْم.

ونلْحظُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[2]. جاءت قضية عامة لكل الناس، فلم يخصَّ طائفة دون أخرى، فلم يَقُلْ مثلاً: لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين، إنما قال مُطْلق الناس؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع في كل المجتمعات.

---

(١) سورة الحديد: ١١.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعًا مرة، ومدفوعًا عنه أخرى. فَهُمْ لبعض بالمرصاد: مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر لِيُوقفه عند حَدِّه، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[1]. دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع، وأيهما مرفوع عليه؛ لأن كلاًّ منهما مرفوع في شيء، ومرفوع عليه في شيء آخر؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله، لا يُحابي منهم أحدًا على أحد.

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب، إنهما مثال لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾[2]. فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكري، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى.

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم؟ لابُدَّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فسادًا ويستبد بالآخرين، ويستشرى ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردِعه.

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم، ويُؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْمًا: ليظلَ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة، لا يدخلون طَرَفًا فيها؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات، لأنهم قوم رِقَاق القلوب، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة في الانتقام.

اقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير، ويحقِن دماءهم، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة.

لذلك لما دخل النبي ﷺ مكة دخولَ المنتصر، بعد أنْ أخرجه قومه منها، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل، كيفْ دخلها وهو القائد المنتصر الذي تمكَّن من رقاب أعدائه؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مطأطيء الرأس، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذي يجلس عليه، تواضعًا منه ﷺ ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف، قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا.

وبعد أن تمكن رسول الله من كفار مكة، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم، قال: **«يا معشر قريش، ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم؟»** قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: **«فاذهبوا فأنتم الطلقاء»**[2].

فأيُّ رحمة هذه؟ وأيُّ لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين؟ وهل مِثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه؟

إذن: يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يُهلِك الله فيها الظالمين بالظالمين.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾[3]. صوامع جمع صومعة، وهي مكان خاصٌّ للعبادة عند النصارى، وعندهم مُتَعبِّد عام يدخله

---

(١) القربوس: حنو السرج، وحنو كل شيء: اعوجاجه، وهذا من تواضعه لله تعالى وشكره لنعمة الفتح لمكة المكرمة.

(٢) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه ابن إسحاق (٤/٤١٢) كما في السيرة النبوية، والبيهقي من طريقه (٩/١١٨) في سننه الكبرى مرسلاً.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

الجميع هو الكنائس، أما الصومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة، ولا تكون الصَّوْمعة في حضر. إنما تكون في الجبال والأودية، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس، وهى التي يسمونها الأديرة وتوجد في الأماكن البعيدة.

وقد حرَّم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى؛ لأنها رهبانية ما شرّعها الله، كما قال سبحانه: ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾[١].

ومعنى: «وبيع . . » البيَع هى الكنائس.

فالحق - سبحان وتعالى - مَا نعَى عليهم الانقطاع للعبادة، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة، وأسباب العيش؛ لذلك قال: ﴿ **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** ﴾[٢].

وقد أباح الإسلام أيضًا الترهُّب والانقطاع للعبادة، لكن شريطة أن تكون في جلوة يعني: بين الناس، لا تعتزل حركة الحياة، إنما تعبَّد لله في كل حركة من حركات حياتك، وتجعل الله تعالى دائمًا في بالك ونُصْب عينيك في كُلِّ ما تأتي، وفي كل ما تدَع.

* * *

---

(١) سورة الحديد: ٢٧.

(٢) سورة الحديد: ٢٧.

* قصة أسامة بن زيد مع القتيل *

جاءتني رسالةٌ يقول فيها صاحبُها: كنتُ أسمعُ إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا: «فتثبتوا» بدلا من «فتبينوا» في قول الحق تبارك وتعالى في سورة الحجرات: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾(١).

ولكن السامع الذي أرسل الخطاب سمعها «فتثبتوا» . . نقول له: إن هذه قراءة من القراءات، والمعاني دائمًا ملتقية، فـ «تبين» معناها «اطلب البيانَ لتتثبّتَ».

ولنا أن نعرف أن القرآنَ قد نزلَ على سبعةِ أحرُف وكتابةُ القرآنِ كانت بغيرِ نقطٍ وبغير شكل - وهذا حالٌ غير حالنا، حيث نجد الحروف قد تم تشكيلُها بالفتحة والضمةِ والكسرةِ ونحنُ نعرفُ أن هُناك حُروفًا مُشتبهةَ الصورةِ فالـ «با» تتشابهُ مع «التا» و«اليا» وكذلك «النون» و«التاء» و«الثاء» ولم تكنْ هذه النقطُ موجودةً، ولم تكن هذه العلاماتُ موجودةً قبل الحجاج بن يوسف الثقفيّ، وكانوا يقرأون بِمَلَكَةِ العربيّة. . ولذلك إن لم يُصِبْ نصّ الكلمةِ فهو لا يبعدُ عن معناها. ومثال ذلك «فتبينوا» إنها مكونة من الـ «فاء» ولم يحدثْ فيها خلاف وكذلك «التاء» وبقيةُ الحروف هى الباء والياء والنون. . وكل واحدة من هذه الأحرف تصلحُ أن نجعلَها «تثبتوا» بوضع النقاط أو نجعلَها «تبينُوا» . إنهُ خلاف في النَّقطِ. . ولو حذفْنا النقطَ لقرأناها على أكثرِ مِن صورةٍ. . إما على المعنى الصحيح أو المعنى القريب من المعنى الصحيح.

ولذلك عندما جاءوا لواحدٍ لم يكنْ يحفظُ القرآنَ وأحضرُوا لهُ مصحفًا ليقرأ ما فيه فقال: صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة. ولم يحدثْ خلافٌ في

---

(١) سورة الحجرات: ٦.

«الصاد» ولكن حدثَ خلافٌ في معنى الآية، فـ «الباء» صالحة لتكون «با» أو «نا» وكذلك «الغين» يمكن أن تكون «عينًا» لذلك فالآية في قراءة حفص: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[1]. وعندما قرأها الإنسان الذي لا يجيد قراءة القرآن على طريقة حفص قال: «صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة» إن المعنى واحد، فهو وإن لم يقع عليها فقد وقع قريبًا منها لماذا؟ لأن الملكة[2] عربيةٌ وعندما ينطِقُ سيأتي بالسياق الذي يأتي بالمعنى.

وكذلك من قرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾[3]. هذه هي قراءة حفص، ولكن الذي لم يحفظْ القرآنَ قبل تنقيطِ حرُوفه قرأهَا: «قال عذابي أصيب به من أساءُ» صحيح أن كلمة «أساء» فيها ملحظ آخر للمعنى؛ لكن القراءة الأخرى لم تبعْد بالمعنى وعلى ذلك فكلمةُ «فتبينُوا» تُقْرَأُ مرةً «فتثبتُوا» ومرةً تُقْرَأ فتبينُوا في الآيتين.. سواء في هذه الآية أو في الآية التي يقول فيها الحق: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[4].

والتبين يقتضى الذكاء والفطنة حتى يتعرفَ الإنسانُ من إيمانِ مَن ألقَى إليه السلام، هل يصلِّي؟ هل، هل.. والحقٌّ يقولُ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[5]، إن الذي يكفى المؤمن شر الظن إذا ما قال أحدٌ: السلام عليكم، هنا يجب أن يفطَنَ المسلمُ إلى أن أمر القلوب لا يعلمه إلا الله تعالى وألا يأخذَ إنسانًا بالشبهات.

ولذلك نجدُ النبيَّ يحزِمُ الأمرَ مع أسامةَ بن زيد الذي قتل واحدًا بعد أن

---

(١) سورة البقرة: ١٣٨.

(٢) الملكة: استعداد ذهني وجداني لتناول أعمال معينة بحذقٍ ومهارة مثل: الملكة العددية، والملكة الفنية، والملكة اللغوية، والملكة الحفظية.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٤) سورة الحجرات: ٦.

(٥) سورة النساء: ٩٤.

أعلَن هذا الواحدُ إسلامه بقوله: لا إله إلا الله، وظن أسامة أنه قالها خوفًا من السلاح، فقالَ له النبيّ ﷺ: «**أفلا شققت عن قلبه**»[1] إن أسامةَ رضي الله تعالى عنه قال للرسول ﷺ: لقد قال الشهادة ليحمِيَ نفسَهُ من الموتِ، فكانت الإجابةُ: هل شقَقت عن قلبِهِ فعرفت أن قوله: «لا إله إلا الله» كان خوفًا من القتل؟!

إن لقول: «لا إله إلا الله» حُرمةً، فساعة يقولها الإنسان تعصم دمه، فلا يجوز قتله، لقد قال أهل العلم: إن نجاةَ ألفِ كافرٍ خيرٌ من أخذ مؤمنٍ واحدٍ.

وقوله تعالى: ﴿ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾[2].

يعني: أعلن إيمانه حتى ولو كان مستسلمًا تحت بريق السيف، إنه ليس من حق أحد أن يُلقِي الاتهامَ بعدم الإيمان على مَن جاء مسلمًا أو يقول بتحية الإسلام.

وكلمةُ: «عرض» إذا ما سمِعْناها، فلنعلَم أن معناها اللغوي: هى كل ما يَعرِضُ ويزول وليس له دوامٌ أو استقرار أو ثباتٌ، ونحن - البشر - أعراضٌ؛ لأن ليس لنا دوامٌ أبدًا. ويُقالُ إن الإنسانَ عَرَضٌ إذا ما قاس الواحدُ منا نفسه بالنسبةِ للكوْن، لأن الكونَ لا يتمّ بناؤهُ على الإنسان بل إنّ الكونَ كله الذي نراه هو عرض لأنه سيأتي عليه يوم ويزول.

إذن. . فالعرض بالنسبة لكل شيء بحاجته، والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا. قد يرى نفسه صحيحًا أو سقيمًا هنا تكون الصحة عرضًا وكذلك المرض، وكذلك السمنة والنحافة، ولون البشرة إذا ما تعرض للشمس يتغير من أبيض إلى أسمر. وكذلك الغنى والفقر، وكل شيء يمكن أن يذهب في

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٥٨)، وأبو داود (٢٦٤٣)، وابن أبي شيبة (١٠/ ١٢٢) في مصنفه، والبيهقي (٨/ ١٩، ١٩٢) في سننه.

(٢) سورة النساء: ٩٤.

الإنسان ويأتي فهو عرض بالنسبة للإنسان، ويكون الإنسان جوهرًا بالنسبة له، فإذا قسنا الإنسان إلى ثابت عنه، فالإنسان عرض، فعندما نقيس الإنسان ببناية يكون عرضًا، لأنه البناية ستظل والإنسان سيذهب.

وعندما نقيس الدنيا نجدها عرضًا، يقول تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(١)] . وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع المقاتل فيما يملكه الذي يلقى السلام، وقد يكون عرض الحياة الدنيا هنا هو عزة نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إِحَنٌ أو بغضاء، وعندما نسمع كلمة: ﴿عرض﴾ وهذا العرض في الحياة الدنيا، نفهم أن ذلك عرض فيما لا قيمة له، ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده، وينسى هذا الإنسان أنه هو نفسه معرض للموت فيقول:

نفسي التي تَمِلكُ الأشياء ذاهبةٌ فكيفِ آسَى على شيءٍ لها ذَهَبَا

وكذلك: ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(٢)]. نحن نفهم كلمة «دنيا» على أساس الاشتقاق «علوًّا» وعلى ذلك يكون مقابل «الدنيا» هو «العليا» .

ومن يرغبُ في: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعليه أن يملك الذكاء والحكمة والفطنة، فلا يجب أن يأخذ العرض ممن سيقتله، ولماذا لا يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها؟

إن العاقل لو أراد الحياة الدنيا فليأخُذْها من خالق الحياة كلِّها ومالكها، ولا يأخُذها من إنسانٍ مثله. لأن الإنسان لا يملك الحياة الدنيا بدليل أنه معرَّضٌ للقتلِ.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[(٣)]. والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها فهو سبحانه يعلم تعلقها

---

(١) سورة النساء: ٩٤.

(٢) سورة النساء: ٩٤.

(٣) سورة النساء: ٩٤.

بالأشياء التي تنفعها أو تعطيها اللذة حتى لو كانت مؤقتة، مثل ذلك الإنسان يكون سعيدًا إذا ما تناول غداءه، ويكون سعيدًا أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء، ويكون أكثر سعادة عندما يمتلك قوته لمدة شهر أو عام، ويكون أكثر إشراقًا بالسعادة عندما يمتلك أرضًا يأخذ منها الرزق، لنفسه وكذلك أولاده من بعده.

إذن.. فالإنسان يحب الحياة لنفسه ويحب امتداد حياته في غيره، ولذلك نجد الإنسان يحزن عندما لا يكون عنده أولاد، لأنه يعرف أنه ميت لا محالة، لذلك يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فالإنسان يسعد أكثر لأن ذكره سيكون في جيلين، هنا نقول لمثل هذا الإنسان: لتفرض إنك ستحيا ألف جيل، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة؟ ليس أمامك إلا أن تعمل صالحًا، وتنشيء وَلَدَكَ على الصلاح حتى يدعو لك[١].

ولذلك يكشف الحق سبحانه وتعالى النفس البشرية المتحولة التي تهفو إلى المغانم أمام صاحبها فيأتي بالحكم الذي يظهر الخواطر التي تجول في النفس البشرية ساعة سماع الحكم.

الحق سبحانه لما قضى أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[٢]. فمعلوم أن المشركين حين يدخلون البيت الحرام، يدخلون بتجاراتهم وأموالهم.

إذن.. فهم يذهبون إلى موسم اقتصادي يبيعون ويشترون البضائع ويعيش أهل الحرم من ريعها طوال العام، وعندما يحرم الحق دخول المشركين إلى البيت

---

(١) وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام:

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٢٥٧٦)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، والبيهقي (٦/ ٢٧٨)، في سننه الكبرى.

(٢) سورة التوبة: ٢٨.

الحرام يعلم الحق أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون المكاسب والبضائع والتجارة والمغانم التي سيحرمون منها فيقولون في أنفسهم: وكيف سنعيش؟ ولأن الآمر هو الخالق سبحانه الذي يعلم السر وأخفى فقد طمأنهم على حياتهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[2].

ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق! ونحن هذه الأيام نمر بمثل هذا الكلام، فعندما يقول المحبون لدين الله الغيورون على شرعه: «يجب أن نمنع الخمر! فيقول الآخرون: وماذا نفعل في السياحة التي تأتي لنا بأموال كثيرة تنعش اقتصاد الدولة؟ هنا نقول لهم ما قاله الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[3]. وقد يرزقنا الله عندما نعف عن الخمر وغيرها من المحرمات بأشياء تفوق الحسبان، كآبار بترول جديدة أو ثروات معدنية أكثر قيمة من البترول.. إننا لن نُعلم الله - معاذ الله - ماذا يصنع لنا، إنه كفيل بنا ما دمنا نأخذ بأسبابه ونمتنع عن المحرمات. إن الذين يظنون أن الخمر هي عماد السياحة مخطئون.. ولنتدبر قول خالقنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[4].

إن قول الحق سبحانه: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[5]. هذا القول ينطبق على أهل كل عصر وكل زمان وتكون الإجابة على هذا القول فيما جاء من بعد ذلك ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[6]. ولذلك أنا أحب أن يتفكر الناس دائمًا في

---

(١) عيلة: يقال: عال فلان عيلاً، وعيلةً: افتقر. وأعيل: كثير عياله، فهو معيلٌ. انظر المعجم الوجيز (ص/ ٤٤٣).

(٢) سورة التوبة: ٢٨.

(٣) سورة التوبة: ٢٨.

(٤) سورة التوبة: ٢٨.

(٥) سورة النساء: ٩٤.

(٦) سورة النساء: ٩٤.

قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [٢]. لعل آية من هذه الآيات تمس قلوب الرعاة أو من بيدهم الأمر فيلتفتوا إلى شرع الله الذي يرزقنا جميعًا. كذلك أحب أن يتدبر الناس قول الحق سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [٣]. إنها دعوة لأن يأخذ المسلمون العبرة من تاريخهم القريب ويتعاونوا فيما بينهم، ويكونوا يدًا على من سواهم.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ لقد كان المسلمون الأوائل قلة مُسْتَذَلَّة تداري[٤] إيمانها.. فهل سلط الله عليهم أحدًا يجترىء[٥] على التفتيش في النوايا؟!

إذن.. فمثلما حدث لكم قدروا لإخوانكم فـ ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾. إن الله من عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة، وصار المسلم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أي شيء.

قول الحق: «فتبينوا» هنا بعد أن قالها في صدر الآية، الأولى مقصود بها: ألا يقتل مسلم إنسانًا ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر في المسألة الاقتصادية، إذن.. ﴿فتبينوا﴾ جاءت أولاً تمهيدًا للحيثية، وها هى تأتي مرة ثانية نتيجة للحيثية.

إن الحق سبحانه وتعالى حين يشرع لا يشرع عن خلاء.. ولكنه خبير بكل

---

(١) سورة التوبة: ٢٨.

(٢) سورة النساء: ٩٤.

(٣) سورة النساء: ٩٤.

(٤) تداري: تخفي.

(٥) يجتريء: يتجرأ.

ما يصلح النفس الإنسانية[(١)] ولا يعتقد أحد أنه سبحانه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا في نظام الحياة، إنه سبحانه خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجًا ليرى الناس جميعًا أن الذي يحيا في رحاب المنهج تأتيه الدنيا وهى راغمة[(٢)].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[(٣)]. إنه سبحانه خبير بما نعمل، كأن الحق يقول إياك أن تستر بلباقتك شيئًا وتخلع عليه شيئًا غير حقيقي، لأن الذي تطلب منه الجزاء هو الرقيب عليك والحسيب، يعلم سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها.

فالذي قتل إنسانًا ألقى إليه السلام، لم يقتله لأنه لم يسلم ولكن لأن بينه وبين الآخر إحنًا وبغضاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾[(٤)]. هو تأكيد على مهمة الضرب في الأرض، وهو سبحانه لم يقل: «إن ضربتم» لأن أسلوب «إن» يكون للشك عادة، فيقال للتلميذ: «إن ذاكرت تنجح»، ولكن لو قلنا: «إذا ذاكرت فسوف تنجح» فـ: «إذا» تعبر عن التأكيد، و: «إن» حرف، ولكن «إذا» اسم للشرط يدل على الزمن، وأي فعل من الأفعال عناصره الحدث وزمن الحدث، فإذا كان الحدث في زمن قبل أن تتكلم، فهو حدث ماضٍ، وإذا كان الحدث يجرى ساعة الكلام فهو مضارع، وإذا كان الحدث سيجرى من بعد ذلك فهو مستقبل، و«إن» لا تأتي وحدها بشيء من عناصر الحدث، لأنها حرف إلا في قول: «إن تفعل» أي: الفعل.. ولكن «إذا» جاءت بعنصر الزمن لأنها ظرف لما يستقبل منه وهى قريبة للتحقيق.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].
(٢) قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].
(٣) سورة الأحزاب: ٢.
(٤) سورة النساء: ١٠١.

ونتتقل إلى قضية أخرى وهي قضية البخل، فالبخل هو أن يمنع الإنسان شيئًا قد وهبه الله له عن واحذ محتاج ومن الأمثلة على ذلك: البارع في صنعة ما ثم يضن بأسرارها على تلاميذه هذا لون من البخل.

وأسوأ أنواع البخل هو ما اقترفه هؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب، وعرفوا صفات الرسول ﷺ، بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا - وهو الرسول ﷺ كفروا به وكتموا ما عرفوا عن الناس.

وهكذا صارت موهبة العلم بالصادق المصدوق رسول الله ﷺ أمرًا مكتومًا عند هؤلاء، وهذا بخل في القمة، وهم لا يكتفون بذلك بل يأمرون الناس بإنكاره ﷺ وعدم تصديقه؛ ليس هذا فقط، بل يقولون لهم أنتم أهدى منه سبيلاً، ونحن نعرف أن الأنصار من الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، هؤلاء الأنصار رضي الله تعالى عنهم كانوا يملكون الأريحية الإيمانية فساعة جاءهم المهاجرون من مكة، آخوهم وقاسموهم المال، حتى النعمة التي غرس الله في قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهًا لها، وهي.. نعمة الزوجة، حتى هذه النعمة حاول بعض الأنصار أن يُطلّق امرأة من زوجاته ليزوجها إلى أخيه المهاجر؛ ونحن نرى في الحياة أن الإنسان قد يكره زوجته ويكره أيضًا أن يطلقها أو أن يتزوجها أحد بعد طلاقها ولكنه إيثار المؤمن لأخيه المؤمن.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

قَدِمَ علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلِّقُها حتى إذا حَلَّت تزوجتها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل

شيئًا من سَمنٍ وأقط، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وَضَرٌ من صُفْرة. فقال له رسول الله ﷺ: «مَهْيَم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار فقال: «ما سُقتَ فيها؟» قال: وزنَ نواة من ذَهب - أو نواةٌ من ذهب - فقال: «أولِمْ ولو بشاة»[1].

والحق سبحانه وتعالى يُصعّد أريحية الأنصار، حتى إن الأنصاريَّ يأتي بالمهاجر ويقول له: انظر إلى زوجاتي فما يروقك منهن أطلقها وتتزوجها.

إن الأنصاري المؤمن يضرب المثل في الأريحية، فالمؤمن حين يكون في نعمة فهو يحب أن يُعدِّي أثر نعمته على غيره، وهذا ارتقاء إيماني في ذوات الأنصار فحين استقبلوا المهاجرين كانوا يعلمون أن المهاجر.ن تركوا وراءهم أموالهم ومساكنهم ونساءهم وخرجوا مهاجرين إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان من بين هؤلاء المهاجرين شباب فيهم فتوة وأهاليهم محبوسون في مكة ولا يوجد مع المهاجر منهم زوجته، ولذلك عمل الأنصار على تزويج المهاجرين لينفسوا عن عواطفهم؛ لأن أقل ما في ذلك أن يُعِفَّ الأنصاري أخاه المهاجر وهذا سَدٌّ لباب قد يدخل منه الشيطان.

* * *

(١) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (١٤٢٧)، ومالك (٥٤٥) في الموطأ، وأبو داود (٢١٠٩)، والترمذي (١٠٩٤)، والنسائي (٦/ ١٢٠)، وابن ماجه (١٩٠٧)، وأحمد (٣/ ١٦٥، ١٩٠)، والدارمي (٢/ ١٤٣) في سننه.

* قصة عمار بن ياسر مع الإكراه *

قال تعالى:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾[١].

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخلَ للإنسان فيه، فيُجبر على كلمة الكفر، في حين قلبه مطمئن بالإيمان.

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شيءَ عليه، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية، وهى رخصة تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال.

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة. ونطقتْ كلمة الكفر وهى مطمئنة بالإيمان.

وفي الحديث الشريف: **«رفع عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»**[٢].

يذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام، فكيف استشهدا؟ كانا من المسلمين الأوائل، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل العفو عنهما، فماذا حدث من

---

(١) سورة النحل: ١٠٦.

(٢) **حديث حسن**: أخرجه الحاكم (٢/١٩٨)، والدارقطني (٤/١٧١) في سننه، والبيهقي (٧/٣٥٦)، (١٠/٦١) في سننه الكبرى، والطبراني (١/٢٧٠) في الصغير، والجرجاني (ص/٣٥٧) في تاريخه، وأبو نعيم (١/٩٠، ٢٥١) في تاريخ أصفهان.

هذين الشهيدين؟ صدَعا بالحق وأصرا على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله، ولم يأخذا برخصة التقية.

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها، حينما تعرّض لتعذيب المشركين.

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر، فأنكر ﷺ هذا، وقال:

«إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه»[١].

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين، وقال: والله يا رسول الله ما خلّصني من أيديهم إلا أنّي تناولتك[٢] وذكرت آلهتهم بخير، فما كان من النبي ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له: **«إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت»**[٣].

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة، فراجعوا فيها رسول الله ﷺ وقالوا: فما بال بلال؟ فقال: **«عمار استعمل رخصة، وبلال صدع بالحق»**[٤].

ولاشكّ أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله، وأن الصَّدْع بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلةً، وأسْمَى درجة من الأخْذ بالرخصة؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر.

---

(١) **حديثٌ ضعيفٌ**: أخرجه الطبري (١٤/ ١٢٢) في تفسيره، والواحدي (٥٨٧) في أسباب النزول، وأبو نعيم (١/ ١٣٩) في الحلية.

(٢) يعني بالسب والشتم.

(٣) **حديثٌ صحيحٌ**: أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٧٨) في طبقاته، والحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه، وأقره الذهبي، والطبري (١٤/ ١٢٢) في تفسيره، والبيهقي (٨/ ٢٠٩) في سننه الكبرى.

(٤) لا أصل له.

لذلك، ففى حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته، فقال لرجل: ما تقول في محمد؟ قال: رسُول الله، قال: فما تقول فيَّ؟ فقال الرجل في لباقة: وأنت كذلك، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب.

فقابل آخر وسأله: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: وما تقول فيَّ؟ فقال الرجل متهكمًا: اجهر لأني أصبحت أصمَّ الآن، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل. فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال: «**أحدهما استعمل الرخصة، والآخر صدع بالحق**»[1].

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى:

﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[2].

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها، على النحو التالي:

إذا أكره الإنسان على أمر ذاتيٍّ فيه. كأن قيل له: اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا: يجب عليه في هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه؛ لأنه أمر يتعلق به، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها. فإنْ قيل له: اكفر بالله وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك، قالوا: هو مُخيّر بين أن يأخذ بالتقيّة هنا، ويستخدم الرخصة التي شرعها الله له، أو يصدع بالحق ويصمد.

أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير، كأنْ قيل لك: اقتل فلانًا وإلا قتلتك، ففي هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله؛ لأنك لو قتلتهُ لقُتِلْت قِصَاصًا، فما الفائدة إذن؟

---

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر المنثور (٥/ ١٧٢) مرسلاً عن الحسن البصري.

(٢) سورة النحل: ١٠٦.

وبعـد أن تحـدّث الحق تبـارك وتعـالى عن حكم مَنْ أكـرهَ وقلبـه مطمـئن بالإيمان، يتحدث عن النوع الآخر:

﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[١].

أي: نطق كلمة الكفر راضيًا بها، بل سعيدة بها نفسه، مُنْشرِحًا بها صدره، وهذا النوع هو المقصود في جواب الشرط.

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

فإنْ كانت الآيات قـد سكتت عَمَّنْ أُكرهَ، ولم تجعل له عـقوبة لأنه مكره، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صـدراً عليه غضب من الله أي: في الدنيا. ولهم عذاب عظيم أي: في الآخرة.



---

(١) سورة النحل: ١٠٦.

* قصة أبي هريرة مع الشيطان *

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

«وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**» قال: قلت يا رسول الله: شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك؟**» فقلت يا رسول الله: شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود، قال: دعني أعلمْك كلمات ينفعْك الله بها قلت: ما هي؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿**الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم**﴾[1] حتى تختم الآية؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت يا رسول الله: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «**ما هي**» قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾، وقال لي: لن

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا (أي الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير، فقال النبي ﷺ: **«أمَا إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟»** قال: لا، قال ﷺ: **«ذاك الشيطان»**[1].

* * *

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣)، والبيهقي (٧/ ١٠٨)، في دلائل النبوة، وأبو نعيم (ص/ ١٣١) في الدلائل، والبغوي (١/ ٢٦٩) في تفسيره.

* قصة أبي طلحة الجواد الكريم *

قال تعالى:

﴿ والَّذين يُنفقُون أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا ﴾[١]. الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في آخر هذه الآية السبب الذي جمعهم على ذلك؛ إنها أسباب متعددة يجمعها كلمة: «شيطان» فكل من يمنع إنسانًا من فعل الخير فهو شيطان، أو من فعل الشيطان. ابتداء من شهوات النفس، أو غفلة العقل عن المنهج، أو قرين سوء يُزيِّن للإنسان الفحشاء أو شيطان يوسوس. كل ذلك نسميه «شيطان»، أو من فعل الشيطان، لأنه يبعد الإنسان عن المنهج وهناك شياطين الجن وشياطين الإنس، والنفس حين تُحدِّث صاحبها بألا يلتزم بمنهج الله تعالى فهى تغريه بالشهوات التي سيفقدها عند تقيده بمنهج الله تعالى، ونقول لصاحب هذه النفس: إنها شهوة عاجلة أضاعت منك مُتعًا لا حدود لها آجلة.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾[٢]. كشف الله تعالى لهم صدقه.. بمنطق العلم الحديث الذي يفهمونه، ولكن لأن الإنسان دائمًا حريص وشحيح فحتى خزائن رحمة الله مع عظم اتساعها وضخامتها والتي لا يعلم ما فيها إلا الله تعالى، لوَ ملَّكها سبحانه لهؤلاء الناس لأمسكوا عن الإنفاق منها خشية أن تنفد، لأن الإنسان مجبول على أنه «قتور» يخشى على ما عنده من النفاد حتى لو كان هذا الشيء هو خزائن رحمة الله سبحانه وتعالى، والتقتير يكون على النفس، والبخل يكون على الغير.

---

(١) سورة النساء: ٣٨.

(٢) سورة فصلت: ١٠.

وشح النفس سببه أن الإنسان لا يأمن على غـده، لذلك فهو يحاول إن كان يملك شيئًا أن يؤمن ذلك الغد فتـجده يحافظ على ما عنده من حاجات، لذلك سُنَّت قوانين الحـيازة والملكيـة والمتاعيـة، ونشأت هذه الأشيـاء لا أقول من أول الخلق.. ولكن يوم أن ضاقت الأمكنة المعطيـة عن حاجات الناس ذلك أنه حين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا يكون هناك خوف من الغد، مثال ذلك: لنفترض أن رجلاً اشترى صندوقًا من الـبرتقال فإذا ما قام ابن هذا الرجل وأخذ برتقالة أو اثنتين فلا يؤثر في الصندوق لأن به كميـة كبيرة تكفى لذلك وتفيض، ولكن لو هذا الرجل أحـضر كيلو من البـرتقال مـثلاً فإنه في هـذه الحالة يكون حريصًا على أن يقسم البرتقال بين أولاده، ولا يترك كل ابن يأخذ على هواه.

وهكذا كـان الأمر في بدء اسـتخـلاف الإنسان في هذه الأرض، فـمن أراد مساحة من الأرض أخـذها واستعمرها وأخرج ثمـارها، ومن أراد العمل، ففي الأرض متسع لكل عامل لكن التمـيزات الملكية ظهرت حتى بدأ النقص في هذه الأشـيـاء فبـدأت الحـدود، والقـوانين.. إلخ. وصـدق الله العظيم إذ يقـول: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[١].

والحق سبـحانه وتعالى يأتي في هذه المسـألة ويقول: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٢]. والنفقة لو نظرت إليها نظرة واقعيـة حقيقية، لوجدت أنك أيها العبد مضارب في خير الله، ومعنى «مضارب»: أي أنك تعمل عند الله بالعـقل الذي خلقه لك، وتخطط بـهذا العـقل، وتعمل عند الله بالطاقـة التي خلقهـا الله، والمادة التي خلقها الله لك تـنفعل معـها وهذا يعني: أن كل شيء لله، وأنت أيها الإنسان مـجرد مضارب ومادمت مضاربًا فـاعط لله حقه، وحق الله لا يأخذه هو، فـهو سبـحانه أغنى الأغنيـاء، إن حق الله يأخذه أخوك غـير

(١) سورة الرحمن: ١٠.
(٢) سورة آل عمران: ٩٢.

القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضاربًا، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أن الله قد استكثر عليك وما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه، ولكن الله حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر يؤمنك سبحانه إن عجزت، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك، وذلك هو التأمين في منهج الله تعالى.

إن الحق يرغبنا في أن ننفق، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده، فيهدي مثلاً الثوب الذي بُلي، ولم يعد صالحًا للاستعمال لفقير، أو يعطي الحذاء القديم لواحد محتاج، أي: أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهد فيه، الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة الرسول ﷺ حينما سمعوا هذا النص: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[١]. فهذا طلحة ابن عبيد الله حينما يسمعها يقول يا رسول الله إن أحبَّ مالي إليَّ هو «بئر حاء»[٢] فأنا أخرجه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اجعله في أقاربك**»[٣] فجعله في أقاربه.

* * *

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) اسم حديقة أو بستان.

(٣) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٤/ ١٣)، ومسلم (الزكاة/ ٤٢)، وأحمد (٣/ ١٤١)، ومالك (٩٩٦) في الموطأ، والبيهقي (٦/ ٢٧٥) في سننه الكبرى.

* قصة زيد بن حارثة الكريم *

وهذا زيد بن حارثة انفعل مع الآية الكريمة ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وكان عنده فرس اسمه «دنديل» وكان يحبه، فقال يا رسول الله أنت تعلم حبي لفرسي وأنا أنفقه في سبيل الله، فأخذه منه رسول الله ﷺ وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس، فقال زيد: فوجدت في نفسي، أي: أنه حزن، وقال زيد: يا رسول الله أنا أردت أن أُنفق الفرس في سبيل الله وأنت تعطي الفرس لابني ليركبه.

فقال رسول الله ﷺ لزيد: **«أما أن الله قد قبله منك»**[2].

* * *

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) حديث ضعيف: أخرجه الطبري (٣/ ٢٤٧) في تفسيره مرسلاً.

وعزاه السيوطي في *الدر المنثور* لعبد بن حميد مرسلاً، انظر: الدر المنثور (٢/ ٥٠).

* قصة أبي ذر الغفاري مع الفحل *

وينفعل سيدنا أبو ذر رضي الله تعالى عنه للآية الكريمة ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وكان عنده إبل لها فحل وهو ذكر قويّ وكان هذا الفحل أحب مال أبي ذر إليه، وجاء ضيف إلى أبي ذر فقال له: إني مشغول فاخرج إلى إبلي فاختر خيرها ليذبحه، فخرج الضيف ثم عاد في يده ناقة مهزولة فلما رآها أبو ذر قال: والله لقد خنتني، قلت لك: هات خير الإبل، قال الضيف يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلاً لك وقدرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه يوم أن أضع رأسي في التراب.

إن الصحابي الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الجليل الذي يستحق من المرء أن يستعد له.

* * *

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

* قصة عمرو بن العاص مع الخادم وردان *

إن كان عندك أيها المؤمن ذرية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى ذرية ضعيفة تركها غيرك فلتعطف عليها، وذلك حتى يعطف الغير على ذريتك الضعيفة إن تركتها. واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يردّه إلى ذريتك. وقلنا ذات مرة: إن معاوية وعمرو بن العاص اجتمعا في أواخر حياتهما، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ماذا بقي لك من حظ الدنيا؟. وكان معاوية قد صار أميرًا للمؤمنين ورئيس دولة قوية غنية، فقال معاوية: أما الطعام فقد مللت أطيبه، وأما اللباس فقد سئمت ألينه، وحظي الآن في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف.

وصمت معاوية قليلاً وسأل عَمْرًا: وأنت يا عَمرو ماذا بقي لك من متع الدنيا؟

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال: أنا حظي عين خرارة في أرض خوارة تدر عليّ حياتي ولولدي بعد مماتي.

إنه يطلب عين ماء مستمر في أرض فيها أنعام وزروع تعطى الخير.

وكان هناك خادم يخدمهما، يقدم لهما المشروبات، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معهما في الحديث.

فقال للخادم: وأنت يا «وردان» ماذا بقي لك من متاع الدنيا؟ أجاب الخادم: بقى لي من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أضعها في أعناق قومٍ كرامٍ لا يؤدونها إليّ طول حياتي حتى تكون لعقبى في عقبهم. لقد فهم الخادم عن الله قوله:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[١].

فالذين يتقون الله في الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله في ذريتهم الضعيفة.

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى - عليه السلام -:

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾[٢].

لقد جرب العبد الصالح موسى في خرق السفينة - كما توضح الآيات - فقال العبد الصالح:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾[٣].

ثم ما كان من أمر الغلام الذي قتله العبد الصالح وقول موسى له: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾.

ثم جاءا إلى أهل قرية فطلبا منهم الطعام، وحين يطلب منك ابن سبيل طعامًا فاعلم أنها الحاجة الملحة؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكتنز المال، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك.

---

(١) سورة النساء: ٩.

(٢) سورة الكهف: ٦٦-٧١.

(٣) سورة الكهف: ٧٢، ٧٣.

* قصة أبي طلحة وزوجته مع البركة *

كانت حياته ﷺ تملؤها البركة . . البركة التي كان الصحابة يشاهدونها ويتعجبون لها . .

ما هى البركة أولاً ؟

إنها تعطي الشيء أكثر من ظاهره . . فإذا كان هناك طبق من طعام يكفي شخصين . . وجلس أربعة أو خمسة أشخاص فأكلوا حتى شبعوا . . يقال إن هذا الطعام فيه بركة . . أي أن عطاءه أكثر من ظاهره . . فإذا أخذت قطعة قماش مثلاً وذهبت إلى الترزي فقاسها وقال إنها تنقص نصف متر أو متر عما يكفي لصنع ثوب لك، ثم قام بقصها فإذا بها تكفي ثوبًا وتزيد . قلنا إن القماش فيه بركة.

رسول الله ﷺ كان في يده بركة، ما أن يضع يده في طعام إلا ينمو ويزداد ليكفى الكثيرين ويزيد . . كان ﷺ لا يدعو لإنسان بـبركة الرزق . . إلا ويزداد رزقه ويفيض عن حاجته . . ما يزرع نخلة إلا وتؤتى ثمارها في نفس العام.

رسول الله ﷺ . . كان ذاهبًا لزيارة أحد الصحابة وهو أبو طلحة . . عندما سمع أبو طلحة صوت رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو قادم إليه . . قال لزوجته أم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا فعرفت فيه الجوع . . فهل عندك من شيء نقدمه له؟ . . فقالت نعم، وأخرجت أقراصًا من شعير ثم أخذت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي وردتني ببعضه «أي جعلت بعضه رداء على الرأس» . . ثم أرسلني إلى رسول الله ﷺ . . فذهبت به ووجدت رسول الله ﷺ ومعه الناس . . فقمت عليهم فقال رسول الله ﷺ: **«أرسلك أبو طلحة؟»** فقلت نعم . . فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام **«قوموا»** فانطلقوا وانطلقت بين أيديهم، حتى إذا جئت أبا طلحة

فأخبرته فقال أبو طلحة يا أم سليم: لقد جاء رسول الله ﷺ بالناس.. وليس عندنا ما نطعمهم.. فقالت الله ورسوله أعلم.. فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ.. فأقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام معه حتى دخل.. وقال رسول الله ﷺ: **«هلمي ما عندك يا أم سليم»**.. فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت.. وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته.. ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء له الله أن يقول.. ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.. ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.. ثم قال: **«ائذن لعشرة»**[1] فأذن لهم فأكلوا فشبعوا.. وهكذا أكل من القوم وشبعوا سبعون أو ثمانون رجلاً.

* * *

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤/ ٢٣٥)، ومسلم (٢٠٤٠)، ومالك (٩٢٨) في الموطأ، والترمذي (٣٦٣٠)، والدارمي (١/ ٢٢) في سننه، والبيهقي (٧/ ٢٣٧) في سننه الكبرى، وأبو نعيم (ص/ ١٤٧) في الدلائل، والبغوى (١٣/ ٣٠١) في شرح السنة.

* قصة مصعب بن عمير مع أخيه أبي عزيز *

مصـعب بن عمير، كـان له أخ اسمه أبو عـزيز، ومصعب وأبو عـزيز كانا مدللين في قـريش، لأبويهمـا غنى ولهما في ذلك الغنـى ترف، ولكن مصعـبًا رضي الله عنه أشرب قلبه حب الإيمان فآمن وهاجر وعاش في عيشة فقر وفاقة، حتى إن رسول الله ﷺ يراه وهو في المدينة يلبس جلد ماعـز ليستر به عورته، فـيقول: **«انظروا إلى هذا الرجل، كـيف فعل بـه الإيمان، والله لقد رأيتـه وما في مكة فـتى أعز منه، ولكن هكذا صنع به الإيمان»**.

يلتقي مصـعب بن عمير بأخيه أبي عـزيز، وأبو عزيز كان لا يزال في صف الكافرين، و بعـد ذلك يأسره أنصاري يقـال له أبو اليسر، فـيمر مـصعب على أخيه وهو في قبضة أبي اليسر الأنصـارى، فيقول لأبي اليسر: «اشدد يدك على أسيـرك، فإن أمه غنيـة وستفديه بمال كـثير» فـيقول له أخـوه أبو عزيز: «أهذه وصاتك بأخيك يا مصعب؟» فيقول له: «هذا أخي دونك».

إذن فحـسب الإيمان ونسبـه هو الحسب الذي يجب أن يعـتد به، ويتـسامى ترجيح ذلك الـنسب على النفس ذاتها، ومـعنى النفس ذاتها أن يجـود الإنسان بنفسه، ويعتبرها رخيصة أمام الصفقة التي ينتظرها؛ لأن الصفقة مربحة.

* * *

* قصة ابن عباس مع قاتل النفس *

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾[١].

هذه الآية هي إحدى ثماني آيات قال ابن عباس رضي الله عنهما: في هذه السورة ـ سورة النساء ـ ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت، وقلنا: إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[٢]. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[٣]. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[٤]. ثم جاءت: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٥].

و«الاجتناب» ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسد المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له.

هذه الآيات الكريمات كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت، لأنها تحمي من حمق الاختيار الذي وجد في الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله، ولو أن الإنسان كان مسيراً ومكرها على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

---

(١) سورة النساء: ٣١.

(٢) سورة النساء: ٢٦.

(٣) سورة النساء: ٢٧.

(٤) سورة النساء: ٢٨.

(٥) سورة النساء: ٣١.

وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغتر بميزته على سائر خلق الله، والميزة التي ميز الله بها الإنسان هى العقل الذي يختار به بين البديلات.

بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة على ما جعلها له بدون اختيار. ونعرف أن الحق قال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(١).

فالإنسان قد ظلم نفسه، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة.

وكل كائن منهم يقوم بعمله آليًّا وارتاح من حمق الاختيار - فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه إن حمق اختياره في شيء فالله يريد أن يبصره، والله يريد أن يتوب عليه، والله يريد أن يخفف عنه.

والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها. كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حمق الاختيار، فيوضح: أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأن عندك مسلكين: كل مسلك يغريك، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله في الآخرة يغري، وشهوة النفس العاجلة تغري.

وما دامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ؛ لذلك يوضح سبحانه: أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار، وأنا الذي وهبت لك هذا الاختيار.

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها، يحب أن يأتي لربه راغبًا محبًّا: لأن هناك فارقًا بين أن يسخر المسخر ولا يستطيع أن

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

ينفلت عما قـدر له أن يعمله، وتلك تؤديها صفـة القدرة لله، لكن لم تعط لله صفة المحـبوبية؛ والله يريد من الإنســان أن يثبت بطاعته المحـبوبية له سبـحانه، فالإنســان المحب لمولاه برغم أنه مـختار أن يفـعل الطاعة أو لا يـفعلها يـنحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1]. كأن الله يعـد تكليفـاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدمـاء من قتل النفس وغيرها، أوضح: إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساويء: فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهـما، والجمعة للجمـعة كفارة، ومن رمضان لرمضـان كفارة، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغـائر لماذا؟ لأنك قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر علـى استبـقاء حيـاتك إلى أن تستـغفـر، فلا تقل: سأفـعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها، وأيضًا تكون كالمستهزيء بربه.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[2]. في السيئات يقول ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وقلنا: إن «الكفر» هو «السـتـر» أي يسترها - ومعنى نسترها يعني لا نعاقب عليها، فالتكفـير إماطة للعقاب، والإحباط إماطة للثواب.

فإن ارتكب إنسان أمرًا يستحق عليه عقابًا وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أي يضع ويستر عنه العقـاب، أما من عمل حسنة ولم يقبلها الله، فـهو يحبطها، إذن فالتكفير - كما قلنا - إماطة للعقاب، و«الإحباط» إماطة للثواب كما في قوله:

﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: ٣١.

(٢) سورة النساء: ٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢١٧.

أي ليس لهم على تلك الأعمال ثواب؛ لأنهم فعلوها وليس في بالهم الذي يعطى الثواب وهو الله. بل كان في بالهم الخلق، لذلك يقول النبي ﷺ: **«فعلت ليقال وقد قيل»**.

أنت فعلت ليقال وقد قيل، وقالوا عنك إنك محسن كبير، قالوا: إنك بنيت المسجد، وقرأوا اللافتة التي وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير.

يقول الحق: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[(١)].

أنت فعلت ليقال وقد قيل؛ ولذلك فالذين عملوا مثل هذا ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر، وإن كان الواحد منهم حريصًا على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهي المسألة، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله ﷺ في شأن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم:

«ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[(٢)].

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة.

والحق يقول: ﴿إن تجتنبوا﴾، و«الاجتناب» هو إعطاء الشيء جانبًا. ولذلك يقولون: فلان أزور جانبه عنى، أي أنه عندما قابلني أعطاني جانبه، والمراد في قوله: «إن تجتنبوا» هو التباعد، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ، لأن الاجتناب معناه ألا يكون مع المنهي عنه في مكان واحد فعندما يقول الحق:

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١/ ١٦٨)، (٢/ ١٣٨)، ومسلم (١٠٣١)، وابن المبارك (٤٧٣) في الزهد، وأحمد (٢/ ٤٣٩)، ومالك (٩٥٢) في الموطأ، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٢٢٢)، وابن خزيمة (٣٥٨).

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[1]. وعندما يقول: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[2].

فاجتنبوه أي: ابتعدوا عنه. لماذا لأن حمى الله محارمه.

وقد قال رسول الله ﷺ: **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يوقعه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه..»**[3].

والحق يقول: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

واجتنابه يكون بألا توجد معه في مكان يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق: اجتنبها.

أي: لا تذهب إليها؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون. فقد تشربها، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها، ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم، هناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون: إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص!! نقول لكل واحد منهم: حسبك أن شرب الخمر قرن بالرجس من الأوثان.

فالحق يقول: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5].

فاجتناب الطاغوت ليس ألا تعبده، بل إياك أن تراه، إذن فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها، بل أن تكون في محضرها.

---

(١) سورة الحج: ٣٠.

(٢) سورة الحج: ٣٠.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة المائدة: ٩٠.

(٥) سورة النحل: ٣٦.

«الكبائر» جميع «كبيرة»، وما دام فيه «كبيرة» يكون هناك مقابل لها وهى «صغيرة» و«أصغر» فالأقل من «الكبيرة»، ليس«صغيرة» فقط؛ لأن فيه «صغيرة»، فيه «أصغر» من «الصغيرة» وهو «اللمم».

ونجد مثلاً أن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد، والتوحيد يربط بين العباد وخالقهم، وهو أهم القضايا العقدية، ومن هنا يتسامح الحق سبحانه في الذنوب الأخرى، ولا يتسامح في نفى وحدانيته.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

هذه من أرجى الآيات في كتاب الله، ولذلك فحينما سئل رسول الله ﷺ: ما موجبات الإيمان؟ أي ما الذي يعطينا الإيمان؟ فقال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**». وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[2].

ونحن نقول: إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضًا.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل الخطأ والقتل العمد فيقول **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا... وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** [النساء: ٩٢] ويسأل سائل: لماذا لم يقل الحق: «وما كان لمسلم» . ونقول: يجب أن ننتبه إلى أن

---

(١) سورة النساء: ٤٨.

(٢) **حديثٌ صحيحٌ**: أخرجه مسلم (٥٥)، وأحمد (١/ ٦٥، ٦٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٨) في مصنفه، وأبو عوانة (١/ ٧)، وابن حبان (٦)، وأبو نعيم (٧/ ١٧٤) في الحلية.

الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبي، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين؛ لأن الإسلام أمر ظاهري، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنسانًا مؤمنًا. لهذا نادى الحق بالنداء الذي يشتمل المظهر والجوهر وهو الإيمان.

وحين يشرع الحق فلابد أن يأتي بالجزاء والعقاب للذي يقتل عمداً. وهو يقول:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١].

والقتل هنا لمؤمن بعمد، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذي لا يدري به القاتل إلا بعد أن يقع. وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم، وليس له كفارة أبداً هكذا يبشع الحق لنا جريمة القتل العمد. لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش في فكرة أن يقتل، ولذلك يقال في القانون «قتل عمد مع سبق الإصرار».

أي أن القاتل قد عاش القتل في تخيله ثم فعله، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الديني، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة، وما دام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله، فلو جاءه الله في باله لتراجع، وما دام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾[٢]. وقالوا في سبب نزول هذه الآية: إن واحداً اسمه مقيس بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام، فوجد أخاه مقتولاً في بني النجار، وهم قوم من الأنصار بالمدينة.

---

(١) سورة النساء: ٩٣.

(٢) سورة النساء: ٩٣.

فلما وجد هشامًا قتيلاً ذهب مقيس إلى سيدنا رسول الله ﷺ وأخبره بالخبر، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مقيس قاتل أخيه، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلاً، ولكننا نؤدي الدية فأعطوه مائة من الإبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتدًا وجعل ينشد:

قتلت به فهرًا وحملت عقله — سراة بني النجار أرباب فارع

حللت به وترى وأدركت ثورتي — وكنت إلى الأوثان أول راجع

فلما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ ذلك أهدر دمه. ومعنى «أهدر دمه» أباح دمه، أي من يقتله لا عقاب عليه، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد «مقيس» متعلقًا بأستار الكعبة ليحتمي بها، فأمر رسول الله ﷺ بقتله[1]، ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[2].

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب: جزاء جهنم، خلود في النار، غضب من الله، لعنة من الله، إعداد من الله لعذاب عظيم. فكأن جهنم ليست كل العذاب؛ ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب ثم إعداد لعذاب عظيم. وهذا ما نستعيذ بالله منه: فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب، وقد يغفل بعض منا عن أن هناك ألوانًا متعددة من العذاب. وفي الحياة نرى إنسانًا يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس.

وهنا وقفة وقف العلماء فيها: هل لهذا القاتل توبة؟ واختلف العلماء في ذلك، فعالم يقول: لا توبة لمثل هذا القاتل.

---

(١) **إسناده ضعيف** جدًا: أخرجه الواحدي (٣٤٦) في أسباب النزول، وفي سنده الكلبي، وهو متهمٌ، وقد أجمعوا على تركه.

(٢) سورة النساء: ٩٣.

وعـالم آخر قـال: لا، هناك توبة. وجاء سـيـدنا ابن العبـاس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله: أللقاتل عمدًا توبة؟ قال ابن العباس: لا.

وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العبـاس: أللقاتل عمدًا توبة؟ فقال ابن العباس: نعم. فـقال جلساؤه: كيف تقول ذلك وقـد سبق أن قلت لا، واليوم تقول نعم.

قال ابن العباس: سائلي أولاً كان يريد أن يقتل عـمدًا، أما سائلي ثانيًا فقد قتل بالفعل، فالأول أرهبته والثاني لم أقنطه من رحمة ربه.

وكيف فـرق ابن العباس بـين الحالتين؟ إنها الفطنة الإيمانـية والبصـيرة التي يبسطها الله على المفتي. فساعة يوجد النبي ﷺ في صحابته يسأله واحد قائلاً: «أي الإسلام خـير»؟ فيـقول صلوات الله وسلامـه عليه: «**تطعم الطعـام وتقرأ السلام على من عـرفت ومن لم تعرف**» ويسأل آخـر فيجيبـه بقوله: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» وهكذا كان عليه الصلاة والـسلام يجيب كل سائل بما يراه أصلح لحاله أو حال المستمع، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم..

ويسأله عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه: أي الأعمال أفضل؟ فـيقول صلوات الله وسلامه عليه: «**الصلاة على ميـقاتها**»[1]. قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: «**أن يسلم الناس من لسانك**».

ونعرف أن آية القتل الـعمد تتطلب المزيد من التفكر حـول نصها ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾[2]. وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد.. بمعنى أن زمن الخـلود لا ينتـهي؟ ولو أن زمن الخلود لا ينـتـهي لما وصف الحق

---

(١) **حـديث صحيح**: أخرجـه البخـاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (١٣٩)، وأبو عـوانة (١/ ٦٤)، وأحمد (١/ ٤١٠، ٤٣٩)، والنسائي (١/ ٢٩٢)، والترمذي (١٧٣)، والطبراني (١٠/ ٢٣) في الكبير.

(٢) سورة النساء: ٩٣.

المكث في النار مرة بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾[١]. ومرة أخرى بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[٢].

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد في ﴿أبدًا﴾ فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد. وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد، وأن ﴿خالدين فيها﴾ بدون تأبيد تفيد التأبيد أيضًا، فمعنى ذلك أن اللفظ «أبدًا» لم يأت بشيء زائد.

والقرآن كلام الله، وكلام الله منزه عن العبث أو التكرار.

إذن.. لابد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً، وأن الخلود أبدًا هو المكث طولاً لا ينتهى، وعلى ذلك يكون لنا فهم. فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى. ثم إن كلمة «خالدين» حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[٣].

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استثنى من الخلود ﴿إلا ما شاء ربك﴾ والاستثناء لابد له من زمن، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد، ولكن الخلود هو زمن طويل، وكذلك يقول في خلود الجنة: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ٨٨.

(٢) سورة النساء: ١٦٩.

(٣) سورة هود: ١٠٥-١٠٧.

(٤) سورة هود: ١٠٨.

وقول الحق: ﴿إِلاَّ ما شَاءَ رَبُّكَ﴾ تفيد أن الخلود عندهم ينتهى. ما دام هناك استثناء؛ فالاستـثناء لابد له من زمن، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيديًا.



* قصة عمرو بن عبيد مع التأبيد *

وعلينا أن نتناول الآيات الخاصة بالتأبيد بهذه الروح، وفي هذه المسألة ـ مسألة الخلود والتأبيد ـ نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المتنسبين إلى العلم: «كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد» وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة .

وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى، ويحكي عنه قيس بن أنس هذه الحكاية: كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي: لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له.

قال: فقرأت الآية: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[1] وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذي جاءه أو الرؤيا التي أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمد، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك.

نقول ذلك لنعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذي علم عليمًا. . ولكن عمرًا ذكر ما جاء في قول الحق: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾. وقال قيس بن أنس: وكنت أصغر الجالسين سنًّا، فقلت له: لو كنت معك لقلت كما قلت: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ وقلت أيضًا:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2].

---

(١) سورة النساء: ٩٣.

(٢) سورة النساء: ٤٨.

قال قيس: فوالله مـا رد على عمرو بن عبيد ما قلت. ومـعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد.

ماذا تفيد هذه؟. تفـيد ألا نأخذ كلمة «خالدين فيهـا» بمعنى التأبيد الذي لا نهاية له؛ لأن الله قد استثنى ألا نأخذ كلمة «خالدين فيها» بمعنى التأبيد الذي لا نهاية له؛ لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى.

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شـرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه «شـبه العمد» أي أنه لا عمد ولا خطأ، كأن يأتي إنسان إنسـانًا آخر ويضربه بآلة لا تقـتل عادة فيـموت مقـتولاً، هنا يكون العمد موجودًا، فالضـارب يضرب، ويمسك بآلة ويضرب بها، وصادف أن تقتل الآلة التي لا تقتل غالبًا، وقال العلماء: القتل معه لابد، فلا قصاص، ولكن فيه دية.



* قصة حنظلة غسيل الملائكة *

إذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل: أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك، وطلبته منه وأعطاك إياه، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث. ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد. ولا تدخل من باب الشقة، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذًا تدخل منه دون أن يراك أحد. وتضع خطة للسرقة. وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد. فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجري لتختبىء وتأخذ الشيء وتكون حريصًا على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام، إذن فجمع المال الحرام عذاب.

وكل من يربى أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذابًا لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات. ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعى. فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر. ومثل هذا الابن لا يطيع أباه، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمنًا إيمانًا صادقًا بالله، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره، ويتمرد دائمًا عليه.

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدوًّا لله ورسوله. وكان ابنه حنظلة مؤمنًا، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلى بالغيظ، وعندما نودى للقتال، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة[1]، بل سارع إلى الحرب مع رسول الله ﷺ واستشهد في

---

(١) ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لذلك غسلته الملائكة». حديث صحيح: أخرجه =

المعركة. ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة، مع أن هذه المسألة تكون سرًّا بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة. ولما كان الشهيد لا يُغسل، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب، رأى الرسول ﷺ ما حدث لحنظلة، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها: ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت: إنه عندما سمع نداء القتال، خرج بدون غُسْل. وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيدًا هو ابن عدو لله ورسوله. وكيف يكون هذا غَيْظًا في قلب الأب.

* * *

= الحاكم (٣/ ٢٠٤)، وصححه وأقره الذهبي، وأبو نعيم، (١/ ٣٥٧) في الحلية، والبيهقي (٤/ ١٥) في سننه الكبرى، و(٣/ ٢٤٦) في دلائل النبوة.

* قصة الابن المؤمن والوالد المنافق *

وقصة أخرى: سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبيّ؛ والده عبد الله بن أبيّ كان زعيم المنافقين في المدينة، وهو الذي انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة. ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبيّ، انظروا إلى الإيمان، فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويقول له: يا رسول الله إن كنتَ آمرًا بقتل أبي فأمرني أنا بقتله؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفي قلبي غِلٌّ[1] عليه. وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله، أليس هذا عذابًا في قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقْمة، أليس هذا عذابًا في الدنيا؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذي ينتظرهم في الآخرة، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التي تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون في خدمة هذا الخليفة، أي: أنه أقبل على عالم كامل من كل شيء؛ معدًّا له إعدادًا فوق قدراته وطاقاته.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي: «**خلقتُ الأشياء من أجلك،وخلقتُك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له**»[2].

أي: لا تشتغل بالنعمة عن المنعم، تمامًا كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه

---

(١) غل: حقد.

(٢) لا أصل له.

ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة. بينما نجد رجلاً آخـر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره عل كرمه ويشيد به، الأول: انشغل بالنعمـة، والثاني: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له.



* قصة الأخوة ومعاوية بن أبي سفيان *

الأخوة نوعان: أخوَّة في الأب القريب، أو أخوّة في الأب البعيد، أي من جنسكم، من آدم؛ فهو إما أخ من الأب القريب، وإمّا أخ من الأب البعيد. وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، رجل بالباب يقول إنه أخوك، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه: ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين؟ وقال له: أدخله، فأدخله. قال معاوية للرجل: أي إخوتي أنت؟!

قال له: أخوك من آدم.

فقال معاوية: رحم مقطوعة - أي أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة - والله لأكونن أول من يصلها.

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه: ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

وأرسل الحق هودًا إلى عاد، لكن قول هود لقوم عاد يأتى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3].

وهنا «قال» فقط من غير الفاء؛ وجاء في قول نوح: «فقال». وهذه دقة الأداء لنتنبه؛ لأن الذي يتكلم إله ورب، فتأتى مرة بـ «فاء» وتأتي مرة بغير «فاء»

---

(١) سورة الأعراف: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف: ٦٥.

رغم أن السياق واحد، والمعنى واحد والرسول رسول، والجماعة هم قوم الرسول. ونعلم أن «الفاء» تقتضي التعقيب، وتفيد الإلحاح عليهم، وهذا توضحه سورة نوح؛ لأن الحق يقول فيها:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾[١].

إذن فالفاء مناسبة هنا، لكن في مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هودًا قال لهم مرة أو اثنتين أو ثلاث مرات، لكن بلا استمرار وإلحاح، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتي في سياق الحديث عنه بـ: «فقال» وألا تأتي في الحديث عن دعوة سيدنا هود. وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح في قوله الحق:

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾[٢].

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهارًا سرًّا وعلانية، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان، لذلك يأتي الحق في أمر دعوة نوح بالفاء التي تدل على المتابعة. أما قوم عاد فلم يأت لهم «بالفاء». بل جاء بـ «قال» :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[٣].

---

(١) سورة نوح: ٥-١٠ :

(٢) سورة العنكبوت: ١٤ .

(٣) سورة الأعراف: ٦٥ .

وقال نوح من قبل:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وفي مسألة قوم عاد قال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

ومع أن الأسلوب واحد والمعاني واحدة، وكان ذلك يقتضى الإنذار، لكن لم يقل الحق ذلك؛ لأن نوحًا كان عنده علم بالعذاب الذي سوف ينزل، لأنها كانت أول تجربة، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب.

* * *

(١) سورة الأعراف: ٥٩.

(٢) سورة الأعراف: ٦٥.

* قصة معاوية مع حاجبه *

وقوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(١).

وكُلُّ التكليفات تأتي مَسْبوقة بـكلمة «كُتِب» والذي كتب هو الله؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به؛ فساعةَ إعـلان إيمانك بالله؛ هى ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به.

وأنت حُـرٌّ في أنْ تؤمـن أو لا تؤمن؛ لكنـك لحظةَ إيمانك بالله تـدخل إلى الالتزام بما يُكّلفك به، وتكون قد دخلت في كتابة التعاقد الإيماني بينك وبين الله.

ولذلك قال الحق سبحانه «كُـتِب» ولم يَقُلْ: «كتبْتُ»؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضي أن تدخل أنت شريكًا فيه، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به.

وسبحانه هنا يقول:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾(٢).

أي: أن العهد الإيماني مُوثَّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام.

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾(٣).

وأوَّل ما أمر به الله أَنْ يُوصَلَ هو صِلَة الرَّحِم؛ أي: أن تَصل ما يربطك بهم

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) سورة الرعد: ٢٠.

(٣) سورة الرعد: ٢١.

نَسَبٌ. والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَل الأنساب؛ فسيدخل كُلُّ المؤمنين في صِلَة الرَّحم؛ لأن كل المؤمنين رَحِم مُتداخل؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصلهم بحكم الرَّحِم؛ وكل مؤمن يصل عشرة مثلك، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي:

«أنا الرحمن؛ خلقت الرَّحم، واشتققتُ لها اسمًا من اسمى، فمَنْ وصلها وَصَلْته؛ ومَنْ قطعها قطَعْتُه»[1].

وقد رَوَيْتُ من قَبْل قصة عن معاوية ﷺ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول: إنه أخوك يا أمير المؤمنين.

ولابد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبي سفيان لا إخوةَ له، لكنه لم يَشأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل؛ وقال معاوية لحاجبه: ألاَ تعرف إخوتي؟ فقال الحاجب: هكذا يقول الرجل. فأذنَ معاويةُ للرجل بالدخول؛ وسأله: أي إخوتي أنت؟ أجاب الرجل: أخوك من آدم. قال معاوية: رَحِم مقطوعة؛ والله لأكون أوَّلَ من يَصلها.

* * *

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (١/ ١٩١، ١٩٤)، وأبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣)، وابن حبان (١/ ٣٣٥).

* قصة الفضيل مع أهل خراسان *

التقى الفضيل بن عياض بجماعة لهم عنده حاجة؛ وقال لهم: من أين أنتم؟ قالوا: من خُراسان. قال: اتقوا الله، وكونوا من حيث شئْتم.

وقد أمرنا سبحانه أن نَصلَ الأهل أولاً؛ ثم الأقارب؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد؛ ثم الجار، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق؛ ليستطرق النافع لغير النافع، والقادر لغير القادر، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلك الله.

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومِنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته:

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(١).

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية: قُرْباك أنت في قُرْباك.

وقال البعض الآخر: لا، القربى تكون في الرسول ﷺ؛ لأن القرآن قال في محمد ﷺ:

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(٢).

وهكذا تكون قرابة الرسول أَوْلَى لكل مؤمن من قرابته الخاصة.

ونجد قول الحق سبحانه في وصف أُولِى الألباب:

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾(٣).

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيبَ بمكروه؛ ولذلك جعل الحق هنا

(١) سورة الشورى: ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٦.

(٣) سورة الرعد: ٢١.

الخشية منه سبحانه؛ أي: أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم؛ خوف إجلال وتعظيم.

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب؛ وأنت تقول: خِفْتُ زيدًا، وتقول: خِفْتُ المرض، ففيه شيء تخافه؛ وشيء يُوقِع عليه ما تخافه.

وأولوا الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم؛ فيدفعهم هذا الخوف على أَنْ يَصِلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل، وأنْ يبتعدوا عن أي شيء يغضبه.

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب؛ ونعوذ بالله من ذلك، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له.

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولي الألباب فيقول:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1].

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل؛ الذين يُوفون بالعهد الإيماني بمجرد إيمانهم بالله في كُلِّيات العقيدة.

* * *

(١) سورة الرعد: ٢٢.

* قصة عمرو بن الجموح البائع والمشترى الله *

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[١].

فالمشتري الله، والمشترى نفوس المؤمنين، والثمن الجنة، وما غاية الإنسان إلا أن يعيش سعيدًا ممتعًا، فإذا ما كان الثمن الجنة فليتعجلها، كما تعجلها الصحابي الذي قال لـرسول الله: «أليس بيني وبين الجنة إلا أن أذهب إلى هؤلاء أقـاتلهم فيقتلونني؟» . قال: «**نعم**».

وكان في فـمه تمرات، فـاستـبطأ أن يظل حيًّـا إلى أن يمضغ هذه التـمرات وألقى بالتمرات خارجه، وخاض المعركة فقتل.

وأيضًا جمال الصفقة وإغـراؤها يجعل المعذور في الإسلام عن الجهاد يتطوع هو بالجهاد.

هـذا هو عـمرو بن الجمـوح، رجل عذره الله لأنه أعـرج، فيقـول لأبنائه: لابـد أن أشـهد المعـركة، فيـقولون له: «يا أبانا نحن نكفيك المـعركة» فيـقول: «لا، ولابـد أن أشـهد المعركـة» فيصر أبنـاؤه عليه لـمنعـه، فيـذهب إلى رسول الله ﷺ فيـقـول له: «يا رسـول الله: إن أبنائـي يمنعـونـني أن أخوض المعـركة» فيقول له رسـول الله: «**إن الله قد عـذرك**»، أي لأنـه ليس على الأعمى حرج ولا على الأعـرج حـرج، فـيـقـول له: «والله يا رسـول الله، إني أحب أن أطأ بعرجـتـي هذه الجـنـة» . فـيـبتسم رسول الله، ويـطلب من أبنائه أن يسـمحـوا له.

(١) سورة التوبة: ١١١.

فهـذا رجل معذور بحكم الإسلام والشـرع، ومع ذلك استطاب الصفـقة، فأحب أن ينتهز هذه الصفقة ليأخذها.

لماذا؟

لأنه عاقل، فـهو سيـموت حارب أم لم يـحارب، فالموت لن يتـرك أحدًا، فلماذا لا يموت بثمن غـال؟ ولماذا لا يموت بصفقة رابحة تجعله هو مـيتًا في نظر الناس، ولكنه حي إلى أن تقوم الساعة، حي يرزق؟

فأي عقلاء هؤلاء؟ هم الذين يوازنون في الصفقـات، ويستهينون بهذه الحياة وبزخارفـها، حين يعيش المؤمـن في جو عقـائدي، وحين يتأكد أن الذي عـقد الصفقة معه هو ربه الذي يصـدق وعده يجب عليه أن يتهافت على هذا الأمر، ويجب عليـه ألا يدخر وسعـه، وأن يعتـقد أنه سيـموت، شهـد معـركة أم لم يشهد..



* قصة الشاب علقمة وعقوق الأم *

مرض أحد شباب الصحابة واسمه علقمة.. اشتد مرضه وأرسلت زوجته إلى رسول الله ﷺ أن زوجي علقمة يعاني سكرات الموت. فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام عماراً وبلالاً وصهيبًا. وقال لهم: «**لقنوه الشهادة..**» فجاءوا إليه فوجدوه في النزع الأخير، فجعلوا يلقنونه الشهادة فلا يستطيع النطق بها. فعادوا إلى النبي ﷺ يخبرونه بذلك.. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام «**هل من أبويه أحد حي؟**» قيل: يا رسول الله له أم كبيرة السن، فأرسل إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام من يقول لها: إن قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ فاذهبي إليه، وإلا فانتظريه في المنزل حتى يأتيك، فقالت المرأة: نفسي لنفسه الفداء.. أنا أحق بإتيانه.

ثم قامت فتوكأت على عصا وأتت رسول الله ﷺ وسلمت فردَّ عليها السلام وقال لها الرسول ﷺ: «**يا أم علقمة أصدقيني القول.. وإن كذبتني جاء الوحي من الله بالحقيقة.. كيف كان حال ولدك علقمة؟**» قالت: يا رسول الله كان كثير الصلاة.. كثير الصيام.. كثير الصدقة.. قال رسول الله ﷺ: «**فما حالك معه؟**» قالت: يا رسول الله أنا عليه ساخطة.. قال: «**ولِمَ؟**» قالت: يا رسول الله كان يؤثر زوجته عليّ.. فقال رسول الله ﷺ: «**إن سخط أم علقمة على ولدها حجب لسان علقمة عن الشهادة**».

ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا بلال انطلق واجمع لي حطبًا كثيراً**».. فقالت أم علقمة: وما تصنع به يا رسول الله؟ قال: «**سنحرق ابنك في النار**». فقالت أم علقمة. يا رسول الله إنه ولدي، ولا يحتمل قلبي أن يحرق بالنار، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**يا أم علقمة عذاب الله أشد وأبقى، ونار الدنيا**

أهون من نار الآخرة. إن أردت أن يغفر الله له فارضيْ عنه، فوالذي نفسي بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دمت عليه ساخطة». قالت: يا رسول الله فإني أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرني من المسلمين أني قد رضيت عن ولدي علقمة. فقال رسول الله ﷺ : **«انطلق إليه يا بلال، فانظر هل يستطيع أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله أم لا، فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس في قلبها حياء مني».**

وانطلق بلال فسمع علقمة.. وهو ينطق بالشهادة. ومات علقمة في يومه، فحضره رسول الله ﷺ وحضر دفنه وصلى عليه.. ثم قام على قبره وقال: **«يا معشر المهاجرين والأنصار.. من فضّل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله - عز وجل -، ويحسن إليها ويطلب رضاها. فرضى الله - عز وجل - في رضاها، وسخط الله - عز وجل - في سخطها»**[1].

وصعد رسول الله ﷺ المنبر.. فلما رقى درجة قال: «آمين».. ثم رقى أخرى فقال: «آمين». ثم رقى درجة ثالثة فقال: «آمين».. ثم قال:

«أتاني جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد تعس من أدرك رمضان ولم يغفر له.. قل: آمين. فقلت: آمين. قال جبريل: تعس من أدرك والده عند الكبر ولم يدخل بهما الجنة قل:آمين. فقلت: آمين.. قال جبريل: تعس من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليك قل: آمين. فقلت: آمين»[2].

* * *

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه البيهقي (٧٨٩٢) في شعب الإيمان، والخرائطي (٢٥٠) في مساويء الأخلاق.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، والحاكم (١/ ٥٤٩) وصححه، وأقره الذهبي.

* قصة شجاعة عكرمة بن أبي جهل *

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾(١).

أي: أننا قادرون على أن نُريك شيئًا مما وعدناهم به من العذاب، لكنه ليس عذابَ الاستئصال؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك - حتى الكافر منها - بأن عافاها من هذا العذاب؛ لأنه يأتي على الكافرين فلا يُبقي منهم أحدًا، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله. فهَب أن عذاب الاستئصال نزل بهم في بدر مثلاً، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر؟

إذن: لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا عَلِم الله تعالى أنه لا فائدة منهم، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم، كما حدث مع قوم نوح، ألاَ ترى نوحًا - عليه السلام - يقول عنهم: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٢).

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْيٍ من الله؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التي لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورءوس الضلال، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبْلُون في الإسلام بلاءً حَسَنًا.

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل، لكن لله تعالى تدبيراً آخر، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة.

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٥.

(٢) سورة نوح: ٢٧.

فعكرمة بن أبي جهل يُظهِر شجاعة نادرة في موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه في سبيل الله: أهذه ميتة تُرضِي عني الله ورسوله؟ هذا في يوم الخندمة الذي قال فيه الشاعر:

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخَنْدَمه ... إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عكْرِمَه

ولحقتْنَا بالسُّيوف المسلمه ... يَفْلقْنَ كُلَّ سَاعد وجُمْجُمَه

ضَرْبًا فَلاَ تُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَه ... لَهُمْ نَهِيتٌ حَوْلَهُ وَحَمْحَمَه

لَمْ تنْطِقي باللَّوْمِ أدْنى كِلمَه

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعًا.

فقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[1].

«ادفع...» تدل على المدافعة يعني: أمامك خصم يهاجمك، يريد أن يؤذيك، وعليك أن تدفعه عنك، لكن دَفْع بالتي هى أحسن أي: بالطريقة أو الحال التي هى أحسن، فإنْ أخذك بالشدة فقابِلْه باللين، فهذه هى الطريقة التي تجمع الناس على دعوتك وتؤلِّفهم من حولك.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾[2].

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفع بالتي هى أحسن، ومن ذلك الموقف الذي حدث من رسول الله ﷺ يوم الفتح، يوم أن مكّنه ربه من رقاب أعدائه، ووقف أمامهم يقول: **«يا معشر قريش، ما تظنون أنِّي فاعل بكم؟»** قالوا: خيراً، أخ كريم وابنُ أخ كريم، قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[3].

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سبق تخريجه.

ونلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم، وحدَّثوه بما يُحنِّن قلبه، ولقّنوه ما ينتفعون هم به: أخ كريم وابن أخ كريم، ولم يقولوا مثلاً: أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء.

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله ﷺ.

* * *

* قصة فضالة المبغض للنبوة *

وقصة فضالة الذي كان يبغض رسول الله ﷺ، حتى قال قبل الفتح: والله ما أحد أبغض إليَّ من محمد، وقد زاد غيظه من رسول الله ﷺ حينما رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام، فأراد أنْ يشقَّ الصفوف إليه ليقتله، وبعدها قال: «فوالله، ما وضعتُ يدي عليه حتى كان أحب خَلْق الله إليَّ»[١].

لكن ماذا ندفع؟ ندفع (السيئة). ونلحظ هنا أن ربنا - تبارك وتعالى - يدعونا أن ندفع السيئة بالتي هى أحسن، لا بالحسن؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة، إنما ربك يريد أن يرتقي بك في هذا المجال، فيقول لك: ادفع السيئة بالأحسن.

وفي موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيماني: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢]. ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله، وليست ممّنْ عاملْتَه هذه المعاملة؛ لأن الله تعالى يقول: «كَأَنَّهُ ...» ولم يقل: يصبح لك وليًّا حميمًا.

ذلك لأنك حين تدفع بالتي هى أحسن يخجل منك صاحبك، ويندم على إساءته لك، ويحاول أنْ يُعوِّضك عنها فيما بعد، وألاَّ يعود إلى مثلها مرة أخرى، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى وليًّا حميمًا، إنما هو ولى وحميم؛ لأنه كان سببًا في أنْ يأخذك ربك إلى جانبه، ويتولاك ويدافع عنك.

* * *

(١) حديثٌ ضعيفٌ: انظر: الإصابة (٦٩٨٨).

(٢) سورة فصلت: ٣٤.

* قصة ورقة بن نوفل وبدء الوحي *

لما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ في أول الوحي فأجهده، فذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله، ومع ذلك أخذته إلى ورقة ابن نوفل، وكان على علم بالكتب السابقة، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال: إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى وليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك، فقال ﷺ: «أوَ مُخرجِيّ هم؟» قال: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[1].

ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفًا قلقًا أن يكون هذا شيئًا من الشيطان، فتُطمئنه السيدة خديجة، فهذا لا يعقل مع رسول الله، لذلك تقول له: «إنك لتصلُ الرحم، وتُكسِب المعدوم، وتحمل الكَلّ[2]، وتعين على نوائب[3] الدهر، و الله لن يخذلك الله أبدًا».

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة في الإسلام؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صِدْقه بعد البعثة؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين، حتى قال بعض العارفين: خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ؛ لأنه في هذه السِّن كان في حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله، وقد قامت خديجة رضي الله عنها فعلاً بدور الأم لرسول الله ﷺ فاحتضنته، وطمأنته ووقفت إلى جواره في أشدِّ الأوقات وأحرجها.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١/ ٤)، (٦/ ٢١٥)، ومسلم (٢٥٢)، وأحمد (٦/ ٢٣٣)، وأبو عوانة (١/ ١١١)، والبيهقي (٧/ ٥١)، (٩/ ٦) في سننه الكبرى، والطبري (٣٠/ ١٦٢) في تفسيره.

(٢) الكلُّ: الضعيف.

(٣) النوائب: الحوائج، أو الشدائد.

* قصة توبة الجلاس بن سويد *

الله لا يُثَنَّى معه أحد؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهنا نرى أيضًا أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في الرضا؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثَنَّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما في قلوبهم؛ لم تتخلّ رحمته عنهم؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[2]، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنبًا مصيره للنار. وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل، فلابد أن يستشرى[3] في الذنب، ويزداد في الإثم، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة. ولكن حين يعلم أي إنسان يخطيء أن باب التوبة مفتوح؛ فهو لا يستشري في الإثم، ثم إن الذي يعاني من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل، فإذا وُجد لص خطير مثلاً؛ فالذي يعاني من سرقاته هو المجتمع. وإذا وُجد قاتل محترف فالذي يعاني من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع.

إذن: ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء

(١) سورة التوبة: ٦٢.

(٢) سورة التوبة: ٧٤.

(٣) يستشرى: يواصل.

في إجرامه. وإذا نظرت إلى الآية الكريمة، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق، وبيّن للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها؛ فتح للمنافقين باب التوبة، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين: يا رسول الله. لقد عرض الله عليّ التوبة. والله قد قلت ما قاله عامر، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عني. وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[١].

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله، فقد قال سبحانه:

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[٢]. إذن: فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم، لا في الآخرة فقط، ولكن في الدنيا والآخرة. وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة، وعذاب الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[٣]. قد يفهمه بعض الناس فهمًا خاطئًا، بأن العذاب في الدنيا فقط، ولكن هناك أرض في الدنيا؛ وأرض في الآخرة هى أرض المعاد؛ مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾[٤].

إذن: فكلمة: ﴿الأرض﴾ تعطينا صورتين في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[٥] يوضح لنا أن

---

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، كما في الدر المنثور (٣/ ٢٥٣)، والواحدي (٥٢٦) في أسباب النزول، كلاهما عن السدي مرسلاً.

(٢) سورة التوبة: ٧٤.

(٣) سورة التوبة: ٧٤.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٥) سورة التوبة: ٧٤.

الولي هو القريب منك الذي تفزع إليـه عند الشدائد، ولا تفزع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصـرك، أو لمن هو أقوى منك، أمـا النصيـر فهـو من تطلب منه النصـرة. وقد يكون من البـعيـدين عنك ولا ترتبط به ولاية، إذن: فـلا الولىّ القريب منك، ولا الغريب الذي قـد تفزع إليه لينصرك يستطيعـان أن يفعلا لك شيئًا، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق.



* قصة ثعلبة بن حاطب والغنم *

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين، فيقول:

﴿ومنهم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

«ومنهم» أي: من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم في هذه السورة الكريمة، فقال: ﴿ومنهم﴾، و﴿ومنهم﴾ و﴿ومنهم﴾، واختلفت روايات المفسرين والرواة في مدلول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾. فقال بعضهم: إنه ثعلبة بن حاطب، وقال آخرون: إنه مُعتِّب بن قشير، وقال رأى ثالث: إنه الجد بن قيس، وقال قائل رابع: إنه حاطب بن أبي بلتعة. كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ومنهم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢]. ولم يقل الحق: «فلما آتيناه من فضلنا بخل به» بحيث ينطبق على حالة واحدة، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه:

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾[٣].

إذن: فهناك جمع. والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية الكريمة نزلت في أفراد متعددين، وسبحانه يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾[٤]

---

(١) سورة التوبة: ٧٥.

(٢) سورة التوبة: ٧٥.

(٣) سورة التوبة: ٧٦.

(٤) سورة التوبة: ٧٥.

فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله؟ نقول: لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم، فهم قد أعلنوا إسلامهم، وكان الواحد منهم يقول: أعاهد الله على كذا وكذا؛ تمامًا كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد في الصف الأول للمصلين؛ فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهرًا؟ لم يمنعه أحد، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه.

وقصة الآية: إن رجلاً فقيرًا من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: إني فقير مملق - أي شديد الفقر - فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ دنياي. وبفطنة النبوة قال ﷺ: «**إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه**»[1]، فعاوده وقال: ادع الله لي أن يوسّع عليّ. فدعا له فوسّع الله عليه.

ولسائل أن يسأل: كيف يستجيب الرسول ﷺ ويدعو لمنافق؟ وإذا كان الرسول ﷺ قد دعا ترضية له وتأليفًا لقلبه؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب منافق منه؟

ونقول: ربما كان ذلك؛ لأن المنافق أراد أن يجرب: أرسول الله ﷺ رسول حق، بحيث إن دعا الله أجيب؟

فلما دعا رسول الله؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه: نعم هو رسول الله؛ وإن دعا لأي أحد يُجِبْه الله، فتكون هذه للنبي ﷺ.

فلما دعا رسول الله لثعلبة، أو للجد بن قيس، أو لحاطب بن أبي بلتعة؛ استجاب الله لدعاء رسوله، وأعطى مَنْ سأله الدعاء مالاً وفيرًا، وقالوا: ولقد تكاثر مال ثعلبة، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت حتى ضاقت بها شعَاب[2] المدينة؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال، وإلى الصحراء الواسعة،

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٤)، والواحدي (٥٣٥) في أسباب النزول.

(٢) شعاب: أودية.

فامتلأت، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة؛ فلما كثرت كثرة فاحشة؛ شغلته أيضًا عن صلاة الجمعة. وفي ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له. إذن: فكل الأمر إنما جاء تأييدًا لمنطق الرسول معهم؛ حتى يُسفِّههم في أنهم نافقوا في الإسلام.

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ، فقالوا: إنه في الشعاب شغله ماله. فقال: **«يا ويح ثعلبة»**. وأرسل إليه عامل الصدقة[1]؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال: ﴿**لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾[2]. فذهب عامل الصدقة إليه، فلما قال له: هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك. قال: أهي أخت الجزية؟ وذكَّره عامل الصدقة: أنت الذي عاهدت، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين، فما لك لا توفى بالعهد. ورد ثعلبة على عامل الصدقة: اذهب حتى أرى رأيي.

إذن: هو قد عاهد الله، ودعا رسول الله، واستجاب الله له، وكثرت أمواله، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه في قوله: **«قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه»**، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة. قال ﷺ: **«ويح ثعلبة»**. فلما علم ثعلبة أن قرآنًا قد نزل فيه، انزعج انزعاجًا شديدًا، وأسرع إلى رسول الله ﷺ، وعرض عليه الزكاة. فلم يقبلها رسول الله منه، فأخذ يتردد عليه للقبول، فلم يقبلها رسول الله منه. لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله في غنى عن مالك يا ثعلبة.

فلما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة

---

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه البغوي (٣/ ١٢٥) في تفسيره، والطبري (١٠/ ١٣١) في تفسيره، والواحدي (١٧١) في تفسيره أسباب النزول.

(٢) سورة التوبة: ٧٥.

عليه كلها إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر.

لما توفى أبو بكر جاء إلى عمر، فقال عمر مقالة أبي بكر. وجاء لعثمان، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك في عهد عثمان.

﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾[1]، وكلمة «لئن» قَسَم، والقَسَم هو صورة العهد، فكأنه قال: أقسم بالله إن آتاني الله مالاً لأفعلنَّ كذا. وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام في جواب القَسَم «لنصدقن» و«الصدقة» هى الصدقة الواجبة أي الزكاة، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]. أي: نزيد في التطوعات، والمروءة، والأريحية، وكل ما يدل على الصلاح.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3].

ولله عطاءان: عطاء الأسباب، وعطاء التفضل. و«عطاء الأسباب» يتمثل في أن يَجدَّ الإنسان في أي عمل من الأعمال؛ فيعطيه الله ثمرة عمله؛ مؤمنًا كان أو كافرًا؛ طائعًا أو عاصيًا؛ لأن الإنسان قد أخذ الأسباب وأتقنها، ولذلك تجد بعضًا من الكافرين بالله وهم يعيشون في سعة؛ لأنهم يحسنون الأسباب، وما داموا قد أحسنوا الأسباب، وهم عبيد الله أيضًا، وسبحانه هو الذي استدعاهم للوجود، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب، ولا تضِنّ عليهم؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، وعلى الطائع والعاصي، والمطر ينزل على الأرض. وكذلك كل شيء في الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون، إذن فهذا عطاء الأسباب.

---

(١) سورة التوبة: ٧٥.

(٢) سورة التوبة: ٧٥.

(٣) سورة التوبة: ٧٦.

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل في عطاء الأسباب، كمن يسير في طريق مجهول فيجد كنزًا، أو أن ثمار محصوله لا يأتي عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول. ويبارك له الحق سبحانه في بيع محصوله، ويبارك له في رزقه منه فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله. وهذا كله اسمه عطاء الفضل. وعطاء الأسباب عَامٌ للناس جميعًا. أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[1] دليل على أن الزرق الذي جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها. بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله. فالتكاثر الذي حدث في أغنام ثعلبة لم يكن تكاثرًا بالأسباب فقط، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتي بأكثر من وليد، والعشب الذي ترعاه يُدِرّ كمية كبيرة من اللبن.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ ما هو البخل؟ هناك في اللغة أسماء للامتناع عن العطاء، فهناك بُخْل، وشُح، وكزازة، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شيء، لكن منازل العطاء والبخل تختلف، بمعنى أن هناك إنسانًا لا يعطي إلا من سأله؛ تلك منزلة، وإنسانًا آخر لا يعطى كل من سأله، بل يعطى من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه، كأن يقول: ولدى مريض، أو احترق بيتي، فالسائل هنا لا يسأل فقط، ولكنه يجيء بعلة السؤال مثيرة للعواطف. وهناك من يعطي بغير سؤال.

هى إذن: ثلاث مراحل للعطاء؛ واحد يعطي من يراه هكذا؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل، وهذه منزلة من منازل القرب من الله، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عند خلق الله. بل إن هناك أناسًا يعاتبون

---

(١) سورة التوبة: ٧٦.

أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة؛ كالرجل الذي ذهب فطرق الباب، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئًا من مال وأعطاه للسائل، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه، ولكن الزوج الذي أعطى مالاً رجع يبكي. فقالت له: وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه؟ فقال: يبكيني أنني تركته ليسألني، أي: أنه يبكي لأنه لم يملك فِطْنةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطي المحتاجين بغير سؤال.

إذن: فواحد يعطي عن مسألة؛ تلك مرتبة، وهناك من يعطي من غير مسألة، بل يعطي عن فضل عنده، أي: يملك الكثير ويعطي منه. وثالث: يعطي نصف ما عنده؛ يقاسمه فيما يملك، أو يعطي أكثر ما عنده حسب ما ينقدح في ذهنه من حاجة الإنسان المعطى.

هى إذن ثلاث مراحل: رجل يعطى من غير سؤال، ورجل يعطي بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة، ورجل يعطى بمجرد السؤال.

فمن هو البخيل؟

أفظع درجة للبخل؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهييج العواطف، ومع ذلك لا يرق قلبه، هذا هو البخيل. ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(١).

* * *

(١) سورة التوبة: ٧٦.

* قصة ابن أم مكتوم وصناديد قريش *

النبي ﷺ لم يحل ما حـرم الله بل حرم على نفسـه ما أحل الله له، وهذا ضد مصلحته، وكأن الحق يسائله: لماذا ترهق نفسك؟. إذن: فهذا عتب لمصلحة النبي ﷺ ، وأيضًا حين جاء ابن أم مكتوم الأعـمى يسأل رسول الله في أمر من أمور الدين، وكان ذلك في حضـور صناديد قريش، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون، يريد أن يلين قلوبهم، وترك ابن أم مكتوم؛ فنزل القول الحق:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[(١)].

وابن أم مكتوم جـاء ليسـتفسـر عن أمر إيماني، ولن يجـادل مثلمـا يجادل صناديد قريش، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذي يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله؟. إذن: العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ...﴾[(٢)].

ثم جاء هنا في الآية بالمهاجريـن والأنصار معطوفين على رسول الله، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهـاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه؛ فلا تحرُّج.

* * *

(١) سورة عبس: ١، ٢.

(٢) سورة التوبة: ٤٣.

* قصة أبا خيثمة وساعة العسرة *

قال الحق: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾[١]. ويزيغ: يميل، أي: يترك ميدان المعركة كله؛ لأنها كانت معركة في ساعة العسرة، ومعنى العسرة الضيق الشديد، فالمسافة طويلة، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم، والجو حارٌّ، وليس عندهم رواحل[٢] كافية، فكل عشرة كان معهم بعير واحد، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثاني، ثم الثالث، وهكذا، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذي توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً، وهكذا إلى أن تصير على النواة، وكان الشعير قد أصابه السوس، وبلغ منه السوس أن تعفن، وقال من شهد المعركة: «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب في العودة. ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن: فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم. وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة، ولذلك تنبأ بالخواطر التي كانت في نواياهم ومنهم أيضًا من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبي خيثمة الذي بقي من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين[٣]، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء، وقد طَهَتْ كل منهما طعامًا، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة، والثمر المدلَّى، فمسّته نفحة من صفاء

---

(١) سورة التوبة: ١١٧.

(٢) رواحل: جمع راحلة، وهو البعير القادر على تحمل المشاق.

(٣) العريش: الخيمة داخل البستان.

النفس؛ فقال: «رسول الله في الفيح - أي الحرارة الشديدة جدًّا - والريح، والقرّ والبرد، وأنا هنا في ظل بارد، وطعام مطهوّ، وامرأتين حسناوين، وعريش وثير[1]، والله ما ذلك بالنَّصَفة لك يا رسول الله، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ . فقال صحابة رسول الله: يا رسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل. فنظر رسول الله ﷺ وقال: «**كن أبا خيثمة**»[2]، فكان أبا خيثمة، هذا معنى قوله الحق:

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [3].

وفي واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضًا على آخرين اعترفوا بذنوبهم، فتاب الحق عليهم حين قال:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [4].

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ [5].

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: ما بَتّ الله سبحانه في أمرهم بشيء؛ فلابد من الانتظار إلى أن يأتي أمر الله، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتي قول الله. وتاب أيضًا على الثلاثة الذين خلفوا، في قوله سبحانه:

---

(١) وثيز: ناعم.

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم (التوبة/ ٥٣)، والطبراني (١٩/ ٤٣، ٨٥) في الكبير، والبغوى (٣/ ١٦٠) في تفسيره، والطبري (١١/ ٤٣) في تفسيره، والبيهقي (٥/ ٢٢٣، ٢٢٦) في دلائل النبوة.

(٣) سورة التوبة: ١١٧.

(٤) سورة التوبة: ١٠٢.

(٥) سورة التوبة: ١٠٦.

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحدًا قال لهم: اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا. إنما (خُلِّفُوا) معناها: لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر في غيرهم، بل قال الحق فيهم من قبل: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾[٢]، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلابد من الانتظار.

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٣].

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذي يجلس فيه، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك. ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق في كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكانًا يذهب إليه، وهذا معناه أن الكرب الذي يحيطهم قد عَمَّ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه.

والحق يقول عنهم: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾[٤] أي: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم أيضًا، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتواني[٥]، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم،

---

(١) سورة التوبة: ١١٨.

(٢) سورة التوبة: ١٠٦.

(٣) سورة التوبة: ١١٨.

(٤) سورة التوبة: ١١٨.

(٥) التواني: التباطؤ.

فكان كعب بن مالك يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد، ويتسوَّر[1] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه، فلا ينظرون إليه.

وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء، حتى تعدى إلى نسائهم، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم هكذا بلغ العزل مبلغًا شديدًا ودقيقًا، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع، ثم في الأقارب، ثم في خصوصيات السكن وهى المرأة، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية، رجل مريض ضعيف، وأنا أستأذنك في أن أصنع له ما يقيمه، قال لها: «**ولكن لا يقربنك**». قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه، و قالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك.

قال: إن هلالاً رجل شيخ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب؟ والله لا أذهب له أبدًا.

وظل الثلاثة في حصار نفسي ومجتمعي لمدة خمسين يومًا إلى أن جاء الله بالتوبة، وفي هذا تمحيص[2] لهم، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً: «لم أكن قط أقوى ولا أيسر منِّي حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة». أي: أنه لم يكن له عذر يمنعه.

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه، فيأتي واحد من جبل سَلْع فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك. فقد أنزل الله فيك قرآنًا وأنه تاب عليك.

---

(١) يتسور: يرتقي إلى موضع عالٍ كالسور.

(٢) تمحيص: اختبار.

قال كعب: فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشَّرني إلا ثوبيّ فخلعتهما وأعطيتهما له، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ

وقال: يا رسول الله، إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي - الذي سبَّب لي هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ[1].

إذن: فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة لغيرهم. فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق:

﴿ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ... ﴾[2].

أي: أن أحدًا لا يجير إلا الله، وسبحانه يجير من نفسه. كيف؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبدًا؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه، ولكنك تلجأ إلى الله ليحميك من الله، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال، وتتمثل صفات الجلال في أنه: قهار، وجبار، ومنتقم، وشديد البطش، إلى آخر تلك الصفات. وفي الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور، ورحيم، وغيرها، فإذا ما أذنب الإنسان ذنبًا، فالمجال في هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

* * *

(١) **حديثٌ صحيحٌ**: أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) سورة التوبة: ١١٨.

* قصة خبيب بن عدي والخشبة *

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[١].

مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إننا قد أسلمنا ونريد أن ترسل إلينا قومًا ليعلمونا الإسلام. فأرسل لهم رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن، فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلوهم إلا خبيب بن عدي، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابي آخر اسمه زيد بن الدَّثِنَّة، لكن خبيبًا وقع في الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذي قتل أبا عقبة الحارث في غزوة بدر فباعوه لابن أبي عقبة ليقتله مقابل أبيه، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حَيًّا، فلما تركه مصلوبًا على الخشبة، قال رسول الله ﷺ وهو في المدينة: «من ينزل خبيبًا عن خشبته وله الجنة؟»[٢].

قال الزبير: أنا يا رسول الله.

وقال المقداد: وأنا معه يا رسول الله.

فذهبا إلى مكة فوجدا خبيبًا على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه، فانتهزا منهم غفلتهم وذهبا إلى الخشبة وانتزعا خبيبًا وأخذاه، فلما أفاق القوم لم يجدوا خبيبًا فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطفوه، فرآهم الزبير، فألقي خبيبًا على الأرض، ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتلعه فسُمِّي بليع الأرض. وبعد ذلك التفت إليهم ونزع عمامته التي كان يتخفى وراءها وقال: أنا الزبير بن العوام، وأمي صفية بنت عبد المطلب، وصاحبي المقداد، فإن شئتم

(١) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٢) صح الحديث بألفاظ أخرى. انظر: أحمد (٢/ ٢٩٤، ٢٩٥) والبخاري (٣٠٤٥)، (٣٩٨٩)، وأبو داود (٢٦٦٠).

فاضلتكم - يعني يفاخر كل منا بنفسه - وإن شئتم نازلتكم - يعني قاتلتكم - وإن شئتم فانصرفوا، فقالوا: ننصرف، وانصرفوا، فلما ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله ﷺ بشرهم بالجنة التي صار إليها خبيب.

إذن.. فقد باع خبيب نفسه بالجنة. وعلى ذلك فإن ذهبت بسبب نزول الآية إلى أبي يحيى صهيب بن سنان الرومي تكون «شرى» بمعنى اشترى، وإن ذهبت بسبب النزول إلى خبيب فتكون بمعنى: باع. وهكذا نجد أن اللفظ الواحد في القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع.

وخبيب بن عدي هذا قالت فيه ماويّة ابنة الرجل الذي اشتراه ليعطيه لعقبة ليقتله مقابل أبيه، قالت: والله لقد رأيت خبيبًا يأكل قطفًا من العنب كرأس الإنسان! ووالله ما في مكة حائط - بستان - ولا عنب وإنما هو رزق ساقه الله له.

ولما جاءوا ليقتلوه قال: أنظروني أُصَلِ ركعتين. فصلى ركعتين ونظر إلى القوم وقال: والله لولا أني أخاف أن تقولوا إنه زاد في الصلاة لكي نبطيء بقتله لزدت. وقال قبل أن يقتلوه: اللهم احصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا. ثم هتف وقال:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعى

وكان ذلك آخر ما قاله.

ويقول الحق: ﴿**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[1]. وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد؟ ما دام الله رءوفًا بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمرًا كليًّا في كل مسلم، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية، لأنه لا يريد أن يضحي كل المسلمين بأنفسهم، وإنما يريد أن يستبقي منا أناسًا يحملون الدعوة.

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٧.

* قصة الثلاثة(*) الذين خلفوا *

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ المُنَافِقِينَ.. وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾(١).

«اللاعنون» تضم الناس وغير الناس من الكائنات الأخرى، كأن كل من في الوجود يشترك في لعنهم، وعلى سبيل المثال، إذا حبس الله الماء عن قوم لعصيانهم، فالنبات يلعنهم لأنه حرم من الماء، وتلعنهم الحيوانات لأنها حُرمت من الماء، وتلعنهم الأمكنة لأنهم خالفوا ما عليه الأمكنة من التسبيح لله. أما لعنة الآخرة حيث لا ري لنبات أو حيوان؛ فسيكون اللعن لهم صادرًا من الله والملائكة والناس أجمعين. والناس هم بنو آدم إلى أن تقوم الساعة، وهؤلاء منهم كافر ومنهم مؤمن، كيف - إذن - يوجد اللعن ممن كفر مع أنه هو أيضًا ملعون؟

نقول: نحن في الدنيا نجد من يخدع غيره في دين الله، وهناك من ينخدع، فإذا ما انجلت الأمور في الآخرة، وانفضح الخادعون، وأسقط في يد المخدوعين، فهنا يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، يتبرأ الخادع من المخدوع، ويتبرأ المخدوع من الخادع، وكلما دخلت أمة من المخدوعين إلى النار لعنت الأمة التي خدعتها، وكلما دخلت أمة خادعة إلى النار، فإنها تلعن الذين استسلموا للخديعة، يتبادلون اللعن. يقول الحق:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾(٢).

ويقول أيضًا:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾(٣).

(*) الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

(١) سورة التوبة: ٦٨.

(٢) سورة البقرة: ١٦٦.

(٣) سورة الأعراف: ٣٨.

إذن: فاللعنة موجودة بين الكافرين بعضهم لبعض، كما هى موجود في الدنيا أيضًا، فالذين يكفرون بمنهج الله وينحرفون ويظلمون، هؤلاء يتلقون اللعنة من أهل منهج الله، ويتلقون اللعنة من المظلومين منهم، ثم يأتي لهم موقف آخر، يأتي لهم من يظلمهم، فيلعنونه ويلعنهم، وهكذا يلعنهم الناس أجمعون.

واللعن بطرد وغضب وزجر يختلف عن اللعن التأديبي الذي يأخذ صيغة الإبعاد، كما فعل رسول الله ﷺ مع المتخلفين في غزوة تبوك، وغزوة تبوك كانوا يسمونها غزوة العسرة، لأنها جاءت في مشقة من كل جهاتها لبعد المكان بين تبوك والمدينة، ومشقة أخرى من نقص الدواب التي تحمل المقاتلين، فقد كان كل عشرة من المقاتلين يتناوبون على دابة واحدة، ومشقة وعسرة في الزاد، حتى إنهم كانوا يأكلون التمر بدوده، وكانوا يأكلون الشحم والدهن والإهالة[1] الزنخة، وعسرة في الماء حتى إنهم كانوا يذبحون البعير ليشربوا من فرثه وكرشه الماء، وعسرة في الجو القائظ الشديد الحرارة، كانت كل الظروف صعبة وقاسية وتحتم ألا يخرج للغزوة إلا الصادق في يقينه.

لقد كانت تلك الغزوة اختبارًا وابتلاء للإيمانية في نفوس الناس. ولذلك فإن بعضهم استسلم لحديث النفس في أن يظل بالمدينة، وقال واحد منهم: «أظل ظليل وراحة ورسول الله ﷺ في القيظ[2]؟! والله لا يكون هذا أبدًا»، ثم قام وتبع جيش المؤمنين، وآخر عنده بستان فيه ظلال وثمار؛ فنظر إلى بستانه وقال: «أأنت الذي منعتني أن أكون في ركاب رسول الله؟! والله لا تكون ملكي بعد الآن، وأنت لله في سبيل الله»، وثالث جلس في بيته وأمامه زوجته الجميلة وحوله أشجار وزروع، فقال: «أأجلس في ظل ورطب وماء وامرأة حسناء ورسول الله في حَمارة القيظ، والله لا يكون هذا أبدًا» وامتطى حصانه إلى الصحراء لينضم لجيش المسلمين.

---

(١) الإهالة: الشعير الرديء.

(٢) القيظ: شدة الحر.

وعندما رجع رسول الله ﷺ منتصرًا اعتذر له من لم يشاركوه رحلة النصر بأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحرب من دواب ودروع وسيوف ونبال، فقبل رسول الله علانيتهم وترك سرائرهم لله، إلا ثلاثة صدقوا وقالوا: «يا رسول الله ما كنا أغنى منا ساعة امتنعنا عن الذهاب معك فعندنا عدة الحرب والدواب».

لقد أمر رسول الله الناس ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم، واستكان اثنان منهم وظلا في بيتهما، وهما هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، أما كعب بن مالك فكان يخرج ويلقى الناس فلا يكلمه أحد، ويذهب للصلاة مع رسول الله ﷺ ويسارق النظر إلى النبي ﷺ ويسلم عليه، لكن رسول الله لا يرد، ويغض طرفه ويعرض عنه، حتى إن كعبًا يقول: «فأنظر هل حرك رسول الله شفتيه برد السلام أم لا؟».

لماذا كل ذلك؟. لقد أرادها النبي ﷺ وسيلة إيضاح لكيفية إبعاد التأديب. وضاقت الدنيا على الثلاثة، وذهب كعب إلى ابن عمه أبي قتادة وتسلق عليه الحائط، لأنه يعلم أنه لو طرق الباب فلن يفتح له. ورغم تسلق الحائط إلا أن ابن العم أعرض عنه، فقال راجيًا: «أنشدك الله، أنشدك الله، أنشدك الله» كل ذلك وابن عمه لا يرد عليه، ثم قال له: «تعلم أني أحب رسول الله». فلم يرد عليه ابن العم وظل يتوسل سائلاً عن موعد العفو، فقال أبو قتادة: «الله ورسوله أعلم».

فلما مضت أربعون ليلة على هذا الإبعاد، فإذا برسول الله ﷺ يُصَعّدُ التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة - من خلال رسول أرسله إليهم - ألا يقربوا نساءهم. لقد دخل العزل إلى دائرة جديدة هى دائرة المجتمع الخاص حيث الرجل وامرأته، فقال كعب لرسول رسول الله ﷺ: «أطلق زوجتي؟». قال الرسول: «بل لا تقربها». وقال قوم لكعب: اذهب إلى رسول الله ﷺ أو فلتذهب امرأتك لتستأذنه في أن تظل معك لتخدمك؛ فقد استأذنت امرأة هلال

ابن أمية رسول الله؛ فأذن لها أن تخدم زوجها. فقال كعب: والله لا أفعل، لأن امرأة هلال حينما ذهبت إلى رسول الله قال لها: «**لا يقربنك**» فقالت: «يا رسول الله والله إن هلالاً ما به حركة لشيء» فأذن لها أن تظل لتخدمه. لكني رجل شاب وأخاف أن أستأذن رسول الله فلا يعطيني هذا الحق[١].

هكذا كان إبعاد التأديب، وليس بالطرد الكامل من حظيرة الإيمان، بدليل أن رسول الله ﷺ جعل من يتلقون التأديب أهلاً لأوامر يلقيها عليهم، ثم جاءت البشرى بالإفراج بعد عشرة أيام عندما أنزل الحق قوله:

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[٢].

وهكذا لم يقفل الحق الباب بل جعله مفتوحًا أمام الإنسان، حتى لمن كفر، وحتى لمن كتم، فلا يظن أن سابق كفره أو كتمانه أو تراخيه عن نصرة الحق سيغلق أمامه الباب، أو يحول بينه وبين ربه، لذلك يقول الحق:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾[٣].

أي أعلنوا التوبة وهي أمر ذاتي، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا، وبينوا للناس بمقدار ما كتموا، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه، فالذي كتم شيئًا

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه عبد الرزاق (٩٧٤٤) في مصنفه، والبخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأبو داود (٢١٨٧)، والترمذي (٥٠٠١)، والنسائي (٦/ ١٥٢-١٥٤)، وأحمد (٣/ ٤٥٤)، (٦/ ٣٨٧-٣٩٠).

(٢) سورة التوبة: ١١٨.

(٣) سورة البقرة: ١٦٠.

عليه أن يبينه، فالكتمان لا يؤثر فقط في العلاقة بين العبد والرب، ولكنه يضر العباد، والحق سبحانه حين يفتح باب التوبة للعبد يقول:

﴿تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[1].

* * *

(١) سورة التوبة: ١١٨.

* قصة عمير بن وهب وغورث بن جابر *

كل الخوارق الكونية التي حدثت لرسول الله ﷺ ليس المقصود بها عامة المسلمين، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه، ونفض بذلك أي نزاع حول تلك الخوارق؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هي كتاب الله سبحانه وتعالى.

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول ﷺ. ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر، فقام قبل أن يلقي مندوب بنى النضير الحجر عليه ﷺ.

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحي ويقول له: اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعليّ دينك، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا.

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله ﷺ. فقال له النبي ﷺ: «**ما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه - وكان له ابن أسير لدى المسلمين - قال: «**فما بال السيف في عنقك؟**» فقال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئًا؟ قال: «**أصدقني ما الذي جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك. فقال له النبي ﷺ: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبيني**»[١].

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه الطبراني (١٨/٥٨) في الكبير، مرسلاً عن عروة بن الزبير.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي.

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما آتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام.

ومثال آخر: ما رواه سيدنا جابر رضي الله عنه في غزوة ذات الرقاع. قال: «جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله». فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ بالسيف وقال: «**ومن يمنعك مني؟**»[1] فقال: كن خير آخذ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله؟**» قال: لا، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس».

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذي يمنع الرسول منه وقع السيف من يده، ذلك أن ذرات الكفر في الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة، وعندما أمسك النبي بالسيف وسأل الرجل: «**من يمنعك مني؟**» لم يقل الرجل: «هبل» أو «اللات» أو «العزى» فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب في كذب، ولو كان مؤمنًا بآلهته لقال أحد أسمائها. وعندما تزلزلت ذرات الكفر في كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التي لا تكذب أبدًا. وإن كذب الإنسان على الناس جميعًا لا يكذب على نفسه. وكلمة «الله» هي التي زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق.

وفي معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله ﷺ بينما ابنه عبد الرحمن كان مع الكفار، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٥)، والحاكم (٣/ ٣٩)، وابن سعد (٢/ ١/ ٢٤)، والبيهقي (٣/ ١٦٨، ١٦٩، ٣٧٦) في دلائل النبوة.
وأصله عند البخاري (٧/ ٣٣١)، ومسلم (٨٤٣) بدون ذكر اسم غورث.

يتسامـران، فقال الابن: لقد رأيتك يوم أحـد فصدفت[١] عنك فقال أبو بكر: لكني لو رأيتك ما صـدفت عنك. فقد رأى ابن أبي بـكر والده ولم يقتله، ولا شك أن مقارنة نفسية باطنيـة فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجـارة، وعرف ابن أبي بكر أن والده أفـضل بكثير من تلك الأحـجار. ولكن أبا بكر حينما يقول: ولو كنت رأيتك لقتلتك، فـالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابـن، ومن المؤكـد أن الإيمان يغلب في نـفس أبي بكر. وكل من أبي بكر وابنه كان منطقيًّا مع نفسه.

ومثال آخر: «عن جابر بـن عبد الله أنه غزا مع رسول الله ﷺ - قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ - قفل معه فأدركتهم القائلة شدة الحر في وسط النهار في وادٍ كثيـر العضاه - شجر عظيم له شـوك - فنزل رسول الله، وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه، قال جـابر: فنمنا نومة فإذا رسـول الله يدعونا فـجئناه فإذا عنده أعـرابي جالس فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي[٢] وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا فـقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله. فهـا هو ذا جالس**» ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ»[٣].

ولماذا حـدث ذلك؟ لأن الفطرة المستلـهـمة بـدون تدخل من أحـد تنضح بالإيمان. وها نحن أولاء نرى الصحابة في العهد الأول حينما اضطهدوا في مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحـبشة؛ هل ذهبوا إليها خـبط عشواء؟ أو ذهبوا بتـخطيط نبـوي كريم؟ لقـد درس النبي أولاً الأرض التي تصلح لاستـقبـالهم ويقبلهم فيـها أهلها كمهـاجرين. ودرس النبي أوضاع الجزيرة العـربية ووجد أن

---

(١) صدف: أعرضَ.

(٢) اخترط: أخذ خفية.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧/ ٣٣١)، ومسلم (٨٤٣).

قريشًا تتمكن من كل قبيلة في الجزيرة العربية عندما يأتي موسم الحج، لذلك لن توجد القبيلة التي تحمي المهاجرين فيقول لهم رسول الله ﷺ .

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»(١) .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين. وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي. وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي. وسمع النجاشي عن النبي ﷺ وعلم أنه النبي الذي بشر به الإنجيل. ولا شك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي ﷺ صلى على النجاشي عندما مات. وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده. وما أعظم المكافأة التي نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلي عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب.

إن كل هذا من كف أيدي الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم؛ فالله أقوى من خلقه. «فكف أيديهم عنكم» وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين لأنه - سبحانه - يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق. ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدي الكافرين عنهم، فلا يتغلب كافر على مؤمن في لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شيء في منهج الله؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التي تحدث في الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية. لقد قال:

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾(٢) .

---

(١) حديث ضعيف: انظر: البداية والنهاية (٣/ ٦٦).

(٢) سورة الصافات: ١٧٣.

إذن.. فعندما ترى جندًا من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم، بدليل أن بعضًا من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله ﷺ غلبهم الكفار، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نُسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه. والحق يقول:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

* * *

---

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

* قصة الشاب المجادل لنبيه ﷺ *

يقول الحق سبحانه :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[١] .

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيماني الأعلى في الإنسان في شخص أبي الأنبياء إبراهيم، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه، أخذتْ في بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله.

قوله: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ... ﴾[٢] .

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سيُنفِّذ ما أُمِر به، وسيقوم بأمر الدعوة، ويتحمل مسئوليتها.

«ادع» : بمعنى دُلّ الناس وارشدهم.

﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[٣] .

السبيل هو الطريق والمنهج، والحكمة: وَضْع الشيء في موضعه المناسب، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمة..؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنِ انحرف عن هذا المنهج، ومَن انحرف عن منهج الله تجده ألف المعصية وتعود عليها فلابد لك أن ترفقَ به لِتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره، لأنك تجمع عليه شدتين:

---

(١) سورة النحل: ١٢٥ .

(٢) سورة النحل: ١٢٥ .

(٣) سورة النحل: ١٢٥ .

شدة الدعوة والعنف فيها، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يتركَ ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي.

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس، وخاصة في أمور الدين، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص، أو تحرجه أمام الآخرين؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية، فهذه الطريقة تثير حفيظته، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد.

وهذه الطريقة في الدعوة هى المرادة من قوله تعالى:

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾(١).

ويُروى في هذا المقام - مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة - قصة دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما - هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية.

فيُروى أنهما رأيَا رجلاً لا يُحسن الوضوء، وأرادا أنْ يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما، كل منهما يقول للآخر: أنت لا تُحسن أنْ تتوضأ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ، ثم يحكم أيهما أفضل من الآخر وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول: كل منكما أحسن، وأنا الذي ما أحسنْتُ.

إنه الوعظ في أعلى صورة، والقدوة في أحكم ما تكون.

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ، حينما أتاه شاب في فَوْرة شبابه، يشتكي عدم صَبْره عن رغبة الجنس، وهى - كما قلنا - من أشرس الغرائز في الإنسان.

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

جاء الشاب وقال: «يا رسول الله ائذن لي في الزنا».

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ عِلّته، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة، ومعرفة العلة أول خطوات الشفاء. فماذا قال رسول الله؟

انظر إلى منهج الدعوة، كيف يكون، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب؟ فلم يزجره، ولم ينهره، ولم يُؤذه، بل أخذه وربَّت على كتفه في لطف ولين، ثم قال:

«**أتحبه لأمك؟**» قال: لا يا رسول الله، جُعِلْتُ فِداك. قال: «**فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم**». قال: «**أتُحبه لأختك؟**».

قال: لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك، قال: «**فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم**»[(١)].

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له: «**اللهم نَقِّ صدره، وحَصِّن فَرْجه**» فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني، و هو يقول: فوالله ما هَمَّتْ نفسي بشيء من هذا، إلا ذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي[(٢)].

فلنتأمل هذا التلطُّف في بيان الحكم الصحيح، فمعالجة الداءات في المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرًّا يغلفونه بغُلافة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريض، ويسهل عليه تناوله. وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة.

---

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد (٥/٢٥٦، ٢٥٧)، والطبراني (٨/ ١٩٠) في الكبير، وانظر: السلسلة الصحيحة (٣٧٠) للألباني - رحمه الله -.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٤٠١)، وأحمد (٣/٢٤١، ٢٨٥)، وابن سعد (١/ ٢/ ٩٥) في طبقاته، والبيهقي (٧/ ٧٧) في سننه الكبرى.

ويقول أهل الخبـرة في الدعوة إلى الله: النصح ثقيل فـلا تُرْسِله جبلاً، ولا تجعله جدلاً.. والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان.

وكان ﷺ إذا سمع عن شـيء لا يرضيه من ذنب أو فـاحشـة في مجـتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف، ويقول:

«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا».



* قصة سواد بن غزية والقصاص *

المثل من حياة رسولنا ﷺ في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين، وكان في يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف، فمَرَّ بسواد بن غزية من بني عدي بن النجار، وهو مستنصل[١] عن الصف - أي خارج عنه، مما جعل الصف على غير استواء - فطعنه رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال له: «**اسْتَوِ يا سواد**».

فقال سواد: أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني[٢].

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : «**استقد**». فاعتنقه سَواد وقَبَّل بطنه.

فقال ﷺ : «**ما حملك على هذا يا سواد؟**»[٣].

قال: يا رسولَ الله، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بالخير.

* * *

---

(١) مستنصل: أي خارج عن الصف.

(٢) اقدني: أعطني القصاص من نفسك.

(٣) حديث ضعيف: أخرجه البيهقي (٤٨/٨) في سننه الكبرى، وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ٢٨٩).

* قصة ابن مظعون مع أعجب الآيات *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ .... يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

هذه الآية لأنها جمعتْ كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم.

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم، وكان يعرض عليه الإسلام دائمًا، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشِيَمًا تحسن في الإسلام.

وكأنه ﷺ ضَنَّ[٢] بهذه المخايل[٣] أن تكون في غير مسلم، لذلك كان حريصًا على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ في مجلس، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه، فقال له ابن مظعون: ما حدث يا رسول الله؟ فقال: «**إن جبريل - عليه السلام - قد نزل عليَّ الساعة بقول الله تعالى**»:

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٤].

قال ابن مظعون رضي الله عنه: فاستقر حبُّ الإيمان في قلبي بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[٥].

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) ضن: بخل.

(٣) المخايل: الصفات.

(٤) سورة النحل: ٩٠.

(٥) حديثٌ حسنٌ: أخرجه أحمد (١/٣١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد»، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، كما في الدر المنثور (٥/١٥٩). وأخرجه الواحدي (٥٨٤) في أسباب النزول.

ثم ذهب فأخبر أبا طالب، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون في هذه الآية قال: يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[١].

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، وكان معه أبو بكر وعلي، قال علي: فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان بن ثعلبة فقال: إلى أي شيء تدعونا يا أخا قريش؟ فقال ﷺ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

فقال مقرون: إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال، أفِكتْ[٣] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك[٤].

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبي جهل، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا، فأفكر الوليد بن المغيرة - أي: فكَّر فيما سمع - وقال: والله إن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه، وما هو بقول بشر.

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن، فقالوا: حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر.

* * *

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٩٢).

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) أفكتْ: أي خسرت، وافترت.

(٤) ظاهرت عليك: حرضت عليك.

* قصة الابن الشهيد ومنام الوالد *

هذا صحابي آخر يقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله.. إن ابني الذي استشهد ببدر رأيته في الرؤيا يقول لي: «يا أبت أقبل علينا.. أقبل» فأنا أرجوك أن تأذن لي في القتال في أحد. فأذن له الرسول فقاتل.. فقتل.. فصار شهيدًا.

وتتجلى الأُخوة الإيمانية والنسب الإسلامي في حذيفة بن اليمان، حين قُتل أبوه؛ وكان شيخًا كبيرًا قد خرج في أُحد طلبًا للشهادة، فقُتل بأسياف المسلمين وهم لا يعرفونه، وذلك ساعة الشدة والهرج، ما استطاعوا أن يميزوا بين بعضهم، ولما رأى حذيفة الموقف صاح فيهم: أبي أبي، ولكن هول وشدة الخطب حالت دون سماعهم له، فكان قضاء الله له بالشهادة، فما كان من حذيفة رضي الله تعالى عنه إلا أن قال: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وأراد رسول الله ﷺ أن يؤدي ديته، فقال له حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: وأنا تصدقت بها على المسلمين[١].

هذه أشياء حدثت في المعركة لتدلّنا على أن المعركة كانت ولابد أن تكون على ما كانت عليه؛ لتمحص[٢] المؤمنين تمحيصًا يؤهلهم لأن يكونوا شهداء الله تعالى في الأرض، وحملة رسالته.

موقف آخر.. بعد أن خرج الرماة عن أمر رسول الله ﷺ، وحدثت الكرة عليهم من المشركين رمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته[٣] الشريفة، وجرح شفته السفلى[٤].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٧/ ٢٧٩)، وابن سعد (٢/ ٤٥) في الطبقات الكبرى.

(٢) لتحمص: لتختبر.

(٣) رباعيته: الرباعية: السِّنُّ بين الثنية والناب، وهى أربع: رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل.

(٤) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

وجرح وجنته ابن قمئة ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ﷺ.

ووقع الرسول ﷺ في حفرة فأخذ علي رضي الله تعالى عنه بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا.

وكلها مجاهدات بشرية. وقد يقول قائل: أما كان الله قادرًا أن يكفي رسوله كل ذلك؟ هنا نقول: إنه تكريم من الله. ولم يرد الحق سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة، وحتى يُعرِّف الله المؤمنين أن الله لم يأت بمحمدٍ ليُدلله على خلقه. لكن ليدل بما يحدث له على أنه بشر مثلهم اصطفاه ربه لإبلاغ رسالته للناس جميعًا.

وعندما دخلت حلقتا المغفر في وجنته ﷺ قام إليه أبو عبيدة بن الجراح لينزع إحداهما فسقطت ثنيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى[١].

وبعد ذلك ينزف دم الرسول الكريم ﷺ وتأتي السيدة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وتغسله بالماء فما كان من الدم إلا أن يزيد، فيلهمها الله تعالى أن تأتي بقطعة من حصير وتحرقها، وتأخذ التراب الباقي من الحريق وتضمد به الجرح فاستمسك الدم[٢].

ويأتي أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما، ويسمع أن رسول الله ﷺ قد قُتل فيذهب إلى عمر بن الخطاب وطلحة وغيرهم ويجدهم قد أسقط في أيديهم فيسألهم أنس: ما لكم؟ فيقولون: قُتل رسول الله ﷺ. فيقول: إذا كان رسول الله قد قُتل فما الذي تحرصون عليه من بعده؟ قوموا قاتلوا على ما قاتل عليه[٣].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية (٣/ ٣٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٥).

(٣) دلائل النبوة (٣/ ٢٤٥) للبيهقي.

* قصة سعد بن الربيع المجاهد الشهيد *

في غزوة أُحد أرجف[١] المرجفون أن رسول الله ﷺ قد قتل. كان كل ذلك تمحيصًا من الحق للمؤمنين. فمن الذي يثبت مع هذا؟ الذي يثبت مع هذا هو الذي على الحق، ثقة منه في دينه، وثقة منه في رسوله وثقة منه في أن الله لن يخزل رسول الله ﷺ أبدًا.

ولذلك لما طلب رسول الله ﷺ بطلاً من أبطال المسلمين الذين كانوا حوله، وهو سعد بن الربيع، فقام زيد بن ثابت يلتمسه.

فقال زيد: ذهبت لأتحسسه، فرأيته وقد جرح سبعين جرحًا ما بين ضربة سيف، وطعنة رمح ورمية سهم. ولما رآه زيد قال له: رسول الله ﷺ يقرئك السلام. ويقول لك: «كيف تجدك»؟ أي كيف حالك؟

قال سعد لزيد: السلام على رسول الله ﷺ؛ وقل له: أجدني أجد ريح الجنة. وقل للأنصار ليس لكم عند الله عذر. إن خَلُص على رسول الله وفيكم عين تطرف[٢].

إنه الصحابي الجليل الذي يحذر الأنصار من أن يتمكن أحد من رسول الله ﷺ. وبعد ذلك فاضت[٣] روحه. فلنلحظ إلى آخر ما كان من الصحابي

---

(١) أرجف: يقال: رجف رجفًا، ورجوفًا، ورجفانًا: تحرك واضطرب اضطرابًا شديدًا. وأرجف الشيء: حركه، فهو راجفٌ ورجاف.

وأرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة، وذكر الفتن، والإرجاف. الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب المعجم الوجيز (٢/ ٢٥٧).

(٢) **حديثٌ صحيحٌ**: أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠١)، وصححه، وأقره الذهبي، وعن طريقه أخرجه البيهقي (٣/ ٢٨٥) في دلائل النبوة.

(٣) فاضت: خرجت.

الجليل حين أثخنته الحرب فلم يقو على أن يحارب بنصاله، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله. ولتصير كلماته دويًا في آذان المسلمين، وليعلم هؤلاء الذين أثخنوه جراحًا، ما صنعوا فيه، إنهم قربوه من لقاء ربه، وأنه ذاهب إلى الجنة، وتلك هى الغاية التي يرجوها كل مؤمن ومن أجلها يجاهد.

ونجد أيضًا أن الذين عذرهم الله تعالى من الجهاد يتطوعون للجهاد. فمثلاً عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه كان أعرج والعرج عذر له من الجهاد؛ لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1]. وكل أولاده ذهبوا إلى المعركة، ومع ذلك يطلب السماح من رسول الله ﷺ بأن يذهب إلى المعركة.

فيقول له الرسول ﷺ: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**»[2].

فيقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، أنا أحب أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.

* * *

(١) سورة النور: ٦١.

(٢) حديثٌ حسنٌ: أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي قتادة، وبنحوه أخرجه البيهقي (٩/ ٢٤) في سننه الكبرى، و(٣/ ٢٤٦) في دلائل النبوة.

* قصة أبي لبابة والخيانة *

إن الله قد أمر بأحكام وحين أتقبلها فلها أمانة، وأمانتها هى أداؤها من غير نقص في شيء سواء كان عامًّا أو خاصًّا، ولو في الحديث يجرى أمامك، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شيء، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم، فوشي واش بهمام بن عبد الله السلولي إلى زياد، وتوقع القوم عقابًا صارمًا بهمام؛ لأن زيادًا كان يأخذ بالظن، لكن الله ألهم همَّامًا كلمة ظلت دستورًا يطبق، وحين استدعى زياد همامًا، قال زياد: بلغني أنك هجوتني. قال همام: كلا أصلحك الله . ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال: إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرني. فنظر همام إليه فوجده جليسًا وصديقًا ومؤنسًا، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال: أنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم، أي إما أنك خائن أو آثم، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسي فأنت خائن، وإن كنت اختلقتها عليّ فأنت كاذب، فأعجب زياد هذا المنطق، وأقصى الواشي ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلع على همام الصلة والعطايا. فكان همام حين يرى الواشي يقول له: هل لك في وشاية أخرى تغنيني؟!!

وفي سيرته ﷺ وقائع حدثت في تاريخه حتى من بعض الصحابة، وعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة، جعل عهدًا بينه وبين اليهود، فاستقام لهم رسول الله ﷺ ما استقاموا للعهد، فلما خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم، فأدبهم، وكان أول ذلك في بني النضير وأوضح

لهم أنه لن يقتلهم، بل سيكتفي بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بني قريظة، وحاصرهم رسول الله ﷺ مدة من الزمن. فبعثوا إلى رسول الله من يقول: يا رسول الله إن بني قريظة يريدون أن تصنع بهم ما صنعته مع بني النضير، أي أن بني قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيم سعد بن معاذ، و كان يحب بني قريظة وبينه وبينهم صلة، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا: لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة، وهذه كُنْيته، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر، وكان ماله في يد اليهود يتاجرون له فيه، أي أن بينه وبينهم صلةً مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود، فاستَشاروه في الأمر متسائلين: أنرضى بحكم سعد ابن معاذ؟ فماذا قال أبو لبابة؟ قال: إنه الذبح، وأشار إلى حلقومه، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال: والله ما جالت قدماي حتى تيقنت أني خنت رسول الله ﷺ . ولكن انظروا إلى الإيمان، ويقين الإيمان، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان في الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه في الآخرة.

ذهب إلى سارية المسجد - أي عمود في وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام، حتى خارت قواه وغشي عليه وسقط، فعطف الله عليه، وأبلغه رسول الله ﷺ بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له: حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذي ربطت نفسك، فقال: والله لا أحلها حتى يحلني رسول الله ﷺ . فذهب رسول الله ﷺ وحله من السارية[١].

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله ﷺ في أنه قال لليهود إنه الذبح.

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه الطبري (٩/١٤٦) في تفسيره، والواحدي (٤٨٨) في أسباب النزول، كلاهما مرسلاً عن ابن أبي قتادة.

* قصة ابن أبي بلتعة والخيانة *

وهناك صحابي آخر هو حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله ﷺ قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش. وتكون المفاجأة سببًا في عدم تولد اللدد وليتم الصلح. لذلك كتم الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبًا قد أرسل إلى قريش يخبرها. فانتدب عليًّا ومعه صحابيان وأمرهم الرسول ﷺ أن يذهبوا إلى مكان حدَّده لهم في الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام عليّ: أخرجي ما معك، فقالت: ليس معي شيء. فمسك عليّ بن أبي طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذي تخبيء فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير لقريش، وعاد عليّ - كرّم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله ﷺ، وسأل الرسول ﷺ حاطبًا: «**ما حملك على هذا يا حاطب؟**»[1].

قال: والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك في شيء، وأن الله ناصرك؛ ناصرك، ولكني أردت أن أتخذ لي يدًا عند قريش، لأنني رجل ضعيف ولا مال لي ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله ﷺ رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذي آمنت به يعتبر خيانة للأمانة.

﴿لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

أي لا تخونوا الله والرسول في المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه البخاري (٤/ ٧٣)،(٥/ ٩٩)، ومسلم (٢٤٩٤) وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ٦٣٥) مختصرًا، والحاكم (٣/ ٣٠١، ٣٠٢)، والطبراني (٣٠٦٦) في الكبير.

(٢) سورة الأنفال: ٢٧.

تعلمون، أي ألا يخون أحدكم قومه عن عمد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت المغفرة في حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهو، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم، ولو لم يكن متدينًا، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو: أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك؟. وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تتقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه مناف لهذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال: إن اللص لو تخيل نفسه مسروقًا لما رضى أن يسرق، والمعتدى على العرض، لو تخيل أن هناك من يعتدى على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس. وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك. أتحب أن يخونك أحد في حديث أو في أمانة؟ لا؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن.. فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي متعمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففى ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهى عن ذلك فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضًا جماعة، وأنت حين تُفصِّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أنَّ على كل إنسان تكليفًا محدودًا هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ: أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٧.

* قصة أبي العاص والقلادة *

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[1].

بعد أن نصر الله عبده ورسوله محمد ﷺ، وأعز جنده بمددٍ من عنده سبحانه، وهزم المشركون في بدر بأن قُتل منهم سبعين، وأسر منهم سبعون كان بينهم: العباس عم النبي ﷺ، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وأبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب ابنة رسول الله ﷺ، ولم يكن قد شرَّع الله التفريق بين المؤمنة والكافر، ولذلك بقيت السيدة زينب -رضي الله تعالى عنها- مع زوجها أبي العاص بن الربيع كزوجة له، وعاشا معًا في مكة رغم أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة.

فلما أُسر أبو العاص بن الربيع، أرادت السيدة زينب أن تفك أسره، وأن تفديه فلم تجد إلا قلادة من ذهبٍ كانت أمها السيدة خديجة - رضي الله تعالى عنها - قد جهزتها بها، فأرسلت القلادة مع أحد المسافرين إلى المدينة لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع من الأسر، فلما رأى رسول الله ﷺ القلادة عرفها، فقال: «**هذه قلادة زينب جهزتها بها أمها خديجة، فإن رأيتم أن تردوا لها قلادتها، وتفكوا لها أسيرها**»، فأجابوه لذلك على أن يبعث بها إلى المدينة[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٦٧.

(٢) عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب في فداء أبي العاص بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها**» فقالوا: نعم! وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: «**كونا ببطن ياجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها**». =

و«أَسَرى»: جمع أسير، والأسر هو نبع العبودية والرق؛ لأن الأسير وقع في قبضة عدوه الأقوى منه.

وما دام قد وقع في قبضة عدوه الذي هو أقوى منه، فإنه يمكن أن يقتله أو يأخذه عبداً، وفي هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة. وعلى ذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى في تملك الأسرى، إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقي حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل، وكان من الممكن أن يترك سبحانه الأسرى ليقتلوا وتنتهي المشكلة. ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر، لماذا؟ لأن الله هو الذي خلقه، وأتى به إلى هذه الحياة ولذلك فهو يحفظه. وثمة أمر آخر هو: عسى أن يهتدي بعد ذلك ويؤمن، أو يخرج الله من صلبه ذرية تعبد الله تعالى وتوحده سبحانه.

ومعلوم أن الإسلام لم يبتدع نظام الرق، بل جاء ليحرر الرقيق من رق عبودية البشر، إلى عز العبودية لخالق البشر سبحانه وتعالى.

* * *

= رواه أبو داود (٢٦٩٢) واللفظ له، وأحمد في المسند (٦/ ٢٧٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٥٤)، وابن هشام في السيرة (٢/ ٣٢٥) بتحقيقي. وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤١): إسناده حسن.

وقال ابن هشام: كان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أي على أبي العاص بن الربيع، أو وعد رسول الله ﷺ بذلك، أن يخلي سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيعلم ما هو، إلا إنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلى سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: **«كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها»** فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/ ٣٢٥).

* قصة ابن سلام مع اليهود البُهت *

روى أن عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول شرائط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال - عليه الصلاة السلام -: **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته»**[1] فقال: أشهد أنك رسول الله حقًّا فقام ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: **«أيُ رجل عبد الله فيكم؟»** فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: **«أرأيتم إن أسلم عبد الله؟»** قالوا أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه، قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾**[2][3].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٥/ ٨٨)، (٦/ ٢٣)، والبيهقي (٢/ ٥٣١)، (٦/ ٢٦١) في دلائل النبوة، وأبو نعيم (ص/ ١١٤) في الدلائل.

(٢) سورة الأحقاف: ١٠.

(٣) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٧/ ٩٧)، ومسلم (٢٤٨٣).

وقال تعـالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾(١). فإن أردنا طمس الوجه حقيـقة، فهو الأمر الذي خاف منه عـبد الله بن سَلام وكعب الأحبار، هذا ذهب إلى رسول الله وذاك ذهب إلى عمر، وكل منهما كان يمسك وجهه خشـية أن يطمس، إذن فقوله: «نطمس وجوهًا» أي نجعلهـا مثل «القفا» مجرد قطعة لحم من غير تمـييز، أو نحول بينهم وبين قصدهم أي لا نمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صـدهم الناس عن الإيمان برسول الله.. «من قبل أن نطمس وجوهًـا فنردها على أدبارها أو نلعنهم» أو أن نطردهم من رحـمتنا ومن ساحة إيماننا، فيقول الحق:

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(٢).

ما داموا هم قد كفروا نقول لكل منهم: ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيزيد لك الختم على قلبك وسنعينك على هذه الحكاية أيضًا. قال تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾(٣).

فإذا كـنت أنت تريد هذه فسنعطيـك ما في نفـسك «فنردها على أدبارها أو نلعنهم كمـا لعنا أصحاب السبت» وسـبحانه يخاطب الـيهود، واليهود يـعرفون قصة السـبت ويعرفون أنها واقعة حـدثت، وطردهم الله وأهلكهم ولعنهم وأعدّ لهم عذابًا عظيمًا. إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعـيد بدون رصيد، لا، فهذا وعيد يسبقه رصيد.. أنتم - يا معشر يهود - تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم، «كما لعنا أصحـاب السبت»، وقصة أصحاب السبت معـروفة وإن كانت ستأتي في سورة أخـرى، و«السْبت» وهو السكـون والراحة، ومنه السُّبات أي النوم، فسبت يسبت يعني سكن واستقر وارتاح.

---

(١) سورة النساء: ٤٧.

(٢) سورة البقرة: ٧.

(٣) سورة البقرة: ١٠.

«أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت»، واللعن قالوا فيه: إنه الطرد والإهانة، وقالوا في معناه: إنه الإهلاك. والذين يحاولون أن يشككوا في مفهومات آيات القرآن يقولون: أنتم لا تقفون عند معنى واحد للكلمة، إما أن يراد كذا، وإما أن يراد كذا. نقول لهم: أنتم ليست لكم ملكة في اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم للغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة. وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ في معناه الحقيقي ولا بيان المراد منه.



* قصة العبد ثوبان المحب للنبي العدنان *

يقول تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[1].

والفعل هنا: «يطع» والمطاع هو: الله والرسول ﷺ، أي: أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ﷺ، أي: بالكتاب والسنة، وساعة تجد الرسول معطوفًا على الحق بدون تكرار الفعل فاعلم أن المسألة واحدة. .أي: ليس لكل واحد منهما أمر، بل هو أمر واحد، قول من الله وتطبيق من رسول الله ﷺ لأنه القدوة والأسوة؛ ولذلك يقول الحق في الفعل الواحد:

﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[2].

فما أغناهم الله غنىً يناسبه وأغناهم الرسول ﷺ غنى يناسبه فالفعل هنا واحد. فالغنى هنا من الله ورسوله؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالاً لأمره، فتكون المسألة واحدة.

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهى قضية قد تشغل كثيرًا من الناس الذين عاصروا رسول الله ﷺ كان مجلسه ﷺ ولا يصرف عنه قادم، يأتي فيجلس حيث ينتهى به المجلس، فالذي يريد النبي دائمًا يستمر في جلوسه، والذي يريد أن يراه كل فترة يأتي كلما أراد ذلك. فثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه يومًا ووجهه متغير وقد نحل وهزل

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) سورة التوبة: ٧٤.

جسمه، وعرف الحزن في وجهه، فسأله النبي قائلاً: **«ما بك يا ثوبان؟»** فقال: والله ما بي مرض ولا علة، ولكني أحبك وأشتاق إليك، وقد علمت أنى في الدنيا أراك وقتما أريد، لكنك في الآخرة ستذهب أنت في عليين مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدًا.

ونص الحديث كما رواه ابن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ - وهو محزون - فقال له النبي ﷺ: **«يا فلان مالى أراك محزونًا؟»** فقال: يا نبي الله شيء فكرتُ فيه فقال: **«ما هو؟»** قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يردّ عليه النبي ﷺ شيئًا فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ**﴾[1].. فبعث النبي ﷺ إليه فبشّره»[2].

وكيف تأتي هذه على البال؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله ﷺ؛ وفكّر: هل ستدوم له هذه النعمة؟ وتفكر في الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ﷺ ستعلو كل المنازل. وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبي ﷺ لن تنتهى ولن تزول، إنه يراه في الدنيا، وبعد ذلك ماذا يحدث في الآخرة: إما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبدًا. وإن دخل الجنة والنبي ﷺ في مرتبة ومكانة عالية. فماذا يفعل؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله ﷺ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذي شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينًا لهؤلاء: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ**﴾[3]. أي:

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) حديثٌ حسنٌ: وإسناده مرسلٌ أخرجه الطبري (٥/ ١٠٤) في تفسيره مرسلاً، وله شواهد في الدر المنثور (٢/ ١٨٢).

(٣) سورة النساء: ٦٩.

المطيعون لله والرسول ﴿مع الَّذين أنعم اللَّهُ عليهم مِّن النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾[1]. والمسألة جاءت خاصة بثوبان، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ﷺ، فأنت مع من أحببت، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان. لقد كان كلام ثوبان سببًا في الفتح والتطمين لكل الصّديقين والشهداء والصالحين، وهى أصناف تستوعب كل المؤمنين، فأبو بكر الصديق صدّيق لماذا؟ لأنه هو المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ﷺ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل: هل هذه تنفع أو لا تنفع؟ فعندما قالوا لسيدنا أبي بكر: إن صاحبك يدّعى أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل، ماذا قال أبو بكر؟ قال: إن كان قال ذلك فقد صدق.

لم يعلل صدقه إلا بـ «إن كان قال ذلك»، فهذا هو الصدّيق الحق، فكلما قال محمد ﷺ شيئًا صدّقه أبو بكر، وأبو بكر رضوان الله عليه لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقًا للرسول ﷺ بل بمجرد أن قال ﷺ : إني رسول؛ قال أبو بكر: نعم. إذن: فهو صدّيق.

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول، هم جربوا النبي عليه الصلاة والسلام، وعرفوه، فَلَمَّا تحدث بالرسالة صدّقوه على الفور؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول، ومثال ذلك: سيدتنا خديجة - رضوان الله عليها - ماذا قالت عندما قال لها النبي: إنه يأتيني كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رئيًا ومَسًّا من الجن يصيبني. فقالت خديجة: «كلاً والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق». وهذا أول استنباط فقهي في الإسلام.

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

هذا هو معنى ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾[(١)]. والشهداء: هم الذين قُتلوا في سبيل الله، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل الله ألا يقول: أنا أريد أن أموت شهيدًا، ويلقي بنفسه إلى التهلكة، إياك أن تفهمها هكذا، فأنت تدافع عن رسالة ولابد أن تقاتل عدوَّك دون أن تمكنه من أن يقتلك؛ لأن تمكينه من قتلك، يفقد المسلمين مقاتلاً. فكما أن الشهداء لهم فضل؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل. فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء.

لكن هل يمكن أن نصبح جميعًا شهداء؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين؟

إذن: فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب، فهذا له مهمة وهذا له مهمة أخرى، ولذلك كانت «التقية» وهى أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالي الكفار ظاهرًا، وقلبه مطمئن بالعداوة لهم؛ انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كي يدافع ويجاهد في سبيل الله. وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قتل في سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى خير أكثر، هذا يثبته الشهيد.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة، فهناك من يقول: هُبِّى يا رياح الجنة، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه، ومفرد (شهداء)، إما «شهيد» وهو الذي قُتل في سبيل الله، وإمّا هى جمع «شاهد»، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله ﷺ أنه بلّغهم.

والمعاني كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئًا يقول به، وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين: من يُقتل في سبيل الله، ومن يبقى بدون قتل في سبيل الله؛

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد، والثاني يعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضًا: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1].

و«الصالحين» الصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في الأرض. فكل شيء يؤدي نفعًا يتركه على حاله، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق النفع منه، فمثلاً: الماء ينزل من السماء، وبعد ذلك يكون جداول، ويسير في الوديان، وتمتصه الأرض فيخرج عيونًا، فعندما يرى عينًا للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبني حولها كي يحافظ عليها. إذن: فهذا قد أصلح بأن زاد في صلاحه.

وهناك ثالث يقول: بدلاً من أن يأتي الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء في القِرَب أو على رءوس الحاملين، لماذا لا أستخدم العقل البشري في الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس في أماكنهم، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد. ومن فعل ذلك يسَّر على الناس، فيكون مصلحًا بأن جاء إلى الصالح في ذاته فزاده صلاحًا.

ويختم الحق الآية بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[2]. و«أولئك» تعني النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا توجد رفقة أفضل من هذه، والرفيق هو: المرافق لك دائمًا في الإقامة وفي السفر، ولذلك يقولون: خذ الرفيق قبل الطريق، فقد تتعرض في الطريق لمتاعب وعراقيل؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق. ونعرف أن الأصل في المسائل المعنوية كلها منقول من الحسيات، وفي يد الإنسان يوجد المرفق.. يقول الحق:

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة النساء: ٦٩.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[(١)].

وساعة يكون الواحد مرهقًا ورأسه متعبًا يتكيء على مرفقه ليستريح، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضًا. إذن: فالمادة كلها مأخوذة من الرفق، فالرفيق مأخوذ من الرفق و«المرافق» مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه، وفي كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه، وفي الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التي تخدم الفلاح، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم، ومكان للأكل، وقد يربط الفقير حماره في زاوية من الحجرة، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة. أي: يكون في المنزل مطبخ مستقل، ومحل لقضاء الحاجة، وحظيرة مستقلة للمواشي، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل، وهذه كلها اسمها «مرافق» لأنها تريح كل الناس.

إذن: فقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[(٢)]. مأخوذة من الرفق وهو: إدخال اليسر، والأنس، والراحة، ويكون هذا الإنسان الذي أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

وقد يقول قائل: كيف يجتمع كل هؤلاء في منزلة واحدة؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم في الدنيا، أليس الله هو القائل:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[(٣)].

ونقول: ما دام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول؛ أليس ذلك من سعيه؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هى من سعى العبد؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه، ويصبح من حقه أن يكون في معية الأنبياء

---

(١) سورة المائدة: ٦.

(٢) سورة النساء: ٦٩.

(٣) سورة النجم: ٣٩.

والصديقين والشهداء والصالحين. وقد تكون الصحبة تكريمًا لهم جميعًا ليأنسوا بالصحبة، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[1].

فساعة يرى واحد منزلته في الآخرة أعلى من آخر، إياك أن تظن أنه سيقول: منزلتي أعلى من هذا؛ لأنه ما دام قد ترك الأسباب في الدنيا وعاش مع مسبِّب الأسباب، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا في الدنيا فيقول لكل محب لله: أنت تستحق منزلتك، ويفرح لمن منزلته أعلى منه.

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرون، بعضهم يحب أن ينجح فقط، وبعضهم يحب العلم لذات العلم، وعندما يجد عشاق العلم تلميذًا نجيبًا، أيكرهونه أم يحبونه؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون: هذا هو الأول علينا؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين، فكذلك المؤمن الذي يكون في منزلة بالجنة ويرى غيره في منزلة أعلى، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة، لا؛ لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعًا لله ويفرح له، مثله مثل التلميذ الذي ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حق. وهكذا نجد أن الآية الكريمة لا تخدش قول الحق: [illegible][2].

وهناك بحث آخر في قول الحق: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فـ «اللام» تفيد الملك والحق، كقولنا: ليس لك عندي إلا كذا، أي: أن هذا حقك، فقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: هي حق للمؤمن، وقد حددت العدل في الحق ولم تحدد الفضل، ولذلك قال بعدها:

---

(١) سورة الأعراف: ٤٣.

(٢) سورة النجم: ٣٩.

﴿ ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾[١].

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعى الإنسان، فقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ حددت الحق الذي لك والذي توجبه عدالة التكليف، لكن ربنا لم يقل: إن هذا العطاء لله من الحق والعدل، بل هو من الفضل، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن؛ لأنك مهما عملت في التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله، ولذلك أوضح سبحانه لنا: تنبهوا.. أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون، لكن لا تفرحوا مما سيجمعه هذا العلم من حسنات، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله. قال سبحانه:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[٢].

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول: كيف يجيء «ثوبان» أو من دون «ثوبان» ويكون في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ونقول: لو لم تكن منزلته أدنى لما كان في ذلك تفضُّل، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة، أما حبه لله وللرسول، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له - وما توفيقي إلا بالله - والفضل هو مناط فرح المؤمن، ﴿ ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾[٣]. ونحن نرضى ونفرح ونكتفي بعلم الله؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط، ويعرف صدق الحب القلبي وصدق الوداد، وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه في المنزلة.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء: ٧٠.

(٢) سورة يونس: ٥٨.

(٣) سورة النساء: ٧٠.

(٤) سورة النساء: ١٣.

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله، وحين يحدّ الله حدودًا.. أي: يمنع أن يلتبس حق بحق، أو أن يلتبس حق بباطل؛ فهو الذي يضع الحدودَ وهو الذي فصل حقوقًا عن حقوق.

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق في البيوت والأراضي فنحن نضع حدودًا واضحة، ومعنى «حد» أي: فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له من آخر. والحدود التي نصنعها نحن والتي قد لا يتنبه لها كثير من الناس، هى نوعان: نوع لا يتعدى بالبناء، فعندما يريد واحد أن يبني، فالأول يبني على الأرض التي هى حق له، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض. وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع في أرضه وبين القطعتين حدٌّ، وهذا يحدث في النفع.

لكن لنفترض أن فلاحًا يريد أن يزرع أرزًا، وجاره لن يزرع أرزًا، فالذي لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياهًا زائدة، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدًّا اسمه «حد الجيرة» ليمنع الضرر، وهو ليس «حد الملكية» فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين، ويصنع بهما حد الجيرة، حتى لا تتعدى المياه التي يروى بها الأرز إلى أرض الجار، إنه حد يمنع الضرر، وهو يختلف عن الحد الذي يمنع التملك.

إذن: فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة: «لا تجعل حقك عند آخر حدك، بل اجعل حقك في الانتفاع بعيدًا عن حدك»، وهذا في الملكية. وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك. وكذلك يعاملنا الله، ويقول في الأوامر:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

وفي النواهي يقول سبحانه: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾[١].

أي: أنك إذا ما تلقيت أمرًا، فلا تتعدَّ هذا الأمر، وهذه هي الملكية، وإذا ما تلقيت نهيًا فلا تقرب الأمر المنهي عنه. مثال ذلك النهي عن الخمر، فالحق لا يقول: «لا تشرب الخمر»، وإنما يقول: ﴿ **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** ﴾[٢]. أي: لا تذهب إلى المكان الذي توجد فيه من الأصل، كن في جانب وهذه الأشياء في جانب آخر.

ولذلك قلنا في قصة أكل آدم من الشجرة: أقال الحق: «لا تأكلا من الشجرة» ؟ أم قال: ولا تقربا هذه الشجرة؟ إنه سبحانه قال: ﴿ **وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾[٣].

وهذا حد اسمه «حد عدم المضارة» إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة. وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك. ففي الأوامر يقول سبحانه: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا** ﴾[٤]. وهذا ما يتعلق بالملكية.

وفي النواهي يقول سبحانه: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا** ﴾[٥]. ورسول الله ﷺ يقول هذا الحديث: **«الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حِمى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد**

(١) سورة البقرة: ١٨٧.
(٢) سورة المائدة: ٩٠.
(٣) سورة الأعراف: ١٩.
(٤) سورة البقرة: ٢٢٩.
(٥) سورة البقرة: ١٨٧.

مضغة إذا صلحتْ صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[١].

لذلك تجنب حدود الله؛ مثال ذلك قول الحق:

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٢].

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتي له زوجته لتناقشه في أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة في المسجد. ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة، لأن ذلك من حدود الله. وسبحانه يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾[٣].

وهنا في مسائل الميراث يقول الحق:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[٤].

وكان يكفي أن يقول الحق - من بعد بيان الحدود: «ومن يطع الله» ولكنه قال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وذلك لبيان أن لرسول الله ﷺ أن يضع حدوداً من عنده لما حلّ، وأن يضع حدوداً لما حرم. وهذا تفويض من الله لرسوله في أنه يشرِّع؛ لذلك فلا تقل في كل شيء: «أريد الحكم من القرآن».

ونرى من يقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه،

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٤٤٥٣)، وابن ماجه (٣٩٨٤).

(٢) سورة البقرة: ١٨٧.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) سورة النساء: ١٣.

وما وجدنا فيه من حرام حـرمناه. هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول ﷺ مفوض في التشريع، وهو القائل:

﴿ وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[1].

إنه ﷺ مفوض من الله، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا في سنة رسول الله، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله، وينسون أو يتجاهلون أن في الكتاب الكريم تفويضًا من الله لرسوله ﷺ أن يشرع.

هم يقولون: بيننا وبينكم كـتاب الله، فما وجدنا فيـه من حلال أحللناه وما وجدنا فيـه من حرام حرمناه. وقولهم مثل هذا الـكلام دليل على صدق رسول الله ﷺ فيما يقول، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا: يا رسول الله.

لقد روى المقدام بن معـد يكرب قال: حرَّم النبي ﷺ أشياء يوم خيـبر منها الحمار الأهلي وغيره فقال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يـحدِّث بحديثي فـيقـول: بيني وبينكم كتـاب الله فما وجـدنا فيـه حلالاً اسـتحللناه، ومـا وجدنا فـيه حـرامًا حـرمناه وإن ما حـرم رسول الله كـما حـرم الله»**[2].

فكيف يا سيدي يا رسول الله ذلك، ولم يقل أحد هذا الكلام؟

إذن: فقولهم الأحمق دليل على صدق الرسول ﷺ فيما أخبر. ويسخرهم الحق؛ فينطقون بمثل هذا القـول لنستدل من قول خصـوم النبي على صدق كلام النبي.

والحق يقول: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنَّات﴾[3]. والذي يطيع الله

---

(١) سورة الحشر: ٧.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أبو داود (السنة/ ٤)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وابن عبد البر (١/ ١٥٠) في التمهيد، والخطيب (١/ ٨٩) في الفقيه والمتفقه.

(٣) سورة النساء: ١٣.

ورسوله في الدنيا هو من أخذ التكليف وطبَّقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة في الآخرة. لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين، أو هو الجزاء على الدين؟

إنه الجزاء على الدين، وموضوع الدين هو السلوك في الدنيا، ومن يسير على منهج الله في الدنيا يدخل الجنة في الآخرة، فالآخرة ليست موضوع الدين، لكن موضوع الدين هو الدنيا، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك: لمَ تجعل للدين موضوعًا؟ إياك أن تقول: موضوع الدين هو الآخرة.. لأن الآخرة هى دار الجزاء، وفي حياتنا نأخذ هذا المثل: هل الامتحان موضوع المناهج، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة، وهى موضوع الامتحان؟

إن المناهج التي يدرسها الطالب هى موضوع الامتحان، وكذلك فالدنيا هى موضوع الدِّين، والآخرة هى جزاء لمن نجح ولمن رسب في الموضوع؛ لذلك فإياكم أن تقولوا: دنيا ودين، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين. فالدنيا تقابلها الآخرة والدين لهما. الدين مزرعة والآخرة محصدة. بهذا نرد على من يقول: إن الدنيا منفصلة عن الدين.

ومن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات، وهل دلالة «مَن» للواحد؟ لا، إن «من» تدل على الواحد، وتدل على المثنى وتدل على الجمع، مثال ذلك قولنا: جاء من لقيته أمس ونقول أيضًا: جاء من لقيتهما أمس، ونقول أيضًا: جاء من لقيتهم أمس. إذن: فـ «من» صالحة للمفرد والمثنى والجمع.

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع. كما قلنا في أول الفاتحة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

على الرغم من أن القياس أن تقول: «إياك أعبد وإياك أستعين». لكن قال

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

الحق سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة.

وهناك من يقول: إذا دلَّت: «من» على المفرد فقد لحظنا لفظها، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها.

ولمن يقول ذلك نقول: إن هذا الكلام غير محقق علميًّا؛ لأن «من» لم يقل أحد إنها للمفرد. بل إنها موضوعة للمفرد والمثنى والجمع. فلا تقل: استعمل لفظ «من» مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى، لأن لفظ «من» موضوع لمعانٍ ثلاثة: هى المفرد والمثنى والجمع.

وقد سألني أخ كريم في جلسة من الجلسات: لماذا يقول الحق سبحانه في سورة الرحمن:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1].

فقلت له: إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ﴾[2].

وبعد ذلك قال الحق:

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[5].

---

(١) سورة الرحمن: ٤٦.
(٢) سورة الرحمن: ١-٣.
(٣) سورة الرحمن: ١٤، ١٥.
(٤) سورة الرحمن: ٣١.
(٥) سورة الرحمن: ٣٣.

إذن: فمن خـاف مقام ربه، هو من الجـن أو من الإنس، إن كان من الجن فله جنة، وإن كـان من الإنس فله جنة أخرى. إذن: فـمن خاف مقـام ربه فله جنتان.

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن، لأن الله لا يعاني من أزمة أماكن، فحين شـاء أزلاً أن يخلق خلقًا أحصاهم عداً من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وعامل الكـل على أنه مؤمن مطيع وأنشأ لكل واحد مكانه في الجنة، وعامل سـبحـانه الكل على أنه عاصٍ وأنشـأ له مقعـداً في النار، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هي أزمة أماكن.

فإذا دخل صاحب الجنة جـنته، بقيت جنة الكافر التي كـانت معدة له على فرض أنه مؤمن؛ لذلك يقول الحق:

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا.

إذن: فالمعاني نجدها صوابًا عند أي أسلوب من أساليب القرآن.

وهنا يقول الحق: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[2]. ويجب أن نفـهم أن النهـر هو الشق الذي يسـيل فـيـه الماء وليس هو الماء، الحق يقـول: ﴿**يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ فأين تجري الأنهار؟

أتجري الأنهـار تحت زروعهـا، أم تحت بنيانها؟ ونعـرف أن الزروع هى التي تحتـاج إلى مياه، ونحن نريد أن نبـعد المياه عن المبانـي كيف؟ ولكن ليس هناك شيء مستحيل على الله، لأنها تصميمات ربانية.

فالخلق قد يشقّون نهـراً، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب في المباني، لكن

---

(١) سورة الزخرف: ٧٢.

(٢) سورة الفتح: ١٧.

تصميمـات الحق بطلاقة القدرة؛ تكون فيه الجنات تجرى من تحتهـا مياه الأنهار، ولا يحدث منها نشع، سواء من تحت أبـنية الجنات أو من تحت زروعها، والذي يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفـيض عليه ويلهمه، فهو - سـبحانه - يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول: ﴿**يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ ومرة أخرى يقول: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾[1] . فهذا ممكن وذاك ممكن.

فقوله - سبحانه : ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ**﴾ قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتيـة من مـوقع آخر وتجـرى وتمر من تحت الجنات. لا، هى تجـري منهـا أيضًا؛ يقول الله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[2]. حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى. إنها أنهار ذاتية. وعندما نقرأ أن الأنهـار تجري من تحت الجنات بما فيـها ومن فيهـا من قصور فقـد يقول قائل: ألا أسـتطيع أن آخذ من هذه وأنا مـهندس أضع تصميـمات مبـاني الدنيا وآخـذ من قول الحق أنه من الممكن أن تقـيم مـباني تجـري من تحتـها الأنهـار؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت.

نحن نقـيم القناطر وهى مـبانٍ وتجـرى من تحتـهـا الأنهار، وعندمـا تكون المواصفات صحيحة في الطوب والأسـمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة في المبنى. فـالخلل الذي يحدث في المبـاني عندنا، إنما يأتي من أثر الخيانة في التناول ومن الممكـن أن تجري الأنهار تحت قصور الجنة، التي فيـها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ألا يوحي ذلك للمهندس المسلم أن يحيا في هذه اللفـتة الإلهية ويأخذ منها علمًا ويستطيع أن يقيم مباني تجرى مـن تحتها الأنهار؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل؛ لفعل ذلك بتوفيق الله.

---

(١) سورة التوبة: ١٠٠.

(٢) سورة الفتح: ١٧.

ولنتكلم عن مصر التي تعاني من أزمة إسكان، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرًا كبيرًا من الأرض، سواء أكانت النيل، أم الفروع التي تأخذ من النيل، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة، نقيم عليها مباني تسع مرافق الدولة كلها، ويتم إنجاز المباني فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف. وليس معنى ذلك أن نبني كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمباني، ولكن نبني الثلث، ونترك فراغًا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة، إنها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أنّ يفكر فيها.

إن بلدًا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة، ونستطيع أن نبنى على الفراغات سواء أكانت فراغات في مساحات النيل، بشرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث. أم نبني المرافق تحت الأرض، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء في هذا المجال.

والحق يقول: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[1]. صحيح أن الجنة ستكون نعيمًا ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق، فالنعيم الذي يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور في معطيات النعيم، وقلنا قديمًا: إن عمدة إحدى القرى قال: أريد أن أبني مضيفة وحجرة للتليفون، ومصطبة نفرشها. هذا هو النعيم في تصور العمدة. ونحن في الحياة نخاف أن نترك النعيم أو يتركنا النعيم لكن نعيم الآخرة هو ثواب الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين لذلك تكون جنات النعيم دائمة، فلا أنت تموت ولا هى تذهب.

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]. وما هو «الفوز»؟

---

(١) سورة النساء: ١٣.

(٢) سورة النساء: ١٣.

إنه النصر، إنها الغلبة، إنه النجاح، إنه الظفر المطلوب.

فإذا كان فوزنا في الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التي يملكها الواحد منا، فما بالنا بالفوز الذي يأتي في الآخرة وهو فوز الخلود في جنة من صنع ربنا، أليس ذلك فوزًا عظيمًا؟

إننا إذا كنا نفرح في الدنيا بالفوز في أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذي يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة، ومهما ضحى المؤمن في سبيل الآخرة، فهناك فوز يعوض كل التضحيات، ويسمو على كل هذا.

وإذا قال قائل: ألم يكن من الأفضل أن يقول: ذلك الفوز الأعظم؟ نقول له: إنك سطحي الفهم؛ لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيمًا، لأن الأعظم يقابله العظيم، والعظيم يقابله الحقير، فحين يقول الحق عن فوز الآخرة: إنه عظيم، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه.

* * *

* قصة الحارث بن مالك مع الإيمان *

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[١] * وَبِالأَسْحَارِ[٢] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٣].

الإحسان أن تفعل شيئًا فوق ما افترضه الله، ولكن من جنس ما افترضه الله، والمحسن الذي يدخل في مقام الإحسان، هو من يعبد الله كأنه يراه، فإنْ لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه.

فالرؤية الإيمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك، وتكون من هذه الرؤية أكثر يقينًا من رؤية العين، لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة.

وقول رسول الله ﷺ حينما سأله جبريل عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤].

---

(١) الهجوع: النوم ليلاً. وقد يكون الهجوع من غير نوم.

(٢) السَّحَر: آخر الليل قبيل الصبح. والجمع: أسحار.

قال الحسن البصري والزهري: كانوا يتيقظون يصلون كثيراً من الليل.

وقال مطرف بن عبد الله: كان لهم قليل من الليل لا يهجعون فيه، كانوا يصلونه.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا كان السحر يقول: دعوتني اللهم فأجبتك، وأمرتني اللهم فأطعتك، وقلت:

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. فهذا السحر فاغفر لي. أخرجه عبد الرزاق (٢٩٨٠) في تفسيره.

(٣) سورة الذاريات: ١٥-١٨.

(٤) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١/ ٢٠)، (٦/ ١٤٤)، ومسلم (٨)، (٩)، وأحمد (١/ ٥١)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٩٩، ١٠٢)، وابن =

هو بيـان للرؤية الإيمانية في النـفس المؤمنة، فالإنسـان حين يؤمن، لابد أن يأخذ كل قـضاياه برؤية إيمانية، حتى إذا قـرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم يُنعَّمون، وإذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه، وكأنه يرى أهل النار وهم يُعذَّبون.

عن الحارث بن مالك الأنصـاري أنه مُر برسول الله ﷺ، فقال له: **«كيف أصبحت يا حارث؟»** فقال: أصبحت مؤمنًا حقًا.

قال: **«انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟»**.

فقال: عـزفت نفسي عن الدنيا، فـأسهرت ليلى، وأظمأت نهـاري، وكأنِّي أنظر إلى عرش ربي بـارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتـزاورون فيهـا، وكأنِّي أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها.

فقال ﷺ: **«يا حارث، عرفت فالزم، عرفت فالزم، عرفت فالزم»**[2].

ولنا العبـرة في سيدنا حـذيفة رضي الله عنه حينما سـأله رسول الله ﷺ فقال له: **«كيف أصبحت؟»**.

أي: كيف حالك الإيماني؟.

قال حذيفة: يا رسول الله، عزفت نفسي عـن الدنيا، فاستوى عندي ذهبها ومَدَرُها[3]، وكأنِّي أنـظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمـون، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون[4].

= ماجه (٦٣)، وابن حـبان (١٦)، وابن خزيمة (٢٢٤٤)، والبيـهقي (١٠/ ٢٠٣) في سننه الكبرى.

(١) يتضاغون: يصرخون.

(٢) حديث ضعيف أخرجـه ابن حبـان (١/ ١٥٠) في المجروحين، والعقـيلي (٢/ ٢٩١) في الضعفاء الكبير.

(٣) المدر: قطع الطين اليابس المتحجر.

(٤) لا أصل له.

أي: أن الذهب تساوى مع الحصى.

فالإنسان من أهل الصلاح يعرف أنه في لقاء دائم مع الله، لذلك يضع برنامجًا لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه.

يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(١)].

إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين، فيستحي أن يعصيه.

وعندما تتيقَّن أن الله ينظر إليك، فكيف تعصيه؟

أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبد مُسَاوٍ لك، فكيف تفعله مع الله؟!

ونحن نعرف أن من حسن العبادة في الإسلام، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً، وصلاة التهجد، وهذه في مدارج العملية الإيمانية التي يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان.

فهناك مؤمن يقرأ القرآن في وقت من الليل، ومؤمن آخر يقرأ القرآن في وقت آخر، وكأن المؤمنين يقطعون الليل كله في قراءة القرآن.

والذي يدخل مع ربه في مقام الإحسان، فهو لا يصلي فقط صلاة العتمة[(٢)]، وهي ستأخذ «إنيّ» واحدًا، أي: وقتًا واحدًا، ولكنه عندما يصلي في آناء الليل فذلك دليل أنه يُكرِّر الصلاة، وزاد عن المفترض عليه.

وما دام زاد عن المفترض، فهو لا يكتفي بتلاوة القرآن؛ لأنه يريد أن يدخل في مقام الإحسان.

أي: أنه وجد ربه أهلاً لأن يصلي له أكثر مما افتُرض عليه، كأنه قد قال

---

(١) سورة الحديد: ٤.

(٢) العتمة: ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق. وقيل: هي وقت صلاة العشاء الأخير.

لنفسه: أنت كلَّفتني يا رب بخمس صلوات، لكنك يا رب تستحق أكثر من ذلك.

فمعنى «محسن» أنه وَصْفٌ للإنسان الذي آمن بربه، فعبد الله بأكثر مما افتُرِض.

تعبَّدنا الله بخمس صلوات، فنزيدها لتصل إلى عشرين مثْلاً.

وتعبَّدنا الله بصيام شهر في العام، ومنا من يصوم في كل شهر عدداً من الأيام.

وتعبَّدنا الله بالزكاة بالنصاب[1]، ومنا من يزيد على النصاب.

وتعبَّدنا الله بالحج مرة في العمر، ومنَّا من يزيد عدد مرات الحج.

فحين يريد العبد أن يدخل في مقام الإحسان، فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبَّده الله به، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التي يعبد بها الله، ولكنه يزيد فيما افترضه الله.

وهذه دقة البيان القرآني التي تُوضِّح مقام الإحسان، فيكون في مالهم حق للسائل والمحروم، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان.

ومقام الإيمان - بالنسبة للزكاة مثلاً - قد جاء ذكره في قول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾[2].

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيِّد الإخراج من ماله بحدود الزكاة، أو فوقها قليلاً، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال.

---

(١) النصاب: القدر الذي تجب فيه الزكاة إذا بلغه.

(٢) سورة المعارج: ٢٤-٢٦.

ومثل هذا أيضًا، فقد كلَّف الله المسلم بالصلاة، وأعلمه بأنه حُر بعد صلاة العشاء، وله الحق أن ينام إلى الفجر، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر.

لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه، فيزيد من صلواته في الليل.

ويضيف الحق سبحانه مُذكِّرًا لنا بصفات المحسنين:

﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١].

أكلَّف الله الخالق بأن يستغفروا بالأسحار؟

لا. بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه، فذكر له أركان الإسلام، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة، فقال الرجل: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص».

فقال ﷺ: «**أفلح إنْ صدق**»[٢].

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفلحين.

إذن: فالذي يزيد على هذا يُدْخِله الله في نطاق المحسنين.

فالإحسان: هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مُسْتشعرًا أنه يراك، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك، فترتضي التكليف، وتزيد على ما كلفك.

فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان، لأنك حين جَرَّبْتَ أداء الفرائض ذُقْتَ حلاوتها، وعلمتَ أن الله يستحق منك أكثر مما كلَّفك به.

---

(١) سورة الذاريات: ١٨.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١/ ١٨)، (٣/ ٣١)، ومسلم (١١)، وأبو داود (٣٩١)، ومالك (١/ ١٧٥) في الموطأ بنحوه، والنسائي (٨/ ١١٨، ١١٩)، والدارمي (١/ ١٦٤)، والشافعي (٢٣٤)، وابن خزيمة (٣٠٦)، والبيهقي (١/ ٣٦١)، (٢/ ٤٦٧) في سننه الكبرى.

ولذلك فبعض الصالحين في أحد سُبحاته[١] قال:

«اللهم: إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة، لأنني أصبحتُ أشتهيها».

أي: صارت شهوة نفسي، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة، فيقول: يا رب، إني أصبحت أحبها، ومفروض منا أن نمنع شهوات أنفسنا، لكنها أصبحت شهوة، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل مقام الإحسان، واطمأنت نفسه، ورضيت، وأصبح هواه تبعًا لما أمر به الله ورَضِيه.

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين، قال:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾[٢].

لماذا هم مُحْسنون يا ربِّ؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[٣].

وهل كلَّفني الله ألاَّ أهجع إلاَّ قليلاً من الليل؟

لا، إن التكليف أن يصلي الإنسان العشاء من أول الليل، وينام حتى الفجر، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح، ويأنس العبد بالقرب من الله، فالحق لا يردُّ مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويُدخِله في مقام الإحسان.

---

(١) سبحاته: تسبيحاته ودعواته.

(٢) سورة الذاريات: ١٥، ١٦.

(٣) سورة الذاريات: ١٧.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

فالأعمال تتفاوت، فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل، أو بإخلاص المقارف(٢) للعمل، والمكتسب، والفاعل له.

فهناك مَنْ يُخلص بكل طاقته، وهناك مَنْ يؤدى عمله بنصف إخلاص.

ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين، إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول محمد ﷺ مُبلِّغًا عن رب العزة في هذا الحديث القدسي:

«الإخلاص سرٌّ من سرِّي، استودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادي»(٣).

إذن: فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات، فالدرجات تكون على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله - عز وجل - عليه.

والذي يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه في أداء ما عليه، فالذي يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحًا.

إذن: فمن الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، ويدق على باب الحق، فينفتح له الباب، و من الناس من يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانيًا.

ولله المَثَل الأعلى: أنت كواحد من البشر قد يدقُّ بابك إنسان يحتاج إلى لُقمة أو صدقة فتعطيه، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه.

فما بَالُنَا بعطاء الحق سبحانه لعباده؟

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٢.

(٢) الاقتراف: الاكتساب. ومقارفة الذنب: مداناته وملاصقته. والمقارفة: المخالطة.

(٣) حديثٌ ضعيفٌ: انظر: *إتحاف السادة* (١٠/٤٣، ٤٤) *للزبيدي*.

إذن: فمنهم من يصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله.

وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله، ويقرب الله من العبد، هناك يكون العبد في معيَّة الله، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضًا خمس مرات في اليوم، وترك سبحانه الباب مفتوحًا لتطوعك، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله إلا فعلتَ.

فقد يرى الواحد من عباد الله أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى، فيزيد من جنسها على ما فرض الله، ويصلي - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين، أو يصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع.

ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التي هى أشدُّ فلاحًا، إلا إذا كان في درجة أعلى.

والزيادة على ما فرضه الله، ومن جنس ما فُرض لها مَلْحظان:

الأول: أن العبد يشهد لربه بالرحمة، لأنه كَلَّف دون ما يستحق.

الثاني: أن عمل الطاعة قد خفَّف على المؤمن فاستراح بها.

ألم يَقُلْ رسول الله ﷺ عن الصلاة: **«أرحنا بها يا بلال»**[1].

وربُّ العزة سبحانه يقول في الحديث القدسي:

«ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إلى مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٤)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والطبراني (٦٢١٤)، (٦٢١٥) في الكبير.

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من الله في يد الخلق، ويُسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله، فمَنْ يكُنْ من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبه الله منه أكثر فأكثر.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى، وأن الله يستحق أكثر من ذلك، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل في مقام الودِّ مع الله تعالى.

ونحن حين ندخل في مقام الودِّ والإحسان مع الله ونصلي في الليل، ونكون بارزين إلى السماء، فلا يفصلنا شيء عنها، وننظر فنجد نجومًا لامعة تحت السماء الدنيا، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة في الأرض، ويسألون عنها، فيقال لهم:

إنها البيوت التي يصلي أهلها آناء الليل وهم يسجدون، وكل بيت فيه هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء.

* * *

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٨/ ١٣١)، والبغوي (٥/١٩) في شرح السنة، والبيهقي (٣/٣٤٦)، (١٠/٢١٩) في سننه الكبرى.

* قصة الحارث بن مالك الواثق بالله *

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾[١].

المتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله، مثال ذلك حينما سأل النبيُّ ﷺ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصاري: «**كيف أصبحت يا حارث؟**».

قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا. لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعاني هى الإيمان الحق؛ لذلك قال الرسول ﷺ: «**انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**».

أجاب الصحابي: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربّي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها «يتصايحون فيها».

فقال: «**يا حارث: عرفت فالزم ثلاثًا**»[٢].

والحق ساعة يقول: «سـ» وساعة يقول: «سوف» فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى، وكل عطاء من الله جميل. ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[٣].

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى

(١) سورة النساء: ١٢٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة النساء: ١٢٢.

الجنة بحق، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يذبل نباتها وشجرها وييبس ويتناثر، أو يصيبها الجدب، أمّا جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم، وإن لم تطلق كلمة «الجنة» من أي قيد أو وصف بل قيدت، فالقصد منها معنى آخر؛ كقول الحق:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾[2].

والجنة بربوة هي البستان على مكان عالٍ، وهي ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع في هذه الأرض، فيظل النبات أخضر اللون، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة: ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾[3].

ويزيد على ذلك أنها بربوة، وأنها تُرْوى بالمطر من أعلى، ومن الطل، فتأخذ الرّي من المطر للجذور، والطل لغسل الأوراق. كل ذلك يطلق على الجنة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[4]. ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضارتها وخضرتها، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة.

ونجد القرآن مرة يقول: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾[5]. وهذا يعني أن منبع المياه بعيد. ومرة أخرى يقول: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[6]. ويعني أن منبع المياه لن يحجزه أحد؛ لأن الأنهار تجرى

(١) سورة القلم: ١٧.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٦٥.
(٤) سورة النساء: ١٢٢.
(٥) سورة التوبة: ١٠٠.
(٦) سورة النساء: ١٢٢.

وتنبع من تحتها. ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة، والخلود هو المكث طويلاً، فإذا قال الحق: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[١]. أي: أن المكث في الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم.

وهذا وعد مَنْ؟ ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[٢]. وحين يعدك من لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه، أو لا يجد الوُجد واليسار والسِّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفي بما وعد به، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار[٣]، ولا يعجزه شيء، وليس معه إله آخر يقول له: لا. إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه.

قول الله هنا: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[٤]. هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا: أنا لا أريد أن أستفهم منك، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقرارًا منهم بصدق ما يقوله الله، أيوجد أصدق من الله؟

وتكون الإجابة: لا يمكن، حاشا لله، لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمرًا لم يكن الصدق ليحققه، أو لخوف ممن يكذب عنده، والله منزه عن ذلك، فإذا قال قولاً فهو صدق.

ويكرر الحق سبحانه قوله:

---

(١) سورة التوبة: ١٠٠.

(٢) سورة النساء: ١٢٢.

(٣) الأغيار: يقال: تغيرت الأشياء، اختلفت.

(٤) سورة النساء: ١٢٢.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾(١).

وجاءت كلمتا «ذكر» و«أنثى» هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله: «يعمل» أن المرأة مُعْفَاة منه؛ لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل، وفي ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر.

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾. وجاء سبحانه هنا بلفظة «من» التي تدل على التبعيض.. أي: على جزءٍ من كلّ فيقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل: «ومن يعمل الصالحات» لأنه يعلم خلقه. فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته. والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد، هذه هى أول مرتبة ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح؛ فالذي يرصف طريقًا حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح.

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح. وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد. كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان، كرصف طرق وصناعة

---

(١) سورة النساء: ١٢٤.

بعض الآلات التي ينتفع بها الناس، وقاموا بها للطموح الكشفي، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية وانطبق عليه أنه عمل صالحًا، لكنه غير مؤمن؛ لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها، وليس لهم جزاء عند الله.

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾[1].

قد يقول البعض: إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحًا أو سوءًا ونجد من يقول: من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العذاب، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم، والحق هو القائل: ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾[2].

ومن يعمل الحسنة يأخذ عشرة أمثالها. وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود، فكيف يأتي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾[3]. وهم قد أعطوا أضعافًا مضاعفة من الجزاء الحسن، ونقول: إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهًا أو مائة، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل.

أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف. إنه غير محدود ولا رجوع فيه. وهذا هو معنى: ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾، فسبحانه لا يكتفي بجزاء صاحب الحسنة بحسنة، بل يعطي جزاء الحسنة عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، ولا يتراجع

---

(١) سورة النساء: ١٢٤.

(٢) سورة يونس: ٢٧.

(٣) سورة النساء: ١٢٤.

عن الفضل؛ فالتراجع في الفضل -بالنسبة لله - هو ظلم للعبد. ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر، فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل، أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل.

وهو القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[2]. والنقير هو: النقرة في ظهر النواة، وهى أمر ضئيل للغاية. وهناك شيء آخر يسمى «الفتيل» وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نواة التمر، وشيء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه «القطمير».

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وعندما نتأمل كلمة «وعد» نجدها تأتي، وتأتي أيضًا كلمة «أوعد» و«وعد» وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به، تكون «وعد» للخير، و«أوْعَد» للشر. ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به، فالاثنان متساويان، فيصح أن تقول: «وعدته بالخير» ويصح أيضًا أن تقول: «وعدته بالشر». لكن إن لم تذكر المتعلق، فإن «وعد» تستعمل في الخير. و«أوعد» تستعمل في الشر. والشاعر يقول:

وإنِّي إنْ أوْعَدْتُه أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدى

---

(١) سورة يونس: ٥٨.

(٢) سورة النساء: ١٢٤.

(٣) سورة المائدة: ٩.

وحين يقول: «وعد الله» فهذا وعد مطلق لا إخلال به؛ لأن الذي يخل بالوعد هو الإنسان الذي تعتريه الأغيار؛ فقد يأتي ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه في موقف العاجز أو موقف المتغير قلبيًّا، لكن ساعة يكون الله هو الذي وعد فسبحانه الذي لا تداخله الأغيار، بل هو الذي يجرى الأغيار، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذي لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده، أما وعد البشر فقد تأتي قوة أخرى تعطل هذا الوعد.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ (١). سبحانه وتعالى يبيّن أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصي فإن تابوا فلهم مغفرة؛ لأن درء المفسدة مُقَدَّم على جلب المصلحة؛ فأنت قد تكون جالسًا ويأتي واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة، وفي اللحظة نفسها التي تمتد فيها يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنسانًا آخر يريد أن يصفعك، أي اتجاهات سلوكك تغلب؟ لابد أنك سترد على من يضربك أولاً. والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة. ونجده سبحانه وتعالى يأتي بأشياء تلفت القلب فهو يقول:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (٢).

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة. فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة، لذلك يقول الحق بداية: ﴿لهم مغفرة﴾. والإنسان منا ساعة تأتي له الخواطر يفكر في أشياء يطمح إليها، وهناك أشياء يخاف منها. وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه، يخاف من المفسدة، ويخاف من عدم تحقيق الآمال. إذن: فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

---

(١) سورة المائدة: ٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١]. وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمني، فأجر الإنسان على عمله في الدنيا يذهب ويزول؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت، أما أجر الآخرة فهو الباقي أبدًا، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان، ذلك هو الأجر العظيم.

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعاني يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون النفس مستعدة؛ لأن هناك تأميلاً في الخير وترهيبًا من الشر.

* * *

(١) سورة المائدة: ٩.

* قصة غلاء المهور في عهد الصحابة *

يقول الحق:

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[١].

فإذا ضاقت بك المسائل، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنًا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله، ماذا تفعل؟ يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ أي لك أن تستبدل ما دامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله، وعليك في هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن رضي الله عنه على الرجل الذي كان يستشيره في واحد جاء ليخطب ابنته. قال سيدنا الحسن رضي الله عنه: إن جاءك الرجل الصالح فزوجه، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

والحق يقول: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيًا، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج. وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية، فيطلقها ولا يتزوج، فما شروط المنهج في هذا الأمر؟

يقول الحق: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾[٢]. كلمة «قنطار» وكلمة «قنطرة» مأخوذة من الشيء العظيم. وقنطار تعني «المال». وقدروه قديمًا بأنه ملء مَسْك البقرة، و«المسك» هو الجلد، فعندما يتم سلخ

---

(١) سورة النساء: ٢٠.

(٢) سورة النساء: ٢٠.

البقرة يصبح جلدها مثل القربة، وملء مَسْكها يسمى قنطاراً، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنيَّة، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾** فهو يأتي لنا بمثل كبير وينهانا بقوله: **﴿فلا تأخذوا منه شيئًا﴾**. لماذا؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذي تدفعه ليس منساحًا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهي حياتكما، بل المهر مجعول ثمنًا للبضع الذي أباحه الله لك ولو للحظة واحدة، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك، لا، إنما هو ثمن البضع، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة.

إذن.. فهذا القنطار عمره ينتهى في اللحظة الأولى، لحظة تَمكُّنِك منها. **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾** وهذه هى المسألة التي قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أخطأ عمر وأصابت امرأة، لأنه كان يتكلم في غلاء المهور؛ فقالت له المرأة: كيف تقول ذلك والله يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾**، فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

عن عمر رضي الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت الله يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾**؟ فقال: اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: «إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب».

وعن عبد الله بن مصعب أن عمر رضي الله عنه قال: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة: ما ذاك لك، قال ولمَ؟ فقالت: لأن الله تعالى يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾** فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ».

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول: **﴿أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا﴾** لماذا؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً، بل هو ثمن تمكنك منها، وهذا

يحدث أوَّل ما دخلت عليها. وإن أخذت منها شيئًا من المهر بعد ذلك فأنت آثم، إلاَّ إذا رضيت بذلك، والإثم المبين هو الإثم المحيط.

ويأتي الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول: ﴿**وكيف تأخذونه**﴾. إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(١).

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ، لماذا؟ لأن الحق قال: ﴿**وكيف تأخذونه**﴾ وانظر للتعليل: ﴿**وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾. إذن فثمن البُضع هو الإفضاء، وكلمة ﴿**أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ كلمة من إله؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة، و«أفضى» مأخوذة من «الفضاء» والفضاء هو المكان الواسع، و«أفضى بعضكم» يعني دخلتم مع بعض دخولاً غير مضيق.

إذن.. فالإفضاء معناه: أنكم دخلتم معًا أوسع مداَخَلة، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا، ودخلت معها في الاتصال الواسع، أنفاسك، ملامستك، مباشرتك، معاشرتك، مدخلك، مخرجك، في حمامك، في المطبخ، في كل شيء حدثت إفضاءات، وأنت ما دمت قد أفضيت لها وهى قد أفضت لك كما قال الحق أيضًا في المداخلة الشاملة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٢).

أي شيء تريد أكثر من هذا؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها، قد

---

(١) سورة النساء: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ١٨٧.

يغضب، ونقول له: يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك، وأعطتك عرضها، فحين تشتد عليك لا تغضب، وتذكَّر حديث رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[1].

﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا**﴾ والميثاق هو: العهد يؤخذ بين اثنين ساعة سألت وليها: «زوجنى» فقال لك: زوجتك ومفهوم أن كلمه الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها؛ فهذا هو الميثاق الغليظ أى غير اللين والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ. ففى هذه الآية: ﴿**أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ فهنا إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسًا وسترًا للآخر ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾ لهذا كان الميثاق غليظًا وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها فإن كنت قد أعطيتها قنطارًا إياك أن تأخذ منه شيئًا لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء[2]، وما دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم، فلا تأخذ منه شيئًا، فالإفضاء ليس شائعًا في الزمن كي توزعه، لا.

والحق يقول: ﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم**

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، والدارمي (٢/ ١٥٩) في سننه، وابن حبان (١٣١٢)، (١٣١٥)، وابن أبي عاصم (٢/ ٦١٦) في السنة، والحاكم (٣/ ٣١١)، وابن سعد (٨/ ١٤٨) في طبقاته، والطبراني (١٩/ ٣٦٣) في الكبير، وأبو نعيم (٧/ ١٣٨) في الحلية.

(٢) أفضى: أي وصل إلى الشيء، والمراد بالإفضاء ههنا المعاشرة الزوجية أي: وكيف تأخذ الصداق من المرأة، وقد أفضيت إليها، وأفضت إليك.

قال ابن عباس، ومجاهد، والسدى، وغير واحدٍ: يعني بذلك الجماع.

ميثاقًا غليظًا﴾ هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾[1].

* * *

(١) سورة النساء: ٤.

* قصة حادثة الإفك وعائشة *

الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة في حَقِّ أم المؤمنين عائشة إفكًا فلابُدَّ أنهم قَلبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع.

والقصة حدثت في غزوة بني المصطلق، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته: مَنْ تخرج منهن معه. وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ، وفي هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجتْ معه، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة: ذهبتُ لأقضي حاجتي في الخلاء، ثم رجعت إلى هَوْدَجِي التمس عِقْدًا لي من (جَزْع ظَفَار)[1] وهو نوع نفيس.

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا، ولم تجد هَوْدجها فقالت في نفسها لابُدَّ أنهم سيفتقدونني وسيعودون. ولكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكُنْ فيه؟ قالوا: لأن النساء كُنَّ خِفَافًا لم يثقلن، وكانت عائشة نحيفة، لذلك حمل الرجال هَوْدجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله، ثم نامت السيدة عائشة في موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيها، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه، عَلَّه يجد شيئًا نسيه القوم أو شخصًا تخلَّف عن الرَّكْب[2].

وكان هذا المعقِّب هو صفوان بن المعطل[3]، فلما رأى شبحَ إنسان نائم فاقترب منه، فإذا هي عائشة ﵂، فأناخ ناقته بجوارها، وأدار وجهه حتى

(١) الجَزْع والجِزْع: نوع من الخرز اليماني، وهو الذي فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين، وظَفَار: قرية من قرى حمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (٦/٥٩، ٦٠).

(٣) صحابي جليل، عُرف بالعفة.

ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفسه، بدليل أن القرآن سمَّى ما قالوه إفْكًا يعني: مناقضًا للواقع، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولما قَدِم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموهما، وقالوا في حقهما مَالا يليق بأم المؤمنين، وقد تولّى هذه الحملة رَأْسُ النفاق في المدينة عبد الله بن أُبيٍّ ومِسْطح بن أُثَاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس.

ثم يقول سبحانه: ﴿**لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم**﴾[1]. لكن ما الخير في هذا الكلام وفي إذاعته؟ قالوا: لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات في قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن، لابُدَّ أن يعتبر الآخرون، ويخافوا إنْ فعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم؛ لذلك جاء هذا الموقف درسًا عمليًّا لمجتمع الإيمان.

نعم، أصبحت هذه الحادثة خيراً؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ولدعوته، فالحق - تبارك وتعالى - يُؤيِّد رسوله في الأشياء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه في الانتصار عليه، ولو بالتدليس، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْد الخفي، ففي ذروة عداء قريش لرسول الله كان إيمان الناس يزداد يومًا بعد يوم.

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة، فلم يفلحوا، فحاولوا أن يسحروه، وفعلاً صنعوا له سحراً، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة، فأخبره بذلك جبريل - عليه السلام -، فبعث رسول الله عليًّا فجاء به[2].

إذن: عجزوا في المواجهة، وعجزوا في التبييت والكيد، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به، وهنا أيضًا عجزوا في تشويه صورة النبوة والنَّيل

---

(١) سورة النور: ١١ .

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

من سمعتها، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه: اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبدًا، ومن هناك كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين.

ومع ذلك، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها، لكن تغيَّر لها رسول الله ﷺ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته، وكان يدخل عليها فيقول: «كيف تيكم»(١) وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سببًا إلى أنْ تصادف أنْ سارت هي وأم مِسْطح أحد هؤلاء المنافقين، فعثرتْ فقلت: تعس مِسْطح فنهرتها عائشة: كيف تدعو على ابنها، فقالت: إنك لا تدرين ما يقول؟ عندها ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها.

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر: قومي فاشكري رسول الله، فقالت: بل أشكر الله الذي بَرَّأني.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾(٢).

عادةً ما يستخدم الفعل «كَسَبَ» المجرد في الخير، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر، لماذا؟ قالوا: لأن فِعْل الخير يتمشي وطبيعة النفس، وينسجم مع ذراتها وتكوينها، فالذي يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئًا في نفسه، ولا يعارض ملكَة من مَلكَاته، أو عادة من العادات.

وهذه نلاحظها حتى في الحيوانات، ألاَ ترى القطة: إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها، وإنْ أخذتْها منك خَطْفًا تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيدًا عنك. إذن: في ذاتية الإنسان وفي تكوينه - وحتى في الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر، والصواب والخطأ.

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعيًّا مطمئنًا؛ لأن ملكَات

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة النور: ١١.

نفسك معك موافقة لك لا تعـارضك في هذا الفعل، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلَ لك تختلس النظرة وتسرقها، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد، وقد ترتبك ويتغـير لونك، لماذا؟ لأنك تفـعل شيئًـا غير طـبيعي، لا حَقَّ لك فـيه، فتعارضك ملكَاتْ نفسك، وذراتُ تكوينك. فالأمـر الطبيعي تستجيب له النفس تلقـائيًّا، أمّا الخطأ والشـر فيحتـاج إلى افتعال، لـذلك عبَّر عن المكر والتبـييت والكيد بـ «اكتسب» الدال على الافتعال.



* قصة أم سلمة صاحبة العقل والدين *

إننا عندما نتدبر ما جاء في حديث شريف لرسول الله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ[١] منكن**»[٢].. نجد أن البعض أخذ هذا الحديث على أنه إهانة للمرأة وَحَطٌّ من كرامتها، ومنزلتها في المجتمع، وأنه اتهام لها بنقص العقل والدين.

لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا.. لأن هذا الحديث يشرح لنا طبيعة المرأة من ناحية التكوين. فالمرة بطبيعة تكوينها تغلب عليها العاطفة، وهذا ليس عيبًا، ولكنه ميزة تناسب مهمتها في الحياة، لأنه مفروض بطبيعتها أن تعطى من الحنان أكثر، ومن التفكير العقلي أقل.

إنها هى التي تحنو، وهى التي تمسح الدموع، وتضع مكانها الابتسامة، وهى التي تمسح تعب اليوم وشقاءه عن زوجها وأولادها، ولا يتم هذا بالعقل، ولكنه يتم بالعاطفة.

إن هذا لا يعني طعنًا في فكر المرأة وذكائها .. وإن كان يعني كشفًا عن طبيعتها.

ويهمني أن ألقي ضوءاً على حدث هام كان للمرأة دور كبير في حَسْمه مما يدل على رجاحة العقل وحسن التصرف.. ذلك الحدث هو صلح الحديبية.. ذلك الصلح الذي كان انتصاراً للدعوة الإسلامية.. وبداية لنشرها في كل أنحاء الجزيرة العربية.

---

(١) اللب: العقل.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١٤٦٢)، ومسلم (٧٩)، وأبو داود (٤٦٧٩)، والنسائي (١٨٦/٣)، وابن ماجه (٤٠٠٣)، وأحمد (٦٦/٢)، والبيهقي (٢٣٥/٤)، (١٤٨/١٠) في سننه الكبرى.

فما هي هذه الأحداث التي سبقت هذا الصلح؟

كان المسلمون قد أحرموا واتجهوا إلى بيت الله الحرام لأداء العمرة، ومعهم الهدي الذي سيذبحونه عند الانتهاء من العمرة والطواف ببيت الله الحرام، وتصدى لهم الكفار، ومنعوهم من دخول مكة ومن الطواف بالبيت الحرام.

وانتهى هذا التصدي بتوقيع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وكفار مكة، وفيه تعهد الكفار . . بألا يتعرضوا للمسلمين ولا لحلفائهم . . ولا لنشر الدعوة الإسلامية . . ولا يتعرض المسلمون لحلفاء قريش ومن كان في حمايتها . . وكان هذا أول تعهد من كفار مكة ألا يتعرضوا للمسلمين.

إن الدعوة الإسلامية كانت محتاجة إلى حرية الرأي، وحرية الكلمة، وعدم التعرض لدعاة المسلمين بالقتل والتعذيب . . أما نشر الدين واعتناق الإسلام . . فإن الإسلام يملك من الأدلة ومن الهدى، ومن المنطق والحجة، ما يجعل كل من استمع إلى تعاليمه يعتنقه.

حينما تم توقيع صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ المسلمين. بأن يذبحوا الهدي، ويحلوا إحرامهم، ولكن الحمية الدينية في داخلهم، والصلح الذي منعهم من الطواف ببيت الله الحرام . . أشعلت ثورة في صدورهم . . منعتهم أن يروا الحكمة في توقيع هذا الصلح . . وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذا الصلح إشارة لانتصار الإسلام وفتح مكة.

لقد غابت عنهم الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى منعهم من القتال . . لأن في مكة مسلمين يكتمون إسلامهم، ويبقون إيمانهم في صدرهم، وأنه لو حدث قتال في هذا الوقت لقتل المسلمون بعضهم بعضًا وهم لا يعلمون . . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ[١] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ[٢] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ[٣] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[٤] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٥].

وهكذا بيَّن الله سبحانه وتعالى للمسلمين.. الحكمة في أنه منعهم من القتال يوم صلح الحديبية، لأن هناك رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات في مكة يكتمون إيمانهم..

وقوله تعالى: ﴿لو تزيلوا﴾. أي لو كانوا معروفين ويجمعهم مكان واحد بحيث يكونون مميزين عن الكفار..

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٦].. أي تقتلونهم وأنتم لا تعلمون أنهم مؤمنون، وقوله سبحانه: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾.. أي تشعرون بالعار والخزى.. لأنكم قتلتم مؤمنين.. ولذلك كانت الحكمة من عدم الإذن بالقتال يوم صلح الحديبية.

ثم يبين لنا القرآن الكريم كيف أن الله جل جلاله هو الذي أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين حتى لا يقاتلوا.. فيقول سبحانه:

---

(١) الهدي: ما يهديه الحاجُّ من الأنعام لفقراء البيت الحرام. معكوفًا: محبوسًا ومخصصًا لفقراء البيت الحرام.

(٢) تطؤوهم: تهلكوهم مع الكفار.

(٣) معرة: مضرة أو إثم أو سُبَّة.

(٤) لو تزيلوا: لو تميز المؤمنون عن الكفار في مكة.

(٥) سورة الفتح: ٢٥.

(٦) سورة الفتح: ٢٥.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[١].

نقول: «إن رسول الله ﷺ أمر المؤمنين بأن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن أحدًا منهم لم يفعل ذلك، فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام على زوجته أم سلمة بنت أبي أمية وهو شديد الغضب، فقالت. مالك يا رسول الله؟ فلم يرد.. فكررتها عدة مرات.. حتى قال ﷺ: «**هلك المسلمون، أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا**» فقالت أم سلمة: يا رسول الله لا تلمهم فإن داخلهم أمرًا عظيمًا مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدًا منهم، وانحر هديك واحلق رأسك ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وقام المسلمون فنحروا وحلقوا»[٢].

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ أخذ برأي زوجته «أم سلمة» في أمر من أشق الأمور وأشدها.. ولو كان عقلها ناقصًا.. نقص ذكاء أو نقص استيعاب ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها. ولكن نقص العقل في الحديث الشريف معناه: أنها تفعل أشياء يقف العقل عندها، وإنما تفعلها بالعاطفة.

ولكي نفهم معنى الحديث الشريف، لابد أن نعرف ما هو العقل؟ ليفهم الناس من التسمية مهمة العقل. إن العقل مأخوذ من العقال، وهو مقود الجمل الذي لا يجعله يسير على غير هدى، إنما يخضعه لمشيئة راكبه.

الجمل لو ترك على هواه بغير عقال.. لجرى هنا وهناك، وكلما رأى عشبًا مثلاً انطلق إليه.. يسير يمينًا ويسارًا.. ولا يصل أبدًا إلى المكان الذي يريد صاحبه أن يصل إليه، ولكن مهمة العقال أن يحكم حركة الجمل، بحيث يسير في الطريق المرسوم الذي يوصله إلى الغاية المطلوبة، فإذا انحرف يمينًا أو يسارًا

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.

(٢) سبق تخريجه.

استخدم راكبه العقال ليجعله يسير في الطريق السليم. وهذه مهمة العقل.. مهمته أن يكبح شهوات النفس، ويجعلها تسير في الطريق المرسوم.

أما الرجل فحياته عقلانية أكثر من المرأة، لأن مهمته هى السعي على الرزق، فلابد أن يرتب الأشياء ترتيبًا عقليًا لا مكان فيه للعاطفة.. فإذا لم يكن معه إلا بضعة جنيهات حتى آخر الشهر، وجاء ابنه أو ابنته، وطلبا منه شيئًا فإنه لا يعطيهما.. فإذا ألحا في الطلب انفعل عليهما، لماذا؟ لأنه حكم عقله بما هو مطلوب منه، وأخذ الطريق الذي لا عاطفة فيه.

لنفرض أن الابن أو الابنة ذهب إلى الأم وطلب نفس المطالب، ونزلت دموعه، ماذا يحدث؟ إذا لم يكن معها مال تقترض.. تذهب إلى الجارات لتشترك في جمعية.. تتحايل بشكل أو بآخر.. حتى تأتي لابنها أو لابنتها بما طلبوا.

المهم أنها عندما تفكر بعقلها تغلب عليها العواطف.. بل قد تندفع بعاطفتها لإرضاء أولادها.. حتى إنها قد تقترض، وهى لا تعرف من أين سترد القرض؟ أو من أين تدفع أقساط الجمعية؟ والمهم في هذا كله أن تفكيرها.. يكون خاضعًا دائمًا للعاطفة وليس للعقل، بحيث لا ترتب الأحداث ترتيبًا عقليًا.

إننا نرى الأولاد إذا احتاجوا شيئًا، وعلموا أن أباهم لن يوافق لأي سبب من الأسباب.. أسرعوا إلى الأم هى التي تأتي لهم بالموافقة.. وهى بعاطفتها تؤثر على الأب.

وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً آخر.. لنفرض أن الأب عاد إلى بيته متعبًا، يريد أن ينام ويستريح، وإذا بطفله الرضيع يبكي، أول شيء يفعله الأب هو أن يبحث عن مصلحته كما يدله عليها عقله.. إنه يريد أن ينام، ولديه عمل في الغد فيذهب إلى حجرة أخرى لينام.

ورغم أن هذا هو التصرف الفعلي السليم، فإن الأم لا تفعله أبدًا مهما كانت متعبة أو مجهدة، فإنها تبقى ساهرة بجوار ابنها. . بل إنها لو كانت مرتبطة بموعد هام، وهى في طريقها إلى الباب ووجدت درجة حرارة ابنها ارتفعت ارتفاعًا كبيرًا فجأة. . نجد أن الأب يذهب إلى الموعد حتى ولو كان هو يقوم مقام الأب والأم، في حالة وفاة زوجته، ولكن الأم مستحيل أن تفعل ذلك.

وتستطيع أن تقيس على هذا مئات الأحداث التي تقع كل يوم، وتقارن فيها بين موقف الرجل والمرأة، لتجد أن عاطفة المرأة أقوى من عقلها.

لماذا؟ لأن هذه مهمتها في الحياة، ولو لم تكن العاطفة أقوى من العقل في المرأة، لما سهرت الليالي بلا نوم بجوار ابنها المريض، ولما عاشت وتحمّلت لتبقى مع زوجها وأولادها في الأزمات، ولما استطاعت أن تتحمل مشقة التربية وصعابها.

إن تضحية الأم من أجل أولادها، شيء لا يمكن إذا حكمنا فيه العقل أن يحدث، ولكن العاطفة وجدت هنا لتؤدي المرأة مهمتها، ولذلك عندما سأل أحد الرجال رسول الله ﷺ : «من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «**أمك**». . فقال الرجل: ثم من؟ . . فقال الرسول: «**ثم أمك**». . فقال الرجل: ثم من يا رسول الله؟ قال ﷺ : «**ثم أمك**». . وسأله الرجل: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[١].

وقال ﷺ : «**الجنة تحت أقدام الأمهات**»[٢].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) حديثٌ ضعيف: ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٠٧٨) وعزاه للخطيب في جامعه والقضاعي في مسنده عن أنس بن مالك. وفيه من لا يُعرف.

* قصة ابن عمر والجارية الجميلة *

يروي أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما كان عنده جارية جميلة من فارس وكان يحبها فلما سمع الآية ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]. قال: ليس عندي أحب من هذه الجارية، وأعتقها. فلما أعتقها وكان من الممكن أن يتزوجها لكنه قال لولا أن ذلك يقدح في عتقها لتزوجتها[2].

* * *

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٦١) ولفظه:

تلوتُ هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فذكرت ما أعطاني الله - عز وجل - فما وجدت شيئًا أحب إليَّ من جاريتي رضية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلولا أني لا أعود في شيءٍ جعلته لله - عز وجل - لنكحتها، فأنكحها نافع، فهي أم ولده.

* قصة أبي ذر والشركاء *

وسيدنا أبو ذر ﷺ يعطينا في مسألة الإنفاق درسًا من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية فيقول: في المال شركاء ثلاثة:

الشريك الأول: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، أي أن القدر لا يستأذن عبدًا في أن يذهب المال حيث يريد، فتأتي أي مسألة لتأخذ المال إلى هلكة أو موت.

والشريك الثاني في المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول: الوارث ينتظرك إلى أن تضع رأسك، ثم يشاقها وأنت ذليل، إن الوارث يقول لنفسه: «لأستمتع بما ترك لي».

والشريك الثالث في المال: أنت، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها. أي: إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث، إنما عليك أنت أن تغلب على مالك بإنفاقه في سبيل الله وإلا لأخذ الشركاء منك المال.

إذن.. لقد انفعل صحابة رسول الله ﷺ بالآية حينما نزلت بصورة تبين عن مدى الخير المحبوب منهم إلى غيرهم وكان جزاء ذلك الجنة.

لقد عرفوا قول الحق: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ﴾[1]. أي: الجنة المترتبة على الطاعة والتقوى وكلها معان ملتقية.

إذن.. الحق سبحانه يعطي البر ثمنًا لإنفاقك مما تحب، ويعلم سبحانه كل شيء، وهو الذي يعرف هل أنفقت مما تحب فعلاً أم تيممت الخبيث منه لتنفقه، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك في هذا الأمر لأن الذي يعطي البر ثمنًا لإنفاق

---

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

ما تحب يعلم خبايا النفس، قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [(١)]. وعلم الله شامل، فهو سبحانه يعلم ما في نيتك وكيف أنفقت.

* * *

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

* قصة ابن عبيد مع جعفر الصادق *

الحق يقول: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ و«السيئات» منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء، قالوا: معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ما داموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر نقول: لا، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك، فالحق يكفر ما فلت منك فقط؛ ولذلك يقول الحق:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[(١)].

يفعلون الأمر السيىء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[(٢)].

إذن . . فمعنى أنك تصر على صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون؟ . يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

فإن أخذت هذه فخذ تلك، خذ الاثنين، فلا كبيرة مع الاستغفار، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار. وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا: الكبيرة هى ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة، والتي لم يأتِ فيها حد فقد دخلت في عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر.

(١) سورة النساء: ١٧ .

(٢) سورة النساء: ١٨ .

وإن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها، وهو الذي قال فيه أحد الخلفاء: كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد، أي أن كل العلماء يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد، إذن فقد شهد له هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء، بل قال: أريد أن أعرفها من نص القرآن، الذي يقول لي على الكبيرة يأتيني بنص من القرآن.

ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يسأل؛ لأنه عالم أهل البيت؛ ولأنه قد بحث في كنز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الفيض، فقال ابن عبيد: هذا هو من أسأله، فلما سلم وجلس قرأ قول الله سبحانه:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾[1].

ثم سكت!! فقال له سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق: ما أسكتك يا ابن عبيد؟

قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

وانظروا إلى معرفة كنوز القرآن، ساعة قال له: «أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله». قال أبو عبد الله : نعم، أي على خبير بها سقطت، أي جئت لمن يعرفها، ثم قال: «الشرك بالله، قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾[3].

---

(١) سورة النجم: ٣٢.

(٢) سورة النساء: ٤٨.

(٣) سورة المائدة: ٧٢.

وأضاف: واليأس من رحمة الله فإن الحق قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [١].

وهكذا جاء سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله، وأضاف: ومن أمن مكر الله؛ لأنه سبحانه قال:

﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٢].

والكبيرة الرابعة: عقوق الوالدين؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقي، قال تعالى:

﴿وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياًّ﴾ [٣].

وقتل النفس. قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [٤].

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٥].

وأكل الربا. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [٦].

والفرار يوم الزحف، أي إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون وفر واحد من الزحف. فقد قال تعالى في شأنه:

---

(١) سورة يوسف: ٨٧.

(٢) سورة الأعراف: ٩٩.

(٣) سورة مريم: ٣٢.

(٤) سورة النساء: ٩٣.

(٥) سورة النور: ٢٣.

(٦) سورة البقرة: ٢٧٥.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١).

وأكل مال اليتم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (٢).

الزنا. قال تعالى:

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا.. ﴾ (٣).

وكتمان الشهادة.. قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٤).

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شيء فعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله، وهو قد فعله، أي القسم الذي لا يتعلق بشيء مستقبل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥).

والغلول أي أن يخون في الغنيمة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٦).

وشرب الخمر؛ لأن الله قرنه بالوثنية. قال تعالى:

---

(١) سورة الأنفال: ١٦.

(٢) سورة النساء: ١٠.

(٣) سورة الفرقان: ٦٨، ٦٩.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٣.

(٥) سورة آل عمران: ٧٧.

(٦) سورة آل عمران: ١٦١.

﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

وترك الصلاة؛ لأن الله قال: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ﴾[٢].

ونقض العهد، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾[٣].

إذن.. فكل هذه، هى الكبائر بنص القرآن، وكل كبيرة معها حكمة، عرضها لنا سيدنا «جعفر الصادق» عندما سأله ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد.. «نعم» أي إن جوابك عندي، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت في ذهنه، وخصوصًا أنها ليست آيات رتبية مسلسلة متتابعة! بل هى آيات يختارها من هنا ومن هناك، مما يدل على أنه يعايش أسرار القرآن.

* * *

(١) سورة المائدة: ٩٠.
(٢) سورة المدثر: ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة البقرة: ٢٧.

* قصة جعفر الصادق مع العجائب *

قد كان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها، فقال:

عجبتُ لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١).

فإني سمعت الله يقول بعقبها:

﴿فَانقَلَبُوا (٢) بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

وعجبت لمن اغتمَّ، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤).

فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

وعجبتُ لمن مُكِر به، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٦).

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٢) انقلبوا: رجعوا. ويقول تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥].

(٣) سورة آل عمران: ١٧٤.

(٤) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٥) سورة الأنبياء: ٨٨.

(٦) سورة غافر: ٤٤.

لأني سمعت الله تعالى يقول بعقبها:

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ[١] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[٢].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[٣].

لأنِّي سمعت الله تعالى يقول بعقبها:

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً[٤] مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً[٥] زَلَقًا﴾[٦].

وهكذا وجد جعفر الصادق ﷺ في كتاب الله أربع آياتٍ لأربع حالات نفسية تصيب البشر، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

ونحن نعرف أن أول ما يُهدِّد حياة الإنسان هو الخوف، وقد يكون غير معروف سببُه، ومرة يحدث للإنسان انقباض قد لا يعرف سببه، فيقول: أنا صدري منقبض، ولا أعرف له سببًا، فهذا غَمّ لا يُعرف سببه.

وهناك مَنْ يخاف من مكْر الناس به، وهناك مَنْ يطلب الدنيا، ويريد أن يكون عنده كذا وكذا من متاعها وزينتها.

فهذه الأحوال التي تعترى الإنسان:

إما خوف، وإما غمّ وكَرْب يلحق به دون أن يعرف له سببًا.

وإما أنْ يخاف من مكْر الناس به وتآمرهم عليه.

---

(١) حاق به الشيء حيقًا: نزل به وأحاط به. وقيل: الحيق في اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله.

(٢) سورة غافر: ٤٥.

(٣) سورة الكهف: ٣٩.

(٤) الحسبان: العذاب والبلاء.

(٥) صعيداً زلقًا: أي بلقًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم.

(٦) سورة الكهف: ٤٠.

ومرةً يشغل نفسه بطلب الدنيا ويسعى إلى تحقيق أهداف معينة، ويريد أن يترف حياته، ويرقى معيشته، ويجهد نفسه في سبيل الحصول على هذه الأشياء.

فسيدنا جعفر الصادق عمل (روشتة) للإنسان المؤمن وأخذها من القرآن؛ لأن الطبيب حينما يكتب روشتة لمريض يكون قد أخذ هذا العلم مِمّا قرأه ودرسه من كتب ومراجع في كلية الطب وغيرها.

ولكن جعفر الصادق أتى بهذه الروشتة للإنسان من خالق الإنسان، من قرآنه الكريم:

والقرآن هو الذكر، ورب العزة يقول في حديثه القدسي:

«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وقد وردتْ معانٍ كثيرة للذكر في القرآن، وأول هذه المعاني وقِمّتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾[1].

وكذلك في قوله الحق:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[3].

والدعاء: طلبٌ من عاجز يتجه به لقادر في فعل يحبه الداعي، وحين تدعو ربك ادْعُه مخلصًا له الدين، بحيث لا يكون في بالك الأسباب؛ لأن الأسباب إن كانت في بالك فأنت لم تخلص الدين.

---

(١) سورة آل عمران: ٥٨.

(٢) سورة الحجر: ٩.

(٣) سورة الأعراف: ٢٩.

فمعنى الإخلاص هو تصفية أي شيء من الشوائب التي فيه، والشوائب في العقائد وفي الأعمال تُفسد الإتقان والإخلاص، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتي له هذه المسألة.

* * *

* قصة القاضي عياض قاطع الطريق *

كان رسول الله ﷺ يقول: «إنِّي لَيُغانّ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»(١).

إذن: فالإخلاص عملية قلبية.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾(٢).

أي: اجعل الدين خالصًا لوجه الله، وابتعد عن الرياء، لأن الذي تُرائيه لن يُعطيك شيئًا، لكن حين تُخلص عبادتك لله، سيُعطيك كل شيء.

فالرياء يُحبط العمل، ومع ذلك فالذي يتصدّق رياءً، نحن لا نرفض صدقته؛ لأنها ستنفعُ المحتاج، ولكن هو الخائب الذي خسر الأجر.

والمخلِص يصل بإخلاصه إلى عطاء الله، فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله، فالله يأخذه من المعصية إلى الطاعة.

مثل القاضي عياض الذي كان قاطعَ طريق، فخرج ذات مَرَّة ليقطع الطريق على الناس فسمعهم يقولون: ابتعدوا عن هذا المكان، لأن فيه «عياض»، وعياض لا ينجو منه أحد.

فلما سمع خوف الناس ورعبهم منه، راجع نفسه وحاسبها، وقال: يا رب، تُبْ عليّ حتى يهدأ هؤلاء، فاستجاب الله دعوته وتاب عليه.

فلمَّا تاب الله عليه وأصبح من الأتقياء، سأله مَنْ كانوا يعرفون فظاعته وقسوة قلبه، فسألوه عن هذا التحولُ في حياته، وما سببُ هدايته؟

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) سورة الزمر: ٢.

فقال: والله إني لأعرف سببها، لقد مررتُ في سوق البطيخ في بغداد، فوجدتُ ورقةً من المصحف في الطريق يدوسها الناس، فانحنيتُ عليها وأخذتُها، فوجدتها مُتسخة، فمسحتُها وذهبتُ على بائع الروائح، وكان معي درهم واحد، فاشتريت به عِطْرًا، وعطَّرْت الورقة، ووضعتُها في شِقٍّ مرتفع في جدار.

والذي نفسي بيده، لقد سمعت مناديًا ينادي:

يا عياض.. لأُطيبنَّ اسمك كما طَيَّبْتَ اسمي.

ولذلك أكرمه الله، وصار بعد شقاوته وَلِيًّا من أولياء الله.

والرسول ﷺ يقول:

«إن الله أَخْفى ثلاثًا في ثلاث:

- أخفى رِضَاه في طاعته، فلا تحتقرنّ طاعة ما.

- وأخفى غضبه في معصيته، فلا تحتقرنّ معصية ما.

- وأخفى أسراره في خَلْقه»[١].

فالمسلم يجب عليه ألا يحتقر طاعة من الطاعات، فقد تكون فيها الخير كله، كذلك لا تحتقرنّ معصية من المعاصي مهما صَغُرَتْ في نظرك.

فقد أخبر رسول الله ﷺ أن امرأة دخلتْ النار في هِرَّة، حبستها، لا هى أطعمتْها، ولا سَقَتْها، ولا تركتْها تأكل من خشاش[٢] الأرض[٣].

كذلك أخفى الحق سبحانه أسراره في خلقه، فهذا الرجل احترم ورقة المصحف المُلقاة على الأرض، ونظَّفها وعطَّرها بالدرهم الذي كان معه، ووضعها في الشقِّ، فسمع مناديًا يناديه:

---

(١) لا أصل له.

(٢) خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها.

(٣) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢)، والبيهقي (٥/ ٢١٤)، (٨/ ١٣) في سننه الكبرى.

«يا عياض.. لأطيبنَّ اسمك كما طَيَّبتَ اسمي».

فاجعل عبادتك له وحده، ولا تلتفت إلى شيء غيره، لأنك إذا التفت إلى شيء غير الله فلن يُعطيك عليها أجراً، فلا تجعل له شريكًا في هذا. ويُعقب الله هذه الآية بقوله:

﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[1].

الدين الخالص شَرْع مَنْ؟

إنه شرع الله، وهو مَنْ يُجازي عليه، فاحذر أن يكون عملك في منهج الله مقصودًا به غير الله؛ لأن هذا لن يُعطِيك أجراً، ولن ينفعك شيئًا.

فكأن الله يريد أن يُحصِّن حركة الإنسان في كل شيء، فلا يصنع حركاتٍ لا تأتيه بخير، ويقول له: اعمل هذه ليأتيك الخير، فربُّنا حريص على أنْ يأتيكَ الخير من كل عمل.

وقد قال تعالى عن المنافقين:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ[2] الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾[3].

فقد أكَّد الحق سبحانه هنا على الإخلاص، لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً، وكل جارحة من جوارح الإنسان لها مجال معصية، ومجال معصية القلب هنا هو النفاق، وهو الأمر المستور.

إذن: فقول الحق: ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾[4].

---

(١) سورة الزمر: ٣.

(٢) الدرك: أقصى قعر الشيء. والجمع أدراك ودركات. وهى بعضها تحت بعض.

(٣) سورة النساء: ١٤٥، ١٤٦.

(٤) سورة النساء: ١٤٦.

جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق، والإخلاص محلُّه القلب، فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح، فتوبة الجوارح تكون بأنْ تكفَّ الجوارح عن مجال معاصيها.

أما توبة القلب فهو أن يكفَّ عن مجال نفاقه، بأن يخلص.

وكُلّ عمل سيُجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله، والله سبحانه وتعالى لا يُفضِّل أحدًا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله، ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولاً.

وقد يكون العمل واحدًا أمام الناس، هذا يأخذ به ثوابًا، وذلك يأخذ به وِزْرًا وعذابًا. فالمهم هو أن يكون العمل خالصًا لله.

وقد يقول إنسان: إن الإخلاص في العمل، والعمل مكانه القلب، وما دام الإنسان لا يؤذي أحدًا ولا يفعل منكرًا فليس من الضروري أنْ يُصلِّي، ما دامت النيةُ خالصةً.

نقول: إن المسألة ليست نيّات فقط، ولكنها أعمال ونيّات.

ورسول الله ﷺ يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1].

فلابُدَّ من عمل بعد النية؛ لأن النية تنتفع بها وحدك، والعمل يعود على الناس، فإذا كان في نيتك أنْ تتصدّق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك، ولكن إذا لم يكُنْ في نيتك فعل الخير، وفعلته لتحصل على سمعة، أو لتُرضي بشرًا انتفع الفقراء بمالك، ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال.

(١) **حديثٌ صحيحٌ**: أخرجه البخاري (١/٩، ١٣٥)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، وأحمد (١/٢٥)، وابن خزيمة (١٤٢)، والطيالسي (ص/٩)، وابن حبان (٣٨٨).

وقال الشافعي - رحمه الله - عن هذا الحديث: هو ثلث الإسلام، يدخل في سبعين بابًا من الفقه.

والله سبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملك بنية الإخلاص لله، والعمل حركة في الحياة، والنية هى التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب.

ولذلك يقول الله جل جلاله:

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق، والفقير سينتفع بالصدقة، سواء كانت نيتك أن يقال عنك: «رجل الخير المُتصدِّق» أو: أن يقال عنك: «رجل البر والتقوى» . أو: أن تُخفى صدقتك. فالعمل يفعل، فينتفع به الناس، سواء أردْتَ أم لم تُرِدْ.

أنت إذا قررتَ أن تبني عمارة، فالنية هنا هى التملُّك، ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل، ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض، والذي أعدَّ لك الرسم الهندسي، وعمال الحفْر، والذي وضع الأساس، ومَنْ قام بالبناء، وغيرهم وغيرهم.

هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم، سواء أكان في بالك الله أم لم يكُنْ في بالك الله، فقد انتفعوا.

إذن: فكُلُّ عمل فيه نَفْعٌ للناس أردْتَ أم لم تُرِد، ولكن الله لا يجزي على الأعمال بإطلاقها، وإنما يجزي على النيَّات بإخلاصها، فإنْ كان عملُكَ خالصًا لله جزاكَ الله عليه، وإنْ كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله، لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك.

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً لإخلاص الدين لله، حتى مِمَّنْ يشركون بالله، فيقول تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ

(١) سورة البقرة: ٢٧١.

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[١].

وكلمة «أحيط بهم» معناها لا يوجد مَنْجى ولا مَخْرج لهم ولا مَهْرب، ولا أسباب الدنيا تنفع في هذا الموقف، فهنا لا مَلْجأ لهم إلا الله، فدعوا الله مخلصين.

وكلمة «مخلصين» معناها يقين اليقين في الإيمان، مع أنهم كانوا فرحين حينما كانوا في أمان واطمئنان، لماذا؟

لأن الإنسان لا يخدع نفسه حينما يداهمه[٢] الخطر، فحينما يحيط به الخطر، وتعجز أسبابه عن دَفْعه يلجأ إلى الله ويترك الشركاء، فتجده بفطرته يقول: يا ربّ.

فمعنى ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ... ﴾[٣].

أي: لم يَعُدْ في بالهم إلا الله، فالآلهة التي كانوا يعبدونها والأصنام وغيرها لا تأتي على بالهم، لأنهم يعلمون أنها كاذبة، فليس أمامهم إلا الإله الحق، وهو الله.

إذن: قوله تعالى: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾[٤].

أي: دعوة دين خالص لله، لا تشوبه شائبةُ شرك ظاهر أو شركٍ خفيّ، لأن الإنسان لا يخدع نفسه، فيلجأ إلى الله مباشرة، فهؤلاء لمّا أحاط بهم الخطر ولم يجدوا مَنَاصًا[٥] من الغرق لم يلجأوا إلا إلى الله، فحين ينجيهم الله من الكَرْب يعودون إلى ما كانوا عليه.

ولذلك نقول: فإن عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى.

---

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) كل ما غشيك فقد دهمك يدهمك أي: يفجؤك ويدخل عليك.

(٣) سورة يونس: ٢٢.

(٤) سورة يونس: ٢٢.

(٥) ناص ينوص مناصًا: نجا. والمناص: المهرب والفرار والملجأ.

فنيّة القلوب خاصة بـالله مباشرة، ولا تدخل في اختصاص رقيب وعتيد، وهما الملكان المختصّان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان.

ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير، لطيفٌ بعلم ما يدخل ويتغلغل في الأشياء، وخبيرٌ بكل شيء وقديرٌ على كل شيء.

يقول تعالى:

﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].

فالله سبحانه لا تدركه عَيْن.

وعَيْنه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن أدقّ شيء وأخفى نِيّة، فهو سبحانه خبير، عنده عِلْمٌ بخفايا الأمور.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[2].

فالحق سبحـانه يُخبر رسوله ﷺ أنه سيحرسُ سِرهّ، كمـا يحرس علانيته، فالجَهرُ عنده مثل السِّرِّ وأخْفى من السِّرِّ.

وإذا كان الله يقول لرسوله المأمون على الرسالة هذا الكلام، فماذا نفعل نحن؟

فإيّاكم أنْ تقولوا كلامًا ظاهره فيه الرحمة، ونيتكم غير مُسْتقرة فيه؛ لأن الله كما يعلم الجهر، يعلم السِّرَّ وأخْفى من السِّر.

والجهـر هو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع، والسـر أن تخُصّ واحدًا بأن تضع في أذنه كـلامًا لا تحب أن يشـيع عند الناس، ولذلك تهمس في أذنه، ومـعنى تهمس في أذنه أنك تأمنُه على هذا الكلام.

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٢) سورة طه: ٧.

فالسرُّ هو ما تقوله لأذن تثق فيها لترتاح أنت نفسيًا، وبعد ذلك تأمن ألاَّ يذيعَ سِرّك.

وهناك أمور كثيرة في الحياة، تضيق النفس الإنسانية بها، ويحب الإنسان أن يُنفِّس عن نفسه، ولابُدّ من شكوى إلى ذي مُروءة يُواسيك، أو يُسلِّيك أو يتوجَّع.

فأنت تريد أُذنًا تسمع منك لِتُريحَ نفسك وتُنفِّس عنها، ولكنها لا تفضحك بَعْد ما أسررتَ إليها، فهذا هو السر.

ولكن ما هي الأخفى من السر؟

فالأخفى من السر هو ما لم يخرج من فَمِك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[١].

أي: أن الله يعلمه قبل أنْ يصير كلامًا، فالحق سبحانه يسمعك دون أن تتكلم، فيعلم ما تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحدًا، ولا تُسِرُّ به لإنسان.

والحق سبحانه يعلم ما ستفعله قبل أنْ تفعله.

فعِلْم الله تعالى لا ينتظر إلى أنْ يبرز الشيء جهرًا، بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سرًّا، ويعلمه ويحيط به بعد أنْ برز وظهر ووُجِد.

يقول تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٢].

فالحق سبحانه يعلم بالحبَّة التي تختفي في باطن الأرض وأحوالها، فعند الله عِلْمُ جميع الغيب، ويحيط علمه بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

---

(١) سورة الملك: ١٣.

(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

ولذلك يقول تعالى:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾[1].

فكلمة ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾

تجعل المؤمن مُصدِّقًا أن الله لا تَخْفى عليه خافية، فمن الممكن أنْ يستتر الشخص عن الناس، ولكنه لا يستطيع أبدًا أن يستتر عن الله؛ لأن الله مع كل إنسان في الخلوة والجلوة، والسر والعلن.

فإن قَدَر واحد على الاستخفاء من الناس، فهو لن يقدرَ على الاستخفاء من الله.

ومعنى «يُبيت» أن يصنع مكيدة في البيت ليلاً، وكُلّ تدبير بخفاء اسمه «تبييت»، حتى ولو كان في وَضَحِ النهار، ولا يُبيِّت إنسان بخفاء إلا رغبة منه في أنْ ينفض عنه عيونَ الرائين.

فنقول له:

أنت تنفض العيون التي مثلك، لكن العيون الأزلية، وهى عيون الحق فلن تَقدِر عليها.

وحين نسمع كلمة «محيط» فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمُحاط، بحيث لا يستطيع أن يُفلت منه، عِلْمًا بحاله التي هو عليها، ولا قدرة على أنْ يفلتَ منه مآلاً وعاقبة.

فهوَ سبحانه محيط علمًا؛ لأنه هو الذي لا تَخْفى عليه خافية، ومحيط قدرةً، فلا يستطيع أن يُفلت أحد منه إلى الخارج.

وسبحانه محيط علمًا بكل جزئيات الكون وتفاصيله، وهو القادر فوق كل شيء.

---

(١) سورة النساء: ١٠٨.

فإذا سمعنا كلمة «محيط» فمعناها أن الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علمًا بكل جزئياته، فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق.

ومَنْ تحقق بهذا ينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ[١] أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[٢].

فهؤلاء يؤتون غيرهم، فهناك حقوق لله يُؤدِّيها الإنسان للفقراء مثل حقوق الزكاة، والحقوق المتعلِّقة بالكفَّارة، والحقوق المتعلقة بالنذور التي فرضها الإنسان على نفسه ولم يفرضها عليه أحد.

وكذلك الحقوق المتعلِّقة بالعباد مثل الودائع والأمانات التي للناس عندك، ومثل العدالة في حُكْمك بين الناس.

فكيف يفعل هذا وقلبه يكون وَجِلاً؟

قالوا: نعم؛ لأنه يخاف ألاَّ تكون نيَّة الإخلاص صاحبتْ العمل، وما دامتْ نيّة الإخلاص لم تصاحب العمل فهو يخشى ألاَّ يقبل الله هذا العمل.

وسيد الخلق ﷺ يقول:

«**اللهم إني أستغفرك من كل عمل أريد به وجهك، فخالطني فيه ما ليس لك**»[٣].

إذن: الإنسان حين يعمل العمل الصالح، عليه أنْ يحاول مصاحبة هذا العمل بإخلاص، أي: يكون العمل لله، فالله لا يرضى لك أن تعمل عملاً لا تأخذ عليه جزاء.

---

(١) الوجل: الفزع والخوف.

(٢) سورة المؤمنون: ٦٠، ٦١.

(٣) لا أصله له.

وإنك إنْ رَاءيْتَ الناس في شيء من أعمالك، فالذي رَاءيته لن يعطيك شيئًا من الجزاء، فيصبح عملك هَدَرًا لا فائدة لك فيه.

فالله يَغَارُ عليك، ويأمرك أنْ تجعل عملك لمن يقدر على إعطائك الجزاء عليه.

فالمؤمن يخشى على عمله من الرياء وعدم الإخلاص؛ لأنه يثق أنه راجعٌ إلى ربِّه، وهو الذي سيجازيه على قَدْر إخلاصه في عمله، فإنْ شابَ العمل شيءٌ من عدم الإخلاص يخاف العبد من الفضيحة على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وخسران الجزاء من الله.

وهناك أعمال ظاهرها أنها من الدين، لكن يكون في طَيِّها شيء من الرياء أو السُّمْعة، ولذلك تجد إنسانًا تظن أنه مُتديِّن يقول لك: أنا أعمل هذا العمل لله، ثم لك.

هذا الإنسان نقول له: لا تعطف على الله شيئًا، واجعل عملك خالصًا لله وحده.

* * *

* قصة أبي حنيفة مع المقترض *

إنْ أردت أيها الإنسان عِزًّا ينتظم ويفوق كل عز، فاذهب إلى الله، لأنه سبحانه أعزَّنا فنحن خَلْقه، وهذا يتمثل في أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض، بل قال سبحانه:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[1].

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة، العبد الفقير لا يقترض، ولكن القرض مطلوب لله.

ومع أن المال مال الله، فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذي يأتيه بالمال، وطلب منه أن يعطي بعضًا منه أخاه المحتاج، ابتغاء مرضاةِ الله، واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضًا له جَلَّ جلاله، وكأن الذي يعطي المال للمحتاج يُقرِض الله.

وفي هذا مَيْزة للغني والفقير، فالغني يأخذ مَيْزة وشرف أنه أعطى لله، والفقير أخذ مَيْزة، لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله.

والمال ليس غاية في حَدِّ ذاته، ولكنه وسيلة، وعندما يمنع الغنيُّ ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غايةً فلا ينفعه.

أما إذا أعطى الغني بعضًا من المال للفقير، فهو قد أعاد إلى المال وظيفته في أنه وسيلة من وسائل الحياة، وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك، فعليك أن تُوظِّفه في أكمل ما ينفعك، وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه.

والحق سبحانه يصف القرض بأنه حسن، حتى لا يكون فيه مَنٌّ، أو منفعة تعود على المقرض، وإلا صار في القرض رِبًا.

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

ولنا الأُسْوة الحسنة في أبي حنيفة عندما كان يجلس في ظل بيت صاحب له، واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال، وجاء اليوم التالي للقرض، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت، فسأله صاحب البيت: لماذا تجلس بعيدًا؟

أجاب أبو حنيفة: خِفتُ أن يكون ذلك لونًا من الربا.

قال صاحب البيت: لكنك كنت تقعد قبل أن تُقرضني؟!

فقال أبو حنيفة: كنت أقعد وأنت المتفضل عليَّ بظلٍّ بيتك، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضِّل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه مَنٌّ أو أذىً أو منفعة، ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾(١).

فالحق سبحانه يحمي المقترض من نفسه، لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسُدَّ هذا الدين، ويستفيد المجتمع من حركته أيضًا.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه، لكن إن لم يُكتب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسى القرض.

ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أيٍّ أزمة، فيريد سبحانه أن يُديم الأسباب التي تُتداول فيها الحركة.

ولذلك يُقال في الأمثلة العامية: مَنْ يأخذ ويعطى يصير المال له، ويكون مال الدنيا كلها معه.

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه:

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

﴿ وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ[١] عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا ... ﴾[٢].

وفي ذلك حمايةٌ للنفس من الأغيار، ولم يمنع الحق الأريحية[٣] الإيمانية فقال:

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾[٤].

وهكذا يحمي الله الحركة الاقتصادية في الأمة الإسلامية.

* * *

(١) القسط: العدل. ويقال أقسط وقسط إذا عدل، وأقسط في حكمه: عدل، فهو مقسط.
(٢) سورة البقرة: ٢٨٢.
(٣) الأريح: الواسع من كل شيء، والأريحي: الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف.
(٤) سورة البقرة: ٢٨٣.

* قصة عمر بن عبد العزيز مع ابن مهران *

قال تعالى:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام.

والعرش هو سرير الملك الذي يدير منه الحاكم أمور الحكم. وهم قد خَرُّوا سُجّدًا لله من أجل جمع شمل العائلة، ولم يخروا سُجَّدًا ليوسف. بل خَرُّوا سُجَّدًا لمن يُخَرّ سجوداً إليه، وهو الله.

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول: هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه؟

ويقول يوسف - عليه السلام - مواصلاً المناجاة لله.

﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[2].

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف في الدنيا، وقد نصره وقرَّبه وأعانه؛ بتذليل كل ما مَرَّ به من عقبات، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له في الدنيا الفانية، وأن يثيبه أيضًا في الباقية، الآخرة.

وما دام سبحانه وليَّه في الدنيا والآخرة، فيوسف يدعوه:

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: ١٠٠.

(٢) سورة يوسف: ١٠١.

(٣) سورة يوسف: ١٠١.

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له في الآخرة؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به، ومتَّع به، ومشى فيه بما يُرضِي الله.

وعند تمنِّي يوسف للوفاة وقف العلماء وقالوا: ما تمناها أحد إلا يوسف.

فالإنسان إن كان مُوفقًا في الدنيا، تجده دائم الطموح، وتوَّاقًا إلى المزيد من الخير.

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه قَبل الإمارة، .حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم؛ كان يطلب الأكثر منه نُعومة، وإذا جِيءَ له بطعام ليِّن؛ كان يطلب الأكثر لُيونة.

وحين صار خليفة؛ كانوا يأتونه بالثوب، فيطلب الأكثر خشونة، وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقيًّا مع نفسه، ولم يفهموا أن له نفسًا توَّاقة إلى الأفضل؛ تستشرف الأعلى دائمًا، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة.

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازمًا له؛ ﷺ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت. فقال: يا أمير المؤمنين، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا؛ فأحيَيْتَ سُننًا، وأمَتَّ بِدعًا؛ وبقاؤك خير للمسلمين؟

فقال عمر بن عبد العزيز: ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾

مكونة من شِقَّين:

الشق الأول: طلب الموت.

والشق الثاني: أن يموت مسلمًا.

وكُلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير الثاني.

---

(١) سورة يوسف: ١٠١.

* قصة جعفر الصادق عند الخليفة *

قال تعالى:

﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[1].

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية، وهذه القضية الوجودية هى أن كل عمل له ظاهر وله باطن. ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس في الباطن، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن. فمن مصلحة الإنسان أن ينتمي هو والناس جميعًا إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهًا حكيمًا يعرف كل شيء عنا جميعًا.

فإذا كان عندك شيء لا أعلمه، وأنا عندي شيء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معًا بإله يطلع على سرائرنا جميعًا، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب. ولذلك قيل: «إن عَمِّيتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء».

إذن.. فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها، لأنه هو الذي سيحمي كل واحد منا من غيره. وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها؛ لأن النفوس متقلبة. فلو علمت ما في نفسي عليك في لحظة قد لا يسرك.. وقد لا تنساه أبدًا ويظل رأيك فيَّ سيئًا، لكن الظنون والآراء تمر عندي وعندك وتنتهى. ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة، والقول المأثور يذكر ذلك: «لو تكاشفتم ما تدافنتم» .

إذن.. فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه. والحق يحذرنا ممن قال فيهم: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة

(١) سورة البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥.

الدنيا» أي الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال:

على الذم بتنا مجمعين وحالنا   من الخوف حال المجمعين على الحمد

أي لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذمًّا، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضًا كل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. و«يعجبك قوله» فهل الممنوع أن يعجبك القول؟ لا، يعجبني القول ولكن في غير الحياة الدنيا فالقول الذي يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير.

وكفى بالذي يسمع من مادح له مدحًا، والمادح نفسه يُضمر في قلبه كرهًا له، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح، بأنه يقول بينه وبين نفسه: «إن الممدوح غبي؛ لأني أمدحه وهو مصدق مدحي له». إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظًا وفطنًا، ومن يقول لنا كلامًا يعجبنا في الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنًا؛ لأن خير الكلام هو ما يكون في الأمر الباقي.

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له: - لماذا لا تغشانا - أي لا تزورنا - كما يغشانا الناس؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول: أما بعد فليس عندي من الدنيا ما أخاف عليه، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له. وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأي سيىء فيك هم من يمدحونك.

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ وهذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي[1] واسمه أبيّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه الطبري (٢/ ١٨١) في تفسيره، والواحدي (١٢٠) في أسباب النزول.

وعادت إليـهم، وكان ساعة يقـابل رسول الله ﷺ يظهر إسلامـه ويلين القول للرسول ويدعي أنه يحبه، ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله ﷺ مرّ بزرع وحُـمُر لقـوم من المسلمين فـأحـرق الزرع وقتل الحُـمُـر. والآية وإن نزلت في الأخنس فهى تشمل كل مُنافق.



* قصة جعفر الصادق مع الأدلة المادية *

الهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسي لكل كائن حي، ولكل كائن ثابت غير حي، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسي للنفس الإنسانية، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها؛ فالعمارة تنهار.

إذن: فالذي يحقق التوازن في الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(١). وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمِّع في أشرعتها. وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدَّى الشراع، وانتقل إلى البخار، ثم الكهرباء، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿ريح طيبة﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء، خصوصًا وأن كلمة «الريح» قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيًّا كانت: من هواء، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه القائل: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضًا كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾(٣). هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود في الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضًا:

---

(١) سورة يونس: ٢٢.
(٢) سورة الأنفال: ٤٦.
(٣) سورة يونس: ٢٢.

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[١]. وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفي القرآن: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٢].

إذن: ﴿ريح عاصف﴾ هى الريح المدمِّرة المغـرِقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[٣].

فالموج يأتي من أسفل، والريح تأتي من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب قوة الريح، فحين تكون الريح خفيفة؛ يظهر سطح مياه البحر مجعدًا، وحين تكون الريح ساكنة؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة، بل مبسوطة، وقد جاءتهم الريح عاصفًا فيزداد عنف الموج، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٤].

أي: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم، لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزيًّا، بل يتجهون إلى الله بالدعاء، هذا الإله للذي أنكروه، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها.

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله: أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى؟ فيقول سيدنا جعفر: ما عملك؟ فيجيب السائل: تاجر أبحر في البحر. فسأله سيدنا جعفر: أوَ لم يحدث لك فيه حال؟ قال الرجل:

---

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) سورة الفيل: ٥.

(٣) سورة يونس: ٢٢.

(٤) سورة البقرة: ١٩.

بل حدث. فسأل سيدنا جعفر: ما هو؟ قال: حملت بضائعي في سفينة، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر: ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شيء؟ قال الرجل: نعم. قال سيدنا جعفر: هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح، وعلا عليهم الموج، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه وتعالى عنهم - وهم في مثل هذه الحالة: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[(١)]. وهذا يعني أنهم لم يدعوه فقط، بل دعوه بإخلاص وأقروا بواحدانيته وألا شريك له أبداً؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشرك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتي «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء، وتحقق نتيجة الضراعة، لا، بل بغوا - على الفور - في الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[(٣)].

والبغي: هو تجاوز الحدّ في الظلم وهو إفساد؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أي شيء عن صلاحه، يقال: «بغى عليه»، فإن حفرت طريقًا مُمهّداً؛ فهذا إفساد،

---

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) سورة يونس: ٢٣.

(٣) سورة يونس: ٢٣.

وإنْ ألقيت بنفاية في بئر يشرب منه الناس؛ فهذا إفساد وبغي، وأي شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده؛ فهذا بغي.

ونجد أيضًا أن موسى عليه السلام عندما ضاق به الأمر ماذا حدث فقد قال قومه.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[١].

فَرَدَّ موسى - عليه السلام -: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٢].

أي: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن، معي رب البشر، فجاءه الإنقاذ:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٣].

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعًا إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذي كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم، فلابد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء، ومثل هذا نجده في غير الرسل ونسميه «التخاطر»، أي: التقاء الخواطر في لحظة واحدة.

* * *

(١) سورة الشعراء: ٦١.

(٢) سورة الشعراء: ٦٢.

(٣) سورة الشعراء: ٦٣.

* قصة سارية والجبل *

إن مسألة التخاطر وهي التقاء الخواطر في لحظة واحدة نجده أيضًا في غير الرسل ومثال ذلك في التاريخ الإسلامي، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ مشغولاً بالتفكير في جيش المسلمين المقاتل في إحدى المعارك، وكان عمر في المدينة يخطب على المنبر، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية الجبل»[1]. وهى كلمة لا موضع لها في منطق الخطبة، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذي يحارب، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر؛ فانحاز إلى الجبل.

ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفيًّا، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معًا.

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية؛ وفي أرقى درجاتها وهى النبوة؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّنًا[2]، والمؤمِّن هو أحد الداعيين، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى - عليه السلام - فقد قَبِل أيضًا دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب، أما ميعاد إنجاز الطلب، فقد يتأجل بعض الوقت، مثلما حدث مع دعوة موسى - عليه السلام - على

---

(١) في سنة ٢٣هـ كان عمر بن الخطاب ﷺ يخطب يوم الجمعة، فجال بخاطره أن الجيش السائر إلى العدو بقيادة سارية بن زنيم قد لاقى العدو، وهم في بطن وادٍ قد هموا بالهزيمة، فقال في أثناء خطبته: يا سارية الجبل . . . يا سارية الجبل، ورفع صوته.
فألقاه الله في سمع سارية مما يعد من كرامات الفاروق ﷺ

(٢) التأمين: هو قولهم آمين وراء الداعي.

فرعــون وملئه، فحين دعــا موسى، وأمَّن هارون، جاءت إجــابة الدعاء: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[1]. بعد أربعين عــامًا، ويحقق الله سبــحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند مــن يدعو، وتقبل أي دعاء، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذًا لدعاء ما، ولكن هو الذي بيده مقاليــد كل أمر، فإذا ما أجيبت دعوة ما، فهو سبحــانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعــاد الملائم؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

* * *

(١) سورة يونس: ٨٩.

* قصة الأصمعي والدعاء عند الملتزم *

كلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «**أعوذ بك منك**»[١].

أي: أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحميني من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ :
«**فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة**»[٢].

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة؟ ألم يكن من المناسب أن يقال: «يتجلّى الغفّار» ؟ ونقول: لا؛ فإن المغفرة تقتضى ذنبًا، ويصبح المقام لصفة الجبار، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى: «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعي - وهو يطوف - مسلمًا عند باب الملتزم، يقول: اللهم إني أستحي أن أطلب منك المغفرة؛ لأني عصيتك، ولكني تطلَّعْتُ فلم أجد إلهًا سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[٣]. والتوبة أولاً كما عرفنا - هى تشريعها، ثم تأتي التوبة بالقبول، وقوله: ﴿ليتوبوا﴾ أي: أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٦/ ٥٨، ٦٢٠)، ومسلم (٤٨٦).

(٢) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه ابن ماجه (١٦٤٣) بنحوه، وأحمد (٥/ ٢٥٦)، وانظر: الفوائد المجموعة (٨٩).

(٣) سورة التوبة: ١١٨.

وينهى الحق الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[(١)]. فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[(٢)].

وساعة ينادي الحق - عز وجل - عباده المؤمنين، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٣)].

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب في إيمانه، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان». فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب، فالمطلوب دوامه، وإن طلب منهم حكمًا يتعلق بالإيمان، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم، ومثال هذا قول الحق سبحانه:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ...﴾[(٤)].

وكلمة ﴿اتقوا﴾ تعنى: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون في معيّة الله. وهنا تأتي ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال. إن قوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾. يعني: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية، مثلما قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة التوبة: ١١٨.

(٢) سورة التوبة: ١١٩.

(٣) سورة النساء: ١٣٦.

(٤) سورة التوبة: ١١٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٤.

لأن النار من جنود صفات الجلال، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[1]، وفسر بعض العلماء قوله: ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين، أي: أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطى هذا القول معنى إجماليًّا عامًّا. لكني أقول: هناك فرق بين ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ و«كونوا من الصادقين» فقوله الحق: ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي: التحموا بهم فتكونوا في معيّتهم، وبعد أن تلتحموا بهم يأتي الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضى الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية، فأيٌّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية، مثل قولك: «محمد زارني»، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها، وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدري بها، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذي تدري بها، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛ علم أن نسبة ذهنية جاءت في ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت: «محمد زارني بالأمس»؛ جاءت في ذهنك قبل أن تقولها، فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول؛ يعلم أن هناك واحدًا في الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائمًا أنك صادق.

* * *

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.

* قصة جدال الإمام الشعبي مع ملك الروم *

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾[(١)].

الجدل: هو المحاورة بين اثنين، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأيَ الآخر، ومنه: جَدْل الخوص أو الحبل أي: فَتْله واحدة على الأخرى.

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها في بعض، بحيث يكون طرف الشعرة في منتصف الأخرى، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى، وهكذا يكون الجدل في الأفكار، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّي رأيه وحجته؛ ليدحض حجة الآخرين.

فقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾[(٢)]. فكيف يكون الجدل في الله تعالى؟

يكون الجدل في الله وجودًا، كالملحد الذي لا يعترف بوجود إله، أو يكون الجدلْ في الوحدانية، كمن يشرك بالله إلهًا آخر، أو يكون الجدل في إعلام الله بشيء غيبي، كأمر الساعة الذي ينكره البعض ولا يُصدِّقون به، هذا كله جدل في الله.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾[(٣)]. إذن: فالجدل في ذاته مُبَاح مشروع، شريطة

(١) سورة الحج: ٣.
(٢) سورة الحج: ٣.
(٣) سورة الحج: ٣.

أن يصدر عن علم وفقه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١].

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين، وكما يقولون: النصح ثقيل، فلا تجعله جَدَلاً، ولا ترسله جبلاً، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره، واقرأ قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٣].

لذلك؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْنَ من الجدل في قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٤].

فانظرْ إلى هذا الجدَل الراقي والأسلوب العالي: ففي خطابهم يقول: ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾[٥]. وينسب الإجرام إلى نفسه، وحين يتكلم عن نفسه يقول: ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٦]. ولم يقُلْ هنا: تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين. وفي هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق.

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق، فسألهم: ما الجنون؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ، فهل جرَّبتُم على محمد شيئًا من هذا؟ وما هو الخُلق؟ الخلق: استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا؟

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٤) سورة سبأ: ٢٥.

(٥) سورة سبأ: ٢٥.

(٦) سورة سبأ: ٢٥.

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ (١).

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط في الخير مجنونًا؟

ولما قالوا: كذاب، جادلهم القرآن: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

لقد أتته الرسالة بعد الأربعين، فهل سمعتم عنه خطيبًا أو شاعرًا؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم؟

وقالوا: إنها عبقرية كانت عند محمد، فأيُّ عبقرية هذه التي تتفجَّر بعد الأربعين، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها في العقد الثاني أو الثالث من عمر صاحبها، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله: أبوه مات قبل أنْ يُولد، وأمه ماتت وهو رضيع، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيرًا.

وهكذا، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة، للجدل الصادر عن عِلْم بما تقول، وإدراك لحقائق الأمور.

لذلك؛ لما ذهب الشَّعْبي لملك الروم قال له الملك: عندكم في الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل، فقال الشَّعْبيّ: ما الذي في الإسلام يخالف العقل؟ قال: تقولون إن في الجنة طعامًا لا ينفد أبدًا، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد. انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون.

قال الشَّعْبيُّ: أرأيتَ لو أن عندك مصباحًا، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه، أينقص من ضوء المصباح شيء؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى.

---

(١) سورة سبأ: ٤٦.

(٢) سورة يونس: ١٦.

ويستمر ملك الروم فيقول: كيف نأكل في الجنة كُلَّ ما نشتهي دون أن نتغوّط أو تكون لنا فضلات؟ فقال: أرأيتم الجنين في بطن الأم: أينمو أم لا؟ إنه ينمو يومًا بعد يوم، وهذا دليل على أنه يتغذَّى، فهل له فضلات؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط في مشيمته لمات، إذن: يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه، بحيث لا يتبقى من غذائه شيء.

ثم قال: أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد؟ أجاب الرجل إجمالاً: تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك، وأمامك المصباح وفيه ضوء، ثم نفخ المصباح فانطفأ، فقال له: أين ذهب الضوء؟

ومن الجدل الذي جاء عن عِلْم ودراية ما حدث من الإمام علي ﷺ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بنَ ياسر، فغضب الصحابة في صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار: «**تقتله الفئة الباغية**»[1] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحدًا بعد الآخر، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية، وقال: لقد فشَتْ في الجيش فاشية، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد، فقال معاوية: وما هى؟ قال: يقولون: إننا قتلنا عماراً والنبي ﷺ قال عنه: «**تقتله الفئة الباغية**».

فاحتار معاوية ثم قال: قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال - يعني: علي بن أبي طالب - فلما بلغ الكلامُ سيدنا عليًّا، قال: قولوا لهم: فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب؟ أي: إن كان الأمر كما تقولون فالنبي ﷺ هو قاتل حمزة؛ لأنه هو الذي أخرجه للقتال.

هذا هو الجدل عن علم، والعلم قد يكون علمًا بدهيًّا وهو العلم الذي تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه. أو علمًا عقليًّا استدلاليًّا، وقد يكون العلم بالوحي من الله لا دَخْلَ لأحد فيه، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً، فيأتي الصغير يريد

(١) سبق تخريجه.

أنْ يجلس هو بجوار الأب، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلي له المكان، نجد أنِ هذا الأمر فعله الطفل بداهة.

ولقد حدث في يوم بدر أن رسول الله ﷺ أمسك بقضيب في يده قبل المعركة ويشير به: «**هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان**»[(١)] ويسمى صناديد الكفر ورءوس الضلال في قريش؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ، وصُرِع كلٌّ هؤلاء الصناديد في نفس الأماكن التي أشار إليها رسول الله.

ولما قُتِل في هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود، سبحان الله، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلي ظهر سيد قريش، عندها قال أبو جهل - وكان فيه رَمَق حياة: لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْبًا يا رُوَيْعىً الغنم[(٢)]، يعني ركبتني يا ابن الإيه!! فأيُّ خِزْي بعد هذا؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس ﷺ عند رسول الله ﷺ، ورأى موكب النبي يوم الفتح، وحوله رايات الأنصار في موكب رهيب مهيب، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما في صدره، فقال للعباس ﷺ: لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قويًّا، فقال له: إنها النبوة يا أبا سفيان يعني: المسألة ليست مُلْكًا، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله.

* * *

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٢١٩، ٢٥٨)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، وأبو داود (الجهاد/ ١٢٤)، والنسائي (٤/ ١٠٩)، والبيهقي (٣/ ٤٨) في دلائل النبوة.

(٢) يعني يا راعي الغنم مصغرة.

* قصة الحسن مع الزواج *

في الحديث الشريف: **«إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[١].

ومع ذلك في مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات والنظر إلى المظاهر.. إلخ وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لأولياء الأمور: يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهِّدوا لهم سبيل الإعفاف.

وقد أعطانا القرآن نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه وليُّ الأمر، فقال تعالى عن سيدنا شعيب - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[٢]. ذلك لأن موسى - عليه السلام - سيكون أجيرًا عنده، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجَّعه على الإقبال على زواجها، فأزال عنه حياء التردد، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤًا، فلا يتردد في إعفافها.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[٣].

وقوله ﷺ: **«تُنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين، تربتك يداك»**[٤].

ولما سُئِل الحسن ﷺ عن مسألة الزواج قال لوالد الفتاة الذي جاء يستشيره:

---

(١) حديثٌ حسنٌ: أخرجه الترمذي (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٦٧).

(٢) سورة القصص: ٢٧.

(٣) سورة النور: ٣٢.

(٤) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (٧/٩)، ومسلم (١٤٦٦)، وأبو داود (٢٠٤٧)، وابن ماجه (١٨٥٨)، وأحمد (٢/٤٢٨).

زوِّجها مَنْ تأمنه على دينه، فإنْ أحبَّ ابنتك أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها. وماذا يريد الإنسان في زوج ابنته أكثر من هذا؟

فالدين والخُلق والقيم السامية هى الأساس الذي يُبنى عليه الاختيار، أما المال فهو شيء ثانوي وعَرَض زائلٍ؛ لذلك يقول تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فالفقر قد يكون سببًا في عدم الإقبال على البنت، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج؛ لكن كيف يتخلى الله عَنَّا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجيْن التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب، ومَنْ يدريك لعل الرزق يأتي للاثنين معًا، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي يفتح للوجهين معًا؟

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. فعطاء الله دائم لا ينقطع؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص، والإنسان يُمسك عن الإنفاق؛ لأنه يخاف الفقر، أمَّا الحق تبارك وتعالى فيعطى العطاء الواسع؛ لأن ما عنده لا ينفد.

* * *

(١) سورة النور: ٣٢.

(٢) سورة النور: ٣٢.

* قصة عروة بن الزبير وقطع رجله *

إنَّ المؤمن الحق هو الذي يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها.

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح «عروة بن الزبير» الذي سار في الطريق من المدينة إلى دمشق، فأصيبت رجْله بجرح وتلوث هذا الجرح، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه في الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقْطع رجله، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقدًا» أي: مادة تُخدِّره، وتغيب به عن الوعي، ليتحمل ألم بتر الساق، فرفض العبد الصالح وقال:

إني لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم؛ لأنه يستحضر دائمًا وجوده في معية الله، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رجله، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك، وأمسكها ليقول: اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو، فإني قد عوفيت في أعضاء.

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها، إنما يحيا في متعة، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب؛ لأن الحمد يكون على النعمة، والمصيبة قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته.

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر؛ فقال واحد منهما:

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء؟

والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله - تعالى - فقال العبد الثاني:

حالنا في بلادنا إنْ أعطينا شكرنا، وإنْ حرْمنا صبرنا.

فضحك العبد الأول وقال:

هذا حال الكلاب في «بلخ» أي: أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله، وإن منعه أحد فهو يصبر.

وسأل العبد الثاني العبد الأول:

وكيف حالكم أنتم؟

فقال: نحن إن أعطينا آثرنا، وإن حُرِمنا شكرنا.

إذن: فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب، أن له جزاءً على ما ناله من التعب؛ ثوابًا عظيمًا خالدًا من الله سبحانه وتعالى.

* * *

* قصة العارف والخشوع في الصلاة *

الصلاة هى استحضار العبد وقفته بين يَدَىْ ربِّه، وحينما يقف العبد بين يدي الله، لابُدَّ أن يزول كُلُّ ما في نفسه من كبرياء، ويدخل بدلاً منه الخشوع، والخضوع والذلة لله سبحانه.

والمتكبِّر غافل عن رؤية ربّه الذي يقف أمامه، فَعدم الإيمان بالنبي الذي فُرِضَتْ عليه وعلى أمته الصلاة، وعدم الوقوف بين يدي الله للصلاة له سبحانه كما يجب أن تُؤدَّى، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات، إنما هو رَفْضٌ للخضوع لأوامر الله.

والصلاة تحارب الاستكبار في النفس، لذلك كان مُؤدَّى الصلاة أنها تَرْكُزُ الخشوع في النفس.

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون.

ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار.

ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله، وليس من ذاته.

والذين يغترُّون بوجود الأسباب نقول له: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها.

والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دُوَلاً[1]، أي: متداولة بين الناس، إنسان يفاخر بقوته، يأتي مَنْ هو أقوى منه فيهزمه.

---

(١) دالت الأيام: دارت. والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة.

إنسان يفاخر بماله، يضيع هذا المال في لحظة.

واقرأ قوله تعالى:

﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ[1] فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

ولذلك لابُدَّ أن نفهم أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقتٌ لا تعطيه الأسباب، فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعيُنِ الناس مرتبة الكمال اغترَّ بنفسه.

نقول له: لا تغتر بكمالات نفسك، فإنْ كانت موجودة الآن فستتغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا لله.

من هم الخاشعون؟

الخاشع: هو الطائع لله، الممتنع عن المحرمات، الصابر على الأقدار، الذي يعلم يقينًا داخل نفسه أن الأمر لله وحده، وليس لأيِّ قوة أخرى، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

الخاشعون: هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب، والمعصية بالعقاب والعذاب؛ لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة.

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحُبٍّ، فيُهوّنها الحق سبحانه عليه، ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة، لتهون عليه مشقتها، ويمدُّه سبحانه أيضًا بالمعونة.

فالخاشع الخاضع لله يستشعر حلاوتها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول عندما يحين موعد الصلاة: «**أرحنا بها يا بلال**».

---

(١) القَرْح والقُرْح: عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسد ومما يخرج بالبدن.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

والحق سبحانه يقول في الصلاة، وهى أُمُّ العبادة:

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾(١).

إذن: عندما يأتي التكليف يكون شاقًا، وما دام شاقًّا فهو بحاجة لصلابة إيمان وجلَد ويقين، بحيث يَعِي أن ما قام به من عمل وإنْ كان شاقًّا لكنه سيعطيه سعادة كبيرة جدًّا.

لذلك عندما تتضخم الجزاءات في نفس المؤمن يُقبل على العمل بحُبٍّ.

لذلك يقول بعض العارفين: «اللهم إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة؛ لأنها أصبحت شهوة نفس».

والحق سبحانه يقول:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾(٢).

فالفلاح هو الفَوْز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير، وأول أسباب الفلاح عند المؤمن هو الخشوع في الصلاة، فمسألة أداء الصلاة شيء مفروغٌ منه، لأن الصلاة علامة الإيمان.

أما أن تكون الصلاة سببًا من أسباب الفلاح، فهذا يرجع إلى إقامتها لا أدائها، إقامتها على الوجه الأكمل الذي يرضاه مَنْ تُصلِّي له، ركوعًا وسجودًا وقيامًا.

وكلمة «أفلح» مأخوذة من فلح الأرض، فاعلموا يا مسلمين أنكم كما تُفلحون الأرض وتتعبون فيها، فتأتي لكم بالخير الكثير، فكذلك حين تتعبون في العبادة وطاعة الله في الدنيا، ربنا يعطيكم خير الجزاء في الآخرة.

وأوَّل ظاهرية الفَلاَح هى الصلاة أيضًا، فعلاقة المؤمن بالصلاة ليس فيها كلام، فليس مؤمنًا مَنْ لا يصلي، فالصلاة صفة لازمة من صفات المؤمن.

---

(١) سورة البقرة: ٤٥.

(٢) سورة المؤمنون: ١، ٢.

ولكن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن فلاح المؤمن ليس في أداء الصلاة فقط، ولكن في الخشوع فيها.

والخشوع هو سكينة القلب واطمئنانه، واستحضار أنه واقفٌ بين يدي الله.

والخشوع معناه اطمئنانُ القلب، ومعنى اطمئنان القلب سُكونه في مهمته هذه، فلا يشتغل بشيء آخر؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه.

يقول تعالى:

﴿ما جعل [illegible] من قلبين في جوفه﴾[1].

وما دام في حَضْرة ربِّه فَلْيكُنْ كل شُغله مع الله.

حتى قال أحد العارفين:

إن الذي يتعمد أنْ يعرف مَنْ على يمينه ومَنْ على شماله في الصفِّ تبطل صلاته.

وسيدنا عمر حينما دخل المسجد ووجد رجلاً يصلي يعبث بلحيته، ضربه على يده وقال: لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك.

لأن الجوارح تستمدُّ طاقتها من القلب الذي يمدُّها بالدم، فلو كان القلب مشغولاً بشيء آخر لَذَهِل[2] عن الجارحة.

* * *

(١) سورة الأحزاب: ٤.

(٢) ذهل: طاش عقله، أو ذهب.

* قصة العارف وحد السهو عند العارفين *

عندما سُئل أحد العارفين عن حكم مَنْ يسهو في الصلاة، فقال له: عند الفقهاء يُجْبَر السهو في الصلاة بسجود السهو، ولكن عند العارفين مثلنا: مَنْ يسهو في صلاته نقتله.

وهذا لأن الله تعالى يستحقُّ منَّا ألا ننشغل عنه في فترة الصلاة القصيرة.

فالحق سبحانه يتركك أكثر من ٢٣ ساعة في اليوم، ولا يأخذ منك وقت الصلوات الخمس أكثر من نصف الساعة، وهى وقت الصلاة التي تقف فيها بين يدي الله سبحانه.

ففي هذا الوقت القصير الذي يستحضرك الله لصالحك حتى تكون في خَلْوة مع ربك، لتأخذ طاقة الإمداد والمعونة وإشراقات النور، فتستكثر هذا الوقت القصير، وتنشغل فيه عن ربِّك.

هذا لا يصحُّ، ولا يجوز أبدًا، لذا كان الخشوع في الصلاة من سمات الصالحين.

يقول الحق سبحانه:

﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون[1] للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾[2].

والأذقان جمع ذقن، والذقن هو الفَكُّ الأسفل.

فساعة يخرون ليس على وجوههم فقط، ولكن على الوجه والأنف والذقن أيضًا، وهذا دليل على التمكُّن في السجود.

---

(١) خر لوجهه يخر خرًّا وخرورًا: وقع وسقط. والخرور: سقوط من علو إلى أسفل بصوت.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩.

﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(١).

أي: كلما سمعوا آيةً من القرآن ازدادوا خُشُوعًا وخشية لله.

وهؤلاء يقول عنهم رَبُّ العزّة سبحانه:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٢).

والوَجَل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب في القلب، فذِكْر الله يدفع قلوب المؤمنين إلى الوَجَل(٣)، وهذا لا يتنافى مع قول الحق سبحانه:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٤).

ففي الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإنْ كان الإنسان مُسْرفًا على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذي خالف منهجه.

وإنْ كان الإنسان يُراعى حَقَّ الله في كل عمل قَدْر الاستطاعة، فلابُدَّ أن يطمئن قلبه لحظة ذِكْر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك تجمعهما آية واحدة، هى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(٥).

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٩.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

(٣) الوجل: يوجل وجلاً: خاف وفزع، فهو أوجلُ، ووجل، والجمع: وِجَالٌ، وهى وجلةٌ.

(٤) سورة الرعد: ٢٨.

(٥) سورة الزمر: ٢٣.

فالجلود تقشـعر خوفًا ووَجلاً مَهـابةً من الله - عز وجل - ثم تلين اطمئنانًا وطمعًا في حَنَان المَنَّان سبحانه وتعالى.

وهكذا نرى أن الجلود تقشعرُّ من هَوْل الوعيـد بالنار، ومجرد قراءة ما ذكره القرآن عنهـا، وبعد ذلك تأتي الرحـمة، وفي هذه الحالة لا تـلين الجلود فقط، ولكن لابد أن تلين القلوب؛ لأنها هى التي تعطى اللمـحة الإيمانية لكُلِّ جوارح الجسد.

فالإيمان يهزُّ كل أعضاء الجسد البشريّ.

* * *

* قصة أبي علقمة النحوي مع ابنه *

تقص علينا كتب الأدب من أن هناك شخصًا اسمه أبو علقمة النحوي، متقعر في اللغة، يتكلم بالألفاظ الغريبة - فمن الذي رباه حتى ينزل إلى مستويات الناس في التفاهم؟ رباه خادم له، أتعبه تقعر (أبو علقمة) وكان لا يفهم عنه كثيرًا من الألفاظ، فماذا كان منه؟. كان منه أن أبا علقمة استيقظ ليلة ثم نادى الغلام فقال: يا «غلام» أما هذه فقد فهمها الغلام، ثم قال له: «أصقعت العتاريف؟» مسألة لم يفهمها الخادم، ولكنه أراد أن يلقن أبا علقمة درسًا يمنعه من هذا التقعر، ولا سيما بالنسبة إلى خادم لا يعرف شيئًا، فلما قال له: «أصقعت العتاريف؟» قال له: «زقفيلم»، فتعجب (أبو علقمة)، لأول مرة يتعجب أبو علقمة من لفظ لغوى!! فقال له: يا غلام، وما «زقفيلم»، فسر الغلام لأنه أعجز أبا علقمة، فقال له: «ما أصقعت العتاريف»؟، فقال له: «أنا أردت يا بني: أصاحت الديكة؟». قال: «وأنا أردت: لم تصح».

هذا كان ابتلاء أدبيًّا لأبي علقمة، ولكن شخصًا آخر أراد أن يبتليه ابتلاء أهم من ذلك في عافيته وهى أعز شيء لديه، وفي صحته، فقد دخل على طبيب يقال له «أعين»، وهو يشتكى علة، فلما ذهب إلى الطبيب لم ينس تقعره، والطبيب محدود الثقافة اللغوية، فقال له: «ما بك؟» قال: «قد أكلت من لحوم هذه الجوازيء، فقسأت منها قسأة أصابني منها وجع، من الوابلة إلى دأية العنق، ولم يزل ينما حتى حالط الخلب وألمت منه الشراسيف» وقف الطبيب متعجبًا، فقال له: أعد، فأعاد، فماذا فعل الطبيب؟ عاياه، (عاياه يعني أيه؟ جاب له ألفاظ لا مدلولات لها في اللغة علشان يدوخ فيها أبو علقمة، لأنه لو جاب لفظ مستعمل في اللغة يمكن أبو علقمة يعرفه) فقال: «ده مش عايز إلا اختراع ألفاظ مالهاش مدلول» قال له: أمسك القلم واكتب الوصفة (الروشتة)، «خذ حرقفا وشرقفا وزهرقه ورقرقه واغسله بماء روس واشربه بماء الماء» قال أبو

علقمة: «أعد على، فوالله ما فهمت شيئًا»، قال: «لعن الله أقلنا إفهامًا لصاحبه».

إذن.. فاللغة بهذه المثابة - حتى عندما نستوعب كل ألفاظ اللغة - إذا جاء للشخص لفظ لم يسبق أن عرف معناه وقف؛ ما دامت اللغة هكذا، يجب أن نستنبط أولاً: هل توجد المعاني أولاً، ثم توضع لها الألفاظ؟ أم توجد الألفاظ أولاً، ثم تخترع لها المعاني؟ قبل أن يوضع اللفظ لابد أن يكون المعنى متضحًا في الذهن، حين لا يوجد معنى متضح في الذهن لا تجد له في اللغة لفظًا، هذه قضية، إذًا ما دام اللفظ يسبقه المعنى، فإذا وجدت معان لم تكن موجودة من قبل، تجتمع المجامع اللغوية لكي تقول: نضع لذلك المعنى أي شيء؟ أي لفظ؟ ماذا نسمي هذا؟ المذياع - المستقبل؛ لأنه معنى لم يكن موجودًا، فالمعاني العدمية التي لا وجود لها، لا وجود لألفاظ تدل عليها، فإن وضعوا لفظًا لمعنى عدمي نبهوا عليه، وقالوا: إن هذا اللفظ وضع للمعاياة ولشيء خرافي، فيكون معناه أنه شيء خرافي، كما قالوا: «الغول»، فإذا كان الامر كذلك نقول: إذا كان مدلول «الله» أمرًا عدميًا لا وجود له فمن أين دخل لفظ «الله» على لغة الناس؟ أو من أين دخل اللفظ المقابل للفظ «الله» في سائر لغات الناس؟ ما دامت الأمور العدمية لا تصل إلى مرتبة أن توجد لها ألفاظ، وما دامت الألفاظ لا تسبق المعاني، إذن فوجود تلك الألفاظ في لغات الناس يدل قطعًا على أن معانيها سبقت وجود اللغة، وأن المعنى الإيماني في وجود الله أمر سابق على أن يكون لنا لغة، وما دام ذلك اللفظ قد وجد في لغات الناس، يدل على أن المعنى كان موجودًا، إذن، هناك انسجام في أسر الألفاظ حتى المتعارضة، كيف؟ كلمة «الكفر» نفسها دليل الإيمان، الكلمة نفسها، لفظ (الكفر) دليل على وجود الإيمان؛ لأن الكفر ما معناه؟ (الكفر) في الأصل معناه: (الستر)، فما هو المستور بالكفر؟ وجود هذا اللفظ يدل على أن شيئًا وجد فستر، فالستر طاريء على شيء موجود، إذن فمعنى (كفروا) أي: ستروا شيئًا كان موجودًا، فالكفر

طاريء على الإيمان، ولذلك نجد جوابًا حينما نسأل: «لماذا يتعجب الله في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[1] يعني: قولوا لنا على الطريقة الغريبة التي سولت لكم أن تكفروا بالله، هذه مسألة عجيبة، كيف كفرتم بالله؟ إذًا، الألفاظ اللغوية تدل على أن معنى لفظ (الله) ودلالته على واجب الوجود.

* * *

(١) سورة البقرة: ٢٨.

* قصة رجل من المتوسمين *

يقول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[١].

أي: ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضِّح ما في الأعماق من إيمان.

ويقول سبحانه أيضًا:

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[٢] ﴾[٣].

وهكذا نعرف أن المُتوسِّم[٤] هو صاحب الفَراسة التي تكشف مكنون الأعماق. وها هو ﷺ يقول: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[٥].

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابي الذي فقد جمله، فذهب إلى قَيِّم الناحية - أي: عمدة المكان - وقال له: «ضاع جملي، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد». وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد، وقال له: أجملك أعور؟ أجاب صاحب الجمل: نعم، وقال له: أجملك أبتَر؟ أي: لا ذَيْل له، أجاب صاحب الجمل: نعم.

فسأل الرجل سؤالاً ثالثًا: أجملك أشول؟ أي: يعرج قليلاً عندما يسير؛ فأجاب الرجل: نعم، والله هو جَمَلِي.

وأراد قيِّم الحي أن يعلم كيف عرف الرجل الذي حضر كل هذه العلامات التي في الجمل، فسأله: وما أدراك بكل تلك العلامات؟

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) إلحاف: إلحاح.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٣.

(٤) المتوسم: المتفرس، أو المتفكر.

(٥) حديث حسنٌ لغيره: أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، وابن عدي (٤/ ١٥٢٣)، والطبراني (٨/ ١٢١) في الكبير، والبغوي (٤/ ٣١) في تفسيره، والعقيلي (٤/ ١٢٩).

قال الرجل: لقد رأيتُه في الطريق، وعرفتُ أنه أعورُ، ذلك أنه كان يأكل العُشْب الجاف من جهة، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر في الجهة الأخرى، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر.

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذَّيْل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التي لها ذَيْل غير مقطوع.

وعرفت أنه أشول؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقًا في الأرض من أثر ساقه اليسرى. وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة «المتوسم».

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط، فيقول من بعد ذلك:

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾[1].

أي: أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان، وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾[2].

فهذه المدينة إذنْ في طريق ثابت؛ لن تُضيّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار، ولن تُضيِّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه ذلك.

* * *

(١) سورة الحجر: ٧٦.

(٢) سورة الصافات: ١٣٧.

* قصة العالم والعارف مع المصباح *

قال تعالى:

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾[1]. يعني الجنة.

أي: لا ينقطع، ونعلم أن الإنسان حين يأكل؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه؛ وبعد أن يُشبِع جُوَعه؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه، إلى أنْ يجوع، فيطلب الطعام من جديد.

ومنْ يحبون الطعام في حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول: «أشعر ببعض الضيق لأنّي شبعتُ»، فهو في عراك بين نفس تشتهي وبين بطن لا تشبع، وكأنه كان يريد أنْ يستمر في تناول الطعام طوال الوقت.

وقول الحق سبحانه:

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[2].

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب إمبراطورية عُظْمى زَلْزلها الإسلام بحضارته الوليدة، وأرسل إمبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق:

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾.

فأرسل لهم أحدَ العلماء، وسألوه: يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شيء يُؤخذ منه لابُدَّ له أن ينقص؛ فكيف يكون أُكُل الجنةِ دائمًا؟

قال العالم لهم: هاتوا مصباحًا. فأحضروا له المصباح، وأشعله أمامهم. وقال لكل منهم: فلْيَأتِ كل منكم بمصباحه. فأحضر كل منهم مصباحه. وقال لهم:

---

(١) سورة الرعد: ٣٥.

(٢) سورة الرعد: ٣٥.

فَلْيُشعِل كل منكم مِصباحه. وهنا سألهم: ما الذي أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح؟ قالوا: لا شيء. فقال لهم: هكذا ضرب الله لنا المثَل بأُكُل الجنة.

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد في اشتعاله على الزيت المخزون فيه، ويأتيه منه المَدَد، أما الجنة فمددُهَا من الله.

وهناك مَنْ قال: هل نتغوَّط في الجنة؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين: لا. فتساءل: وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة؟

فقال العارف بالله: مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل في بطن أمه؛ حيث يحترق هذا الفائض في مَشِيمة[1] الطفل؛ والطفل في بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر، مُعتمداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّريّ.

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده في حياتنا اليومية، وبين ما أعدَّه الله للمتقين، وهو القيُّوم على كُلِّ أمرٍ.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[2].

يعني: أن الطعام موجود ولا ينتهي وكذلك الظل. والظل حَجْب المضيء عن مكان؛ أو حَجْب مكان عن المضيء، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا؛ والعقل البشري قاصر عن تخيُّل ذلك.

ونجد كثيراً من الآيات القرآنية التي شغلت كثيراً من العلماء المستشرقين وغيرهم حيث تثبت لهم قضايا وقوانين لم يتوصلوا إليها إلا بعد أبحاث ودراسات طويلة.

والمثل: هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحسِّ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم؟ وكيف يلمس الإنسان بِبَشْرته بمَلْمسٍ ناعم فَيُسَرّ منه، ثم يلمس شيئًا خشنًا فيتأذى منه.

---

(١) المشيمة للمرأة هي التي يكون فيها الولد.

(٢) سورة الرعد: ٣٥.

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات، كي يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه في الإنسان، هل هو في المُخِّ أم أين؛ إلى أن انتهوا إلى أن منَاطَ الإحساس في كُلِّ إنسان هو في الجِلْدِ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجِلْد مباشرة؛ بدليل أن الإبرة حين نغرزها في جسم الإنسان؛ فهو يتألم فقط في منطقة دخولها؛ وليس أكثر.

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء؛ فقال: لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[1].

ولو أن تلك الجلود قد احترقتْ؛ فالعذاب سينتهي؛ لذلك يُبدِّل الله جلودهم ليستمر العذاب، وهذا مَثلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن.

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه في القانون، ووجدهم يقفون عند قضية التعسُّف[2] في استعمال الحق، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية في القرن العشرين.

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم في تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً: إن لفلان عندي في ساحة بيتي نخلة، وهو يدخل بيتي كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة؛ مرة بدعوى تأبيرها[3]؛ وأخرى بدعوى جَنْي ثمارها، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل.

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة

---

(١) سورة النساء: ٥٦.

(٢) الإساءة في استعمال أو استخدام الحق.

(٣) التأبير: التلقيح.

الخاصة له، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له: «**أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف: إما أن تهبه النخلة** - وتلك منتهى الأريحية - **وإما أنْ تبيعها له، وإما قطعناها**»[1].

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى «التعسُّف في استعمال الحق».

* * *

---

(١) حديث حسن أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) بنحوه، وانظر: المجمع (٣/ ٢٧) وله شواهد.

* قصة الرجل الصالح مع زوجته *

قال تعالى:

﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان اللّه عليما حكيمًا﴾(١).

ويورد الحق كلمة «كسب» عندما يتناول أمرًا خيِّرًا فعله الإنسان، ويصف ارتكاب الفعل السيئ بـ «اكتسب»، لماذا؟ لأن فعل الخير عملية فطرية في الإنسان لا يستحيي منه، لكن الشر دائمًا هو عملية يستحيي منها الإنسان؛ لذلك يحب أن يقوم بها في خفية، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان.

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - ولله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة. ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له. ولذلك يقال عن الحلال: إنه «كسب» ويقال عن الحرام: إنه «اكتساب».

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال: «كسب سيئة» فهذا أمر يستحق الالتفات؛ فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويعزم على ألا يعود إليها. لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسبًا ويفخر بها متناسيًا الخطر الجسيم الذي سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود، وهو حين يفخر بالمعصية ففي ذلك إعلان عن فساد الفطرة، وسيادة الفجور في أعماقه، وهو يختلف عن ذلك الذي تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله.

«ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه» فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحدًا بعمل سوء قد كسبت الدنيا؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله

---

(١) سورة النساء: ١١١.

للمظلوم لضن على عدوه أن يظلمه. وأضرب هذا المثل للإيضاح - ولله المثل الأعلى دائمًا - هب أن رجلاً له ولدان. وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئًا يملكه، ورأى الأب هذا الحادث، فأين يكون قلب الأب ومع من يكون؟

إن الأب يقف مع المظلوم، ويحاول أن يرضيه، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئًا يساوى عشرة قروش، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوي مائة قرش. ويعيش الظالم في حسرة، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبدًا. إذن فالظلم قمة من قمم الغباء.

ومن ضمن المفارقات التي تروى مفارقة تقول: إن كنت ولابد مغتابًا فاغتب أبويك. ولابد أن يقول السامع لذلك: وكيف أغتاب أبي وأمي؟ فيقول صاحب المفارقة: إن والديك أولى بحسناتك، فبدلاً من أن تعطي حسناتك لعدوك، ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك. وحيثية ذلك هى: لا تكن أيها المغتاب أحمق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة، وكيف تعطي لعدوك حسناتك وهى نتيجة أعمالك؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصري، عندما بلغه أن واحدًا قد اغتابه. فأرسل إلى المغتاب طبقًا من البلح الرطب مع رسول، وقال للرسول: اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له: بلغ سيدي أنك اغتبته بالأمس فأهديت له حسناتك، وحسناتك بلا شك أثمن من هذا الرطب. وفي هذا إيضاح كاف لذم الغيبة.

﴿ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليمًا حكيمًا﴾ ونعلم أنه إذا جاءت أي صفة من صفات الحق داخلة في صورة كينونة أي مسبوقة بـ «كان» فإياكم أن تأخذوا «كان» على أنها وصف لما حدث في زمن ماضٍ، ولكن لنقل «كان وما زال». لماذا؟ لأن الله كان أزلاً، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم؛ فالله ليس من أهل الأغيار، والصفات ثابتة له؛ لأن الزمن في الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحًا في زمن ومريضًا في زمن آخر.

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا أصحاب الأغيار.

وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأغيار. وما دام الله هو الذي يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما، بل كان في الأزل غفوراً رحيمًا، ولا يزال أيضًا غفورًا رحيمًا. وكذلك كان علم الله أزليًّا وحكمته لا حدود لها.

وننتقل إلى قضية العلاقة بين الرجل وزوجته وخصوصًا في قضية الصلح بين الزوجين حيث يقول الله تعالى:

﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[1].

وقال في ذلك أيضًا:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2].

أي أن يغطي الرجل المرأة وتغطي المرأة الرجل فهى ستر له وهو ستر لها وحماية. ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تداري أي جزء ظاهر من جسمها، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفي شيئًا.

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد، وكذلك المرأة، فلا يقول الرجل أي نعت أو وصف جارح للمرأة، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها. ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله، واطلع على عورتها بحق الله.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهي هذا الخلاف قبل أن يقع؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة. وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته، أو يرغب في الزواج بأخرى لأي سبب من الأسباب،

---

(١) سورة النساء: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ١٨٧.

هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قَسْمها، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزَّواج فلتسمح له بذلك، أو تتنازل له عن شيء من المهر، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته، وهى مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة..

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾[1]. والصلح هنا مهمة الاثنين معًا؛ لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيرًا، والذي يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود، فتقول له الزوجة كلمة تنهي الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل من لا يملك سببًا أو دافعًا لحل المشكلة.

لذلك يجب أن نتنبه إلى قول الحق هنا: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾[2].

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول الحق:

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3].

وكذلك قول الحق سبحانه:

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4].

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هى مجمع كل الجمال والخيرات؛ لأن كل خصال الخير التي تتطلبها الحياة، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة. بل قد توجد في المرأة التي ليست على حظ من الحسن؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها. أما التي ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطيعة

(١) سورة النساء: ١٢٨.

(٢) سورة النساء: ١٢٨.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

(٤) سورة النساء: ١٩.

ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج؛ لأنها تريد أن تستبقي لنفسها رصيد استبقاء.

ولذلك نجد اللاتي ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة في حمل أعباء تكوين الأسرة، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسيّ، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه؛ لأن الجمال الحسيّ قد يأخذ بعقل الرجال، لكن عمره قصير. وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر.

وقد حدَّثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه، وهو رجل طيب فقال لها: آه لو رأيتني وأنا في دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعي. لقد ظن أنها عندما تراه في مجلس العلم سترتدع، وتكون حنونة عليه.

وذهبت لحضور درس العلم، ورآها، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له في قلبها، وعاد إليها آخر النهار وقال لها: لقد رأيتني اليوم. فقالت: رأيتك ويا حسرة ما رأيت، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ.

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته، وكان المريدون يرون إشراقات الله في تصرفاته، وماتت امرأته. وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التي كانت عنده من قبل. فسألوه: لماذا؟ فقال: ماتت التي كانت يكرمني الله من أجلها.

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة، والذي يصبر عليها يؤتيه الله خيرها، ولذلك قالوا: «إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت: الحمد لله فقال لها: على أي شيء تحمدين الله؟ قالت: على أني وأنك في الجنة. قال: لم؟ . قالت: لأنك رزقت بي فشكرت، ورزقت بك فصبرت، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة.

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هى مجمع الجمال والحسن في كل شيء، فإن كانت متدينة المستوى في جانب فهي متميزة في جانب آخر، فلا تضيع الامتياز الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما. وزوايا الحياة كثيرة. وقلنا سابقًا: إنه لا يوجد أحد ابنًا لله، بل كلنا بالنسبة لله عبيد. وما دمنا جميعًا بالنسبة لله عبيدًا وليس فينا ابن له. وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء، فهناك فرد أخذ الامتياز في جانب، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر - هذا النقص في زاوية ما، والامتياز في زاوية أخرى، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم.

فإن وجد الإنسان شيئًا لا يعجبه في المرأة، ووجدت المرأة شيئًا لا يعجبها في الرجل، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة، وأن تضم المرأة كل الزاويا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل.

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التي ليست كذلك، والذي يرضى هو من ينظر إلى المحاسن. والذي يغضب هو من ينظر إلى المقابح. والعادل في الغضب والرضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا، إنّ الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا: لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته؛ لذلك قال سبحانه: **﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا﴾**.

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوُجد، والذي يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس، والتي تتسرب

إلى موضوعات أخرى؛ لذلك يجب أن يكون الصلح، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى: ﴿أن يُصلحا بينهما صلحًا والصلح خير﴾ وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع.

وبعد ذلك يتابع الحق: ﴿وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾. يوضح لنا سبحانه: أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى «الشبكة»، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى. وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض. وجاء الحق في آية وقال:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].

وهنا يقول: ﴿وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ وهناك فرق بين الحقوق التي قد يتمسك بها أحد الزوجين، والإحسان الذي يتطوع به. ونعرف ما فعله قاض فاضل عندما قال لخصمين: أأحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل؟

فسأل واحد: وهل هناك خير من العدل؟ فقال القاضي: نعم إنه الفضل. فالعدل إعطاء الحق فقط، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه.

سبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل، وجعل له غرائز، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه، ولكنه - جل وعلا - يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة، فحين يمنح القلب أن يحب، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ

(١) سورة النساء: ٢١.

بالحب. فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات.

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوداً. ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبعات تربيتهم. إذن فالحب له مهمة. والله لا يريد منا أن نمنع الحب. لكنه يريد منا أن نعلي مطالب الحب، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس.

إنك حين تجعل الحب موجهًا إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ. وعندما ننظر - مثلاً - إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة. ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئًا أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات الحمل الثقيل. إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلي غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها في مجالها المشروع فلا نجعلها تجسسًا على عورات الناس مثلاً، وكذلك جعل الله غريزة حب المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد. كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني. إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقًا يلغ في أعراض الناس. إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة. والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج.

إذن.. فالميل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه: أنا خلقت الميل ليخدم في عمارة الكون، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل، وحين تعددون الزوجات. لا أطلب منكم البعد عن كل الميل؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي فقط، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبي.

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطي من تحب خير غيـره ظلمًا، وأبغض أيها العبد من شئت، فلا يستطـيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبـعض أو يحب، لكن بغضك لا تعـديه عن قلبك إلى جوراحك لتظلم من تبغض.

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مرّ عليه قاتل أخيه، ولفت نظره جليس له: هذا قاتل أخيك.

هنا قال عمـر ﷺ: وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسـلام؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ﷺ وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر قال له سيـدنا عمر: إذا أقـبلت عليّ إلوِ وجهك عني، لأن قلـبي لا يرتاح لك. سأل الرجل: أو عدم حبك لي يمنعني حقًّا من حقوقي؟. قال عمر: لا.

قال الرجل: إنما يبكى على الحب الـنساء. هذا عمر وهو الخليـفة، والرجل من الرعية. لكن عمر الخليـفة يخاف من الظلم، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ﷺ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن.

* * *

* قصة القاضي مع أمير المؤمنين *

حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط؛ لذلك قال: **﴿إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾**.

وقد يقول قائل: إن الهوى قد ينحاز إلى الغنيّ طمعًا في ثرائه؛ فلماذا يذكر الله الفقير أيضًا؟ ونقول: قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدِّث الشاهد نفسه «أنه فقير ويستحق الرحمة»؛ لذلك يحذرنا الحق من الانحياز إلى الغني أو إلى الفقير.

ولا دخل للشهادة بثراء الثرى أو بفقر الفقير؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالقهم جل شأنه ولذلك جاء بالحيثية الملجمة **﴿فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾** أي أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القيّم على الوجود.

والذي يفسد ويشوش على العدل هو الهوى، والمثل العربي يقول: «آفة الرأى الهوى». وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه. والتاريخ العربي يحتفظ لنا في ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له: أعفني من القضاء! فقال الخليفة: فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذي شهد له كل الناس بذلك؟

فقال القاضي: والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عني أني أحب الرُّطب - أي البلح - وبينما أنا في بيتي وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب، ومن الطبيعي أن تكون النفس في لهفة عليه ما دامت تحبه، ويتابع القاضي حكايته للخليفة: فقلت للخادم من جاء به؟ فأجاب الخادم: إنه

واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن مَن أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامي، فرددت عليه الرطب، ولما كان يوم الفصل في قضية صاحب الرطب، دخل الرجل عليّ فعرفته، فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق. وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء.

ويتابع الحق سبحانه: ﴿ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1]. أن تلووا في الشهادة والليّ هو التحريف.. أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، فإن الله بما تعملون خبير، أو أن يُعْرِض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه؛ لذلك يقال: إنه خائف من المشهود عليه؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له؛ لهذا فهو يعرض عن الشهادة، وإن جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوي لسانه بها، لذلك يقول الحق: ﴿ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[2].

إذن فالذي يفسد العدل هو الهوى، والهوى عمل القلب؛ لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف. فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب، وبذلك صار العمل ينقسم الآن أمامنا إلى ثلاثة أقسام: قول لسان، وفعل بجوارح غير اللسان، ونيات قلوب وهوى.

* * *

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

* قصة حساب الخالق للخلق *

قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[١]. هذه هى القضية العامة، ومن بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب، ولكن هذه الكلاب التي نعلمها الصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد، أو بعد أن تذبح الصيد الذي اصطاده الكلب، فذكر اسم الله مسألة أساسية في تناول النعم، لأننا نذكر المذلل والمسخر، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ وتقوى الله في هذا المجال تعني ألا يؤدي الإنسان هذه الأمور شكليًّا، وعلى المؤمن أن يتقي الله في تنفيذ أوامره بنية خالصة ودقة سلوك؛ لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى، فمهما طالت دنياك فهي منتهية. وما دام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد. وإياك أن تستطيل عمر الدنيا؛ لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذي قد يطول عن عمرك. إذن مدة الحياة محدودة، وما دام الموت قد جاء، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله ﷺ:

«إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته»[٢].

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم. لا يعرف الإنسان منا كم ساعة قد نامها، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم:

---

(١) سورة المائدة: ٤.

(٢) لم يصح من كلام الرسول ﷺ. انظر: كشف الخفاء (٢/ ٣٨٦)، وإتحاف السادة (٩/ ١١)، (١٠/ ٣٨٠)، الفوائد المجموعة (٢٦٧)، تذكرة الفتنى (٢١٥).

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾(١).

إذن.. هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدري كم مات إلا يوم البعث. أو أنه سبحانه سريع الحساب أي أن له حسابًا قبل حساب الآخرة، وهو حساب الدنيا. فعندما يرتكب العبد المخالفات التي نهى عنها الله، ويأكل غير ما حلل الله، فهو سبحانه قادر على أن يجازي العبد في الدنيا في نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسي، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين. وقوله الحق: ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ يصح أن تكون السرعة في الحساب في الدنيا ويصح أن تكون في الآخرة.

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع في أقل من لمح البصر، فالبعض يظن ظنًّا خاطئًا أنهم سيقفون يوم القيامة في طابور طويل ليتلقي كل واحد حسابه. لا، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته. ولذلك عندما سئل الإمام علي - كرم الله وجهه - : كيف سيحاسب الله كل الناس في وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر؟. فقال الإمام علي: فكما يرزقهم جميعًا في وقت واحد هو قادر على حسابهم في وقت واحد.

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابورًا في الرزق، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل، وكل إنسان يسعى في أرض الله لينال من فضله. ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله؛ لأن الزمن إنما يُحسب على الذي يحدث الحدث وقدرته عاجزة، لذلك يحتاج إلى زمن.

إننا عندما ننقل حجرًا متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوي إلا بعضًا من قُوَّتِه، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل، فما بالنا بخالق الإنسان والكون؟ وما بالنا بالفاعل الذي هو قوة القوى؟ هو لا يحتاج إلى زمن، وهو سريع الحساب بكل المعاني.

---

(١) سورة الكهف: ١٩.

* قصة وقوع الصدقة في يد الله *

إنَّ معنى قوله: ﴿مَن ذا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١]. إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو.

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا - وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى - هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضوني ما معكم من مال؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة، كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال، إنما اقترضته منهم، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة ﵂ عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه، فسألها أبوها: «**ما تصنعين يا فاطمة؟**» قالت: أجلو درهمًا. قال: «**لماذا؟**» قالت: لأني نويت أن أتصدق به، قال: «**وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه؟**» قالت: لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج.

ومن البر أيضًا أن يفي الإنسان بالعهد، فالحق يقول: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[٢]. وما معنى العهد؟. إن هناك عهدًا، وهناك عقد. والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد. والعقد يوجد بين طرفين أيضًا، أحدهما يعطي ويأخذ، والآخر يعطي ويأخذ.

ومن البر أن تكون من ﴿**الصابرين في البأساء والضراء**﴾[٣]. ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ «الموفون بعهدهم» مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكنَّ البر، فلماذا جاء «بالصابرين» منصوبة؟ فماذا يعني كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.

النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول: لَمْ يكسر الإعراب هنا إلا لينبهني إلى أن شيئًا يجب أن يُفهم، لأن الذي يتكلم بليغ وما دام بليغًا وقال قبلها: «والموفون» ثم قال: «والصابرين» فلابد أن يكون هناك سبب، ما هو السبب؟

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر، إيتاء المال على حبه ذوى القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب، وكسر الإعراب يقتضي أن تأتي له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى: «والصابرين» وكأن معناها: وأخص الصابرين، وأمدح الصابرين.

إذن . . كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئًا جديدًا استحق أن يُخالف عنده الإعراب. لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبه هو الذي فاز وظفر، إذن كل ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خص الله «الصابرين» بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص.

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح؟

لأن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر. وما دام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون. ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة.

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد «والموفون» حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة، بأن الإعراب فيما سبق «والصابرين» تقديري معطوف أي هو معطوف على خبر «ولكن البر من آمن بالله» . . فجاءت «والموفون» مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر «ولكن»، ثم جاء ما بعدها «والصابرين» منصوبة، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها. «والصابرين في البأساء والضراء» البأساء هو البؤس والفقر، وهذا في الأحوال، نقول: فلان حاله بائس. «والضراء» هى الألم والوجع والمرض، وهى تصيب البدن والجسد. «وحين البأس» أي حين الحرب عندما يلتقي المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل.

* قصة العارف والطارق *

يريد الحق من المؤمن أن تكون له فراسة نافذة في أخيه بحيث يتبين أحواله بالنظرة إليه ولا يدعه يسأل، لأنك لو عرفت بـ «السيما» فأنت ذكي، أنت فطن، إنما لو لم تعرف بـ «السيما» وتنتظر إلى أن يقول لك ويسألك، إذن فعندك تقصير في فطنة النظر، فهو سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يكون فطن النظر بحيث يستطيع أن يتفرس في وجه إخوانه المؤمنين ليرى مَن عليه همُّ الحاجة ومن عنده خواطر العوز، فإذا ما عرف ذلك يكون عنده فطانة إيمانية.

ولنا العبرة في تلك الواقعة، فقد دق أحدهم الباب على أحد العارفين فخرج ثم دخل وخرج ومعه شيء فأعطاه الطارق، ثم عاد باكيًا فقالت له امرأته: ما يبكيك؟. قال: إن فلانًا طرق بابي. قالت: وقد أعطيته فما الذي أبكاك؟. قال: لأني تركته إلى أن يسألني.

إن العارف بالله بكى؛ لأنه أحس بمسئولية ما كان يجب عليه أن يعرفه بفراسته، وأن يتعرف على أخبار إخوانه. ولذلك شرع الله اجتماعات الجمعة حتى يتفقد الإنسان كل أخ من إخوانه، ما الذي أقعده: أحاجة أم مرض؟ أحدث أم مصيبة؟ وحتى لا يحوجه إلى أن يذل ويسأل، وحين يفعل ذلك يكون له فطنة الإيمان.

﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾[1] يجب أن تعلم أنه قبل أن تعطي قد علم الله أنك ستعطى، فالأمر محسوب عنده بميزان، ويجيء تصرف خلقه على وفق قدره، وما قدره قديمًا يلزم حاليًا، وهو سبحانه قد قدر؛ لأنه علم أن عبده سيفعل وقد فعل. وكل فعل من الأفعال له زمن يحدث فيه، وله هيئة يحدث عليها. والزمن ليل أو نهار.

---

(١) سورة البقرة: ٢١٥.

ثم يقول الحق سبحانه وتعال مبينًا حالات الإنفاق والأزمان التي يحدث فيها وذلك في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

إن المسألة في الإنفاق تقتضي أمرين: إما أن تنفق سرًا، وإما أن تنفق علانية. والزمن هو الليل والنهار، فحصر الله الزمان والحال في أمرين: الليل والنهار فإياك أن تحجز عطيةً تريد أن تعطيها وتقول: «بالنهار أفعل أو في الليل أفعل؛ لأنه أفضل» وتتعلل بما يعطيك الفسحة في تأخير العطاء، إن الحق يريد أن تتعدى النفقة منك إلى الفقير ليلاً أو نهارًا، ومسألة الليلية والنهارية في الزمن، ومسألة السرية والعلنية في الكيفية لا مدخل لها في إخلاص النية في العطاء.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أقالت الآية: الذين ينفقون أموالهم بالليل أو النهار؟ لا، لقد طلب من كل منا أن يكون إنفاقه ليلاً ونهاراً وقال: «سرًا وعلانية» فأنفق أنت ليلاً، وأنفق أنت نهاراً، وأنفق أنت سرًا، وأنفق أنت علانية، فلا تحدد الإنفاق لا بليل ولا بنهار، لا بزمن؛ ولا بكيفية ولا بحال.

* * *

(١) سورة البقرة: ٢٧٤.

* قصة المتصدق بأربعة دراهم *

إن الحق سبحانه استوعب زمن الإنفاق ليلاً ونهارًا، واستوعب أيضًا الكيفية التي يكون عليها الإنفاق سرًّا وعلانية ليشيع الإنفاق في كل زمن بكل هيئة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى عن هؤلاء: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾[1] وهذا القول يدل على عموم من يتأتى منه الإنفاق ليلاً أو نهارًا، سرًّا أو علانية.

وإن كان بعض القوم قد قال: إنها قيلت في مناسبة خاصة، وهي أن الإمام عليًّا كرم الله وجهه ورضي عنه كانت عنده أربعة دراهم، فتصدق بواحد نهارًا، وتصدق بواحد ليلاً، وتصدق بواحد سرًّا، وتصدق بواحد علانية، فنزلت الآية في هذا.

* * *

(١) سورة البقرة: ٢٧٤.

* قصة الرزق يبحث عن صاحبه *

إن معنى قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾(١). والحرف: هو طرف الشيء، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف في آخر الجالسين، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعني: لم يتمكَّن الإيمان من قلبه، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده.

والآية لم تترك شيئًا من هواجس النفس البشرية سواء في الخير أو في الشر.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾(٢). وكذلك: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ فأنت لا تقول: أصبتُ الخيرَ، إنما الخير هو الذي أصابك وأتاك إلى بابك، فأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك؛ لذلك يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾(٣).

ويقول أهل المعرفة: رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تُرزَق منه بشيء، وقد ترى الزرع في الحقول زاهيًا تأمل فيه المحصول الوفير، وتبني عليه الآمال، فإذا بعاصفة أو آفة تأتي عليه، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق.

ولنا عبرة ومثَلٌ في ابن أُذَيْنة حين ضاقت به الحال في المدينة، فقالوا له: إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام، واستأذن فأَذِن له، واستقبله صاحبه، وسأله عن حاله فقال: في ضيق وفي

(١) سورة الحج: ١١.

(٢) سورة الحج: ١١.

(٣) سورة الطلاق: ٢، ٣.

شدة. وكان في مجلس الخليفة علماء فقال له: يا عروة ألست القائل - وكان ابن أُذَيْنة شاعراً -:

لَقَد علِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أنَّ الذي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يأتِينِي؟

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره، وخيَّب أمله فيه، فقال له: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، لقد ذكَّرت مني ناسيًا، ونبَّهْتَ مني غافلاً، ثم انصرف.

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة، وفكَّر الخليفة في الموقف وأنَّب نفسه على تصرفُه مع صاحبه الذي قصد خَيْره وكيف أنه ردَّه بهذه الصورة، فأراد أنْ يُصلِح هذا الخطأ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة في مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر، إلى أنْ وصل إلى بيته، فطرق الباب، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه، وهذه عطاياه وهداياه.

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول، فقال:

أسْعَى لَهُ فَيُعَنِّيني تطلُّبه ولَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لاَ يُعَنِّيني

كذلك نلحظ في هذه الآية: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾[1] . ولم يقابل الخير بالشر، إنما سماها (فتْنة) أي: اختبار وابتلاء؛ لأنه قد ينجح في هذا الاختبار فلا يكون شرًّا في حَقِّه.

ومعنى: ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني: عكس الأمر؛ فبعد أنْ كان عابدًا طائعًا انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصيًا ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ وخسْران الإنسان لعبادته خسْران كبير لا يُجبَر ولا يُعوِّضه شيء؛ لذلك يقول بعدها: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فهل هناك خُسْران مبين، وخسران غير مبين؟

نعم: الخسران هو الخسارة التي تعوض، أما الخسارة التي لا عوض لها فهذه هي الخسران المبين الذي يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه، وهو خُسْران لا يقتصر

---

(١) سورة الحج: ١١.

على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه. إنما يمتد للآخرة حيث لا عِوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها. فالخسران المبين أي: المحيط الذي يُطوِّق صاحبه.

لذلك نقول لمن فقد عزيزًا عليه، كالمرأة التي فقدت وحيدها مثلاً: إنْ كان الفقيد حبيبًا وغاليًا فبيعوه غاليًا وادخلوا به الجنة، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**[1].

والصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن، وهى بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ[2]، حَسْب قوة الإيمان.

اسمع إلى هذا الحوار الذي دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد، وكيف كانوا يتبارونَ في الوصول إلى هذه المراقي الإيمانية، ويتنافسون فيها، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة، إنما عن نية خالصة في الرُّقي الإيماني.

* * *

(١) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (الزهد/ ٦٣)، وأحمد (٤/ ٣٣٣)، (٥/ ٢٤)، (٦/ ١٦)، وابن المبارك (٢/ ٢٩) في الزهد، والبغوى (٨/ ١٣٠) في تفسيره.

(٢) مراقٍ: مفردها مرقاة، أي درجة، ويقال: ارتقى: ارتفع وصعد، وترقى العامل، ارتفع من درجةٍ إلى درجةٍ.

* قصة حال الزهاد *

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه: كيف حال الزهاد في بلادكم؟ فقال: إن أصابنا خير شكرنا، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا، فضحك الشيخ وقال: وما في ذلك؟! إنه حال الكلاب في بَلْخ[1]. أما عندنا: فإنْ أصابنا خير آثرنا، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا.

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس، فكلاَ الرجلين زاهد سالك لطريق الله، يرى نفسه محسوبًا على هذا الطريق، فيحاول أنْ يرتقيَ فيه إلى أعلى مراتبه، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ، وشمَّر عن ساعد الجد في عبادة ربه.

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَاد يقول لصاحبه: ألاَ تشتاق إلى الله؟ قال: لا، قال مُتعجبًا: وكيف ذلك؟ قال: إنما يُشتاق لغائب، ومتى غاب عني حتى أشتاق إليه؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل.

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذي يعبد الله على حرف:

﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾[2].

معنى: ﴿ما لا يضره...﴾ هل الصنم الذي يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره؟ لا، الصنم لا يضر، إنما الذي يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته، تضره الربوبية التي يعاندها والمجَازي الذي يجازيه بعمله، إذن: فما معنى: «يضره . .» هنا؟

المعنى: لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده، ولا ينفعه إنْ عبده: ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ نعم ضلال: لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه في أي شيء، أو يخشى ضره في أيِّ شيء.

---

(١) اسم بلدة من أعمال خراسان.

(٢) سورة الحج: ١٢.

وقد ذكرنا سابقًا قول بعض العارفين: (واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه)، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا في الكتب الدراسية، واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضًا بالفساد، ولوقف الولد يفكر مرة وألف مرة في توجيهات ربه، ونصائح أبيه وأمه، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئًا.

لابُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادئ الإسلام، ليعرف الولد منذ صِغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه، ومَنْ أَوْلَى بطاعته.

وتلحظ في الآية أن الضر سابق للنفع: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾[1]. لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه، والنفع يزيدك ويضيف إليك، أما الضر فينقصك، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد، فإذا وقفتَ أمام أمرين: أحدهما يجلب خيراً، والآخر يدفع شرًّا، فلا شَكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً، وتشتغل بدَرْءِ الفسدة قبل جَلْب المصلحة.

وضربنا لذلك مثلاً: هَبْ أن إنسانًا سيرمى لك بتفاحة، وآخر سيرميك بحجر في نفس الوقت، فماذا تفعل؟ تأخذ التفاحة، أو تتقي أَذَى الحجر؟ هذا هو معنى «دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة».

* * *

(١) سورة الحج: ١٢.

* قصة الحشر يوم القيامة *

حين ينفي الحق سبحانه وتعالى النسب يقول: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[(١)].

فليس النفي لوجود النسب، فإذا نُفِخ في الصور منعت البُنوَّة من الأبوة، أو الأبوة من البنوة. إنما النسب موجود حقيقة، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر في دفع الشر، فالنفي هنا لهذه المنفعة في هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحدًا، فالنسب موجود لكن دون نفع، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوي وضعيف، فالقوي يُعين الضعيف، ويفيض عليه، أمّا في هذا الموقف فالكل ضعيف.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[(٢)].

ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[(٣)].

لذلك حينما حدَّثَ رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة، واستحيتْ من هذا الموقف، فأخبرها رسول الله ﷺ أن الأمر ليس كذلك، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد[(٤)].

إذن: النفي لنفع الأنساب، لا للأنساب نفسها.

وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى في الدنيا عن ذوي قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين، وقد ضربها الله مثلاً في قصة نوح - عليه السلام - وولده، وخاطبه ربه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠١.

(٢) سورة عبس: ٣٤-٣٧.

(٣) سورة المدثر: ٣٨.

(٤) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٦/ ٩٠)، والنسائي (٤/ ١١٤)، والحاكم (٤/ ٥٦٤) وصححه، وأقره الذهبي.

غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1]. فامتنع النسب حتى في الدنيا، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع.

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزُّون بالإسلام، لا بالأنساب، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة، وهما الرابطة القوية التي تربط الإنسان بغيره، وإنْ كان أدنى منه في مقاييس الحياة.



(١) سورة هود: ٤٦.

* قصة مصعب بن عمير المدلل *

قرأنا في قصة بدر أن مصعب بن عمير - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل، وأغنى أغنيائها، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد في كل هذا النعيم، وحُرم من خير أهله، ثم هاجر إلى المدينة، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال: «**انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم**»(١).

وفي المعركة، رأى مصعب أخاه أبا عزيز أسيراً في يد واحد من الأنصار هو الصحابي أبو اليَسَر فقال له مصعب: اشدد على أسيرك - يعني: إياك أن يفلت منك - فإن أُمَّه غنية، وستفديه بمال كثير، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال: أهذه وصاتك بأخيك؟ فقال: هذا أخي دونك.

إذن: فلا أنسابَ بينهم، حتى في الدنيا قبل الآخرة.

وفي غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوبًا قَصيرًا، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه، وإنْ غطَى رِجلَيْه انكشفت رأسه، فقال النبي ﷺ: «**غطوا رأسه، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر**»(٢).

والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها، ولكن من أجل زوجها، فيشاء الله تعالى أن يُظهر براءتها، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان، ولَما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه، ولم ينتظر إلى أن تجيء ليعقد عليها، فوكّل النجاشي ملك الحبشة ليعقد له عليها(٣).

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ: أخرجه أبو نعيم (١/١٠٨) في الحلية.

(٢) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (٩٤٠).

(٣) خبرٌ ضعيفٌ: أخرجه ابن سعد (٨/٩٨، ٩٩) في طبقاته، والحاكم (٤/٢٢) وفي سنده الواقدي، وهو من الضعفاء.

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها، وكانت تمهِّد فراش رسول الله، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحَّتْه[١] جانبًا، ومنعتْه أن يجلس وهو كافر على فراش رسول الله ﷺ، فقال: أضنًا بالفراش عليَّ؟ فقالت: نعم[٢].

إذن: نَفْع الأنساب يمتنع في الدنيا قبل امتناعه في الآخرة، لكن الحق سبحانه وتعالى تفضّل بأن أبقى مطلوبات النسب في الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى، فإنْ رأيت الكافر في شدة وقدرت أن تُعينه فَأَعِنْه.

واقرأ في هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[٣].

فهما كافران، بل ويريدانك كافرًا، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب، ولا تقطع الصلة بهما.

ويُرْوَى أن إبراهيم - عليه السلام - وقد أعطاه الله الخُلَّة، وقال عنه: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾[٤]. وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل، فقبل أن يُدخِله ويُضيفه سأله عن ديانته، فأخبره أنه غير مؤمن، فأعرض عنه إبراهيم - عليه السلام - وتركه ينصرف، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم وسعْتُ عبدي وهو كافر بي، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به، وأخبره بما كان من عتاب ربه له في شأنه، فقال الرجل: نِعْم الرب الذي يعاتب أحبابه في أمر أعدائه، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله.

---

(١) نحته: أبعدته.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/٩٩، ١٠٠) في طبقاته، وفيه الواقدي.

(٣) سورة لقمان: ١٥.

(٤) سورة النجم: ٣٧.

* قصة الواشي بهمام السلولى *

يقول الحق تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ : لا تستبطىء عذابهم والانتقام منهم في الدنيا، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب في الدنيا ستراه في الآخرة: وذلك في مستهل الآية الكريمة: ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (١).

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢).

والإنذار نوع من الرحمة، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه، ليحذره المنذَر، ويحاول أن يُنجي نفسه منه، ويبتعد عن أسبابه، فحين أذكَرك بالله، وأنه يأخذ أعداءه أخْذَ عزيز مقتدر، فعليك أن تربأ بنفسك عن هذه النهاية، وأن تنجوَ من دواعي الهلاك.

ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ محيط، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣).

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة، وأثمرتْ فيهم، فآمنوا بالله إلهًا فاعلاً مختارًا له صفات الكمال المطلق، ثم عملوا على مقتضى أوامره لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت ألَمَّتْ نفوسهم بشيء من المعاصي، ويكون لهم رزق كريم. والكريم هو البذَّال، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة، كما أن الكريم هو الذي تظل يده مبسوطة دائمًا بالعطاء، على حَدِّ قول الشاعر:

وَإِنِّي امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِي ... عَلَى الكَفِّ إِلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيلِ

فالرزق نفسه كريم؛ لأنه ممدود لا ينقطع، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور، وهكذا.

---

(١) سورة غافر: ٧٧.

(٢) سورة الحج: ٤٩.

(٣) سورة الحج: ٥٠.

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(١).

السعي: عمل يذهب إلى غاية، فإنْ كان قطع مسافة نقول: سِرْنا من كذا إلى كذا، وإنْ كان في قضية علمية فكرية، فيعني: أن الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية.

والسَّعْيُ لا يُحمد على إطلاقه، ولا يُذَمُّ على إطلاقه، فإنْ كان في خير فهو محمود ممدوح، كالسعي الذي قال الله فيه: ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(٢). وإنْ كان في شَرٍّ فهو قبيح مذموم، كالسعي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾(٣).

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر، وتعني: الوشاية والسّعي بين الناس بالنميمة، تقول: فلان سَعَّاء بين الخلق يعني: بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى، وهؤلاء إنْ علموا الخير أخفَوْه، وإنْ علموا الشر أذاعوه، وإن لم يعلموا كذبوا.

لذلك، نقول عَمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس. هذا آفة الآخذ، يعني: الذي سمع الشرَّ ونقله وسعى به، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق.

وقد وشى واشٍ بهمام بن عبد الله السلولى إلى زياد بن أبيه، وكان زياد جبارًا فقال للواشي: أأجمع بينك وبينه؟ فلم يجد الواشي بُدًّا من أنْ يقول: نعم، فكيف ينكر ما قال؟! ولعله قال في نفسه: لعل الله يقضى أمرًا يُخرِجني من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأُتِي به. وقد جعل زياد الواشي في مجلسه خلف ستار، وأُدخِل همام، فقال له: يا همام بلغني أنك هجوْتني، فقال: كلا، أصلحك الله ما فعلتُ، ولا أنت لذلك

(١) سورة الحج: ٥١.
(٢) سورة الإسراء: ١٩.
(٣) سورة البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥.

بأهْل. فكشف زياد الستار وقال: هذا الرجل أخبرني أنك هجوتني، فنظر ابن همام، فإذا هو صديق له يجالسه، فقال له:

أنتَ امْرؤٌ إمَا ائتمنْتكَ خَاليًا فَخُنْتَ وَإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأمْرِ الذي كَانَ بيننَا بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإثْمِ

يعني: أنت مذموم في كل الأحوال؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سِرًّا فضفضْتُ لك به، وإمَّا اختلقْتَ هذا القوْل كذبًا وبلا علم.

وعندها خلع زياد على همام الخُلَع، لكنه لم يعاقب الواشي، وفي هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه.

* * *

* قصة أرجى آية في القرآن الكريم *

جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعًا؛ ولذلك فهى الباقية.

ويُحكَى أن الإمام عليًّا - كرم الله وجهه ورضي عنه - أقبل على قوم وقال لهم: أي آيةٍ في كتاب الله أرْجَى عندكم؟

أي: ما هى الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا، فقال بعضهم: هى قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها، أي: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعنيها.

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

فكرر الإمام على: حسنة، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هى قول الحق سبحانه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[3].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

فقال بعضهم: هى قوله سبحانه:

---

(١) سورة النساء: ٤٨.

(٢) سورة النساء: ١١٠.

(٣) سورة الزمر: ٥٣.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[١].

فقال الإمام على: حسنة، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا، فقال الإمام على كرَّم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم؟.. فقالوا: لا شيء.

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساسًا يبني عليه ما سوف يقول لهم: واشرأبت[٢] أعناقهم، وأرهفوا السمع، فقال لهم الإمام علي: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «**أَرْجَى آية في كتاب الله هى قول الحق سبحانه:**

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[٣].

يا علي إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل[٤] - أي: لا يلتفت - **إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا أحدث شيئًا بين الصلاتين فله ذلك**، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة، فقال: **بين الصبح والظهر، وبين الظهر والعصر، وبين العصر والمغرب، وبين المغرب والعشاء، وبين العشاء والفجر**»، ثم قال ﷺ: «**يا علي إنما الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار بباب أحدكم، أو لو كان على جسد واحد منكم درن**[٥] **ثم اغتسل في البحر، أيبقى على جسده شيء من الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمتي**»[٦].

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٢) اشرأب إليه، أو اشرأب له، اشرئبابًا، وشرئبيبة: مد عنقه، أو ارتفع لينظر.

(٣) سورة هود: ١١٤.

(٤) انفتل: التوى، وانصرف. ويقال: انفتل عن رأيه، وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم.

(٥) درن الشيء درنًا: وسخ وتلطخ. يقال: درن الثوب. ودرنت يداه بكذا فهو درن، وأدرن، وهى درناء. وأم درن: الدنيا.

(٦) لا أصل له.

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا مجال الصلاة، فمجالها كل عمر الإنسان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[٢].

والصبر نوعان: صبر «على»، وصبر «عن» وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلي الفجر، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين: في الإيجاب للطاعة، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره؛ فاصبر على المكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات؛ فاصبر عنها.

وافرض أن واحدًا يرغب في أكل اللحم، ولكنه لا يملك ثمنها، فهو يصبر عنها؛ ولا يستدين.

* * *

(١) سورة هود: ١١٥.

(٢) سورة طه: ١٣٢.

* قصة العارف وفناء العمر *

الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسيًّا ويُقوِّي قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك.

وهو رحمة لك حين تتخذه منهجًا، وتُطبِّقه في حياتك؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض، فهو طِبٌّ علاجيٌّ وطِبٌّ وقائيٌّ في آنٍ واحد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ(٢) أَمِينٌ ﴾(٣).

ونلحظ أن الملك قد قال: ﴿ائتوني به﴾.

مرتين(٤)، مرة: بعد أن سمع تأويل الرؤيا؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته؛ أو: أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز.

بتعذيب فلان، فماذا يفعل وهو يعلم أنه بريء مظلوم، ولا يطاوعه قلبه في تعذيبه، فكأن يدخل على المسجون ويقول له: اصرخ بأعلى صوتك، ويُمثِّل أنه يضربه.

(١) سورة الإسراء: ٨٢.
(٢) مكين: صاحب مكان مستقر.
(٣) سورة يوسف: ٥٤.
(٤) المرة الأولى كما في الآية (٥٠) من سورة يوسف.
والمرة الثانية كما في الآية (٥٤) من نفس السورة.

يقول الله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[(١)]. فأنت ستزول، بل دنياك كلها ستزول بِمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة، ولن يبقى إلا الله، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب في الدنيا، أما في الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب. إنما بالمسبب - عز وجل - دون أسباب.

لذلك إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك، وهذا نعيم الآخرة، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور.

لذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾[(٢)]. فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شيء في دُنْياهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصّلوا إليه.

إذن: اجعل الله - تبارك وتعالى - في بالك دائمًا يكُنْ لك عوضًا عن كل فائت، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه. وقد ورد في الحديث القدسي: «**ان كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟**»[(٣)].

ولما سُئل أحد العارفين: فيم أفنيتَ عمرك؟ قال: في أربعة أشياء: علمتُ أنَّى لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفة عَين، فاستحييتُ أن أعصيه، وعلمتُ أن لي رِزْقًا لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعتُ به، وعلمتُ أن عليَّ دينًا لا يُؤدِّيه عنِّي غيري فاشتغلتُ به، وعلمتُ أن لي أجَلاً يبادرني فبادرته.

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع، فقال: اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن

---

(١) سورة طه: ٧٣.

(٢) سورة يونس: ٢٤.

(٣) لا أصل له.

نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لَمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه.

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله.

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾[1].

قوله: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ يعني مُجرمًا عمل الجريمة، والجريمة أنْ تكسر قانونًا من قوانين الحق - عز وجل - كما يفعل البشر في قوانينهم، فيضعون عقوبة لَمَنْ يخرج عن هذه القوانين، لكن ينبغي أن تُعيَّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس، فإذا ما وقع أحد في الجريمة فقد أعذر من أنذر.

إذن: لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة، ولا توجد جريمة إلا بنص.

* * *

(١) سورة طه: ٧٤.

* قصة الصبي مع الخليفة العباسى *

يُروى أن المهدي الخليفة العباسي دخل الكعبة، فوجد صبيًّا صغيرًا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار، والصبي يُلْقِي عليهم درسًا، فتعجب المهدي وقال: أُفٍّ لهذه السعانين يعني الذقون، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم؟ ثم دنا من الصبي يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له: كم سِنّك يا غلام؟ فقال الصبي: سني سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر، فقال له المهدي - معترفًا بذكائه وأحقيته لهذا الموقف: بارك الله فيك.

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذي يرى بنور الله، ولا يصدر في أمر من أموره إلا على هَدْيه.

فالفرقان - إذن - لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة، سواء ما نزل على موسى، أو ما نزل على محمد، إلا أن الفرقان أصبح عَلَمًا على القرآن، فهناك فَرْق بين العلم والوصف، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ، أمّا إنْ سُمِّي به ينصرف إلى القرآن.

والمتأمل في مادة (فَرَق) في القرآن يجد أن لها دورًا في قصة موسى - عليه السلام -، فأول آية من آياته: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾[1].

والفَرْق أنْ تفصل بين شيء مُتصل مع اختلاف هذا الشيء، وفي علم الحساب يقولون: الخَلْط والمزج، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير، تداخل حتى صار شيئًا واحدًا.

---

(١) سورة البقرة: ٥٠.

إذن: ففَرْق البحر لموسى - عليه السلام - ليس فَرْقًا بل فرقانًا، لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفـرِق السائل إلى فِـرقَيْن، كل فِـرق كالطود[1] العظيم، ومَنْ يقدر على المسألة إلا الله؟

ثم يقـول تعالى: ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]. أي: نورًا يهدي الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب، وإلاَّ فكيف يسيرون في دروب الحياة؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه، فالضـياء - إذن - هام وضروري في مسيرة الإنسان، وبه يهتدي لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة، فلا يَتْعب، ولا يُتعِب الآخرين.

«وذكرًا . . .» أي: يذكِّر وينَبِّه الغـافلين، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذي يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة، لذلك لما شبه النبي ﷺ غفلة الناس قال: **«تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا»**.

وفي رواية **«عوذًا عـوذًا»**[3] أي: يستـعيذ بالله أن يحـدث هذا لمؤمن، فهل رأيتَ صانع الحـصير حـينما يضمُّ عُـودًا إلى عُود حتى يُـكوِّن الحصيـر؟ كذلك تُعرَض علينـا الفتن، فإنْ جاء التـذكير في البـداية أزال ما عندك من الغـفلة فلا تتراكم عليك الغفلات.

* * *

(١) الطود: الجبل الشامخ.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٨.

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١)، وأبـو عوانة (١/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٣٨٦، ٤٠٥)، والبغوي (١٥/ ٧) في شرح السنة.

فهرس كتاب

قصص الصحابة والصالحين

* * *


Bibliotheca Alexandrina
0679844